

موسوعة الثورة الحسينية

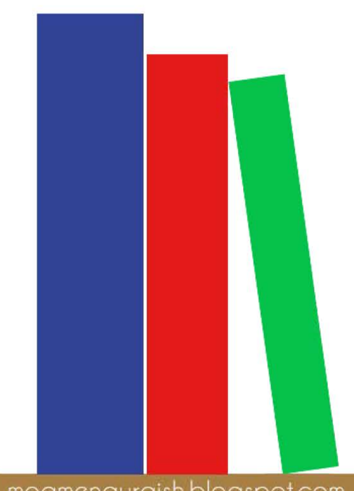
دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية

أهدافها، ظروفها، وقائعها، نتائجها

محمد نعمة السماوي

الجزء الرابع

دار المرتضى



مكتبة
مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .

الإمام الصادق (ع)

moamenquraish.blogspot.com



٤

دار المرتضى

للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان - بيروت
تليفاكس ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢
ص.ب.: ٢٥/١٥٥ الغبيري
E-mail; mortada14@hotmail.com

Printed in Lebanon

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

موسوعة

الثورة الحسينية

دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية

أهدافها، ظروفها، واقعها، نتائجها

أحاديث عن أنصارها ومناوئيها
ونتائجها المباشرة والبعيدة
وبحوث في تاريخ الإسلام والمسلمين
ومجتمعاتهم في ظل الخلاف والانحراف

محمد نعمة السماوي

الجزء الرابع


بسم الله الرحمن الرحيم

مضامين الكتاب وبحوثه

الفصل الأول: الامام الحسين وموقفه من بني يزيد بعد وفاة معاوية ١١
- حقد يزيد على الحسين وآل البيت ١٣
- مصادر التاريخ تورد أسباباً تافهة ١٣
- معاناة الأئمة الثلاثة علي والحسن والحسين ١٦
- مهمات عاجلة أمام يزيد بعد وفاة معاوية ٢٠
- وصية معاوية ليزيد برنامج انحرافي متكامل ٢٠
- مراسيم الدفن ولحظات التنصيب ٢٣
- مسرحية تنصيب الخليفة يزيد ٢٥
- خطاب حفل التتويج أضغات أحلام وأنهار دماء ٢٦
- حقد معاوية التاريخي على مدينة الرسول ٢٧
- كتاب يزيد إلى واليه على المدينة ٢٨
- وجود الحسين: يبلور الكوفة والمدينة كمركزين لمعارضة الدولة ٢٩
- نصيحة مروان بن الحكم ٣١
- مروان يتعمد استفزاز الإمام الحسين ٣٥
- خروج الحسين من المدينة ليلاً ٣٦
- علاقة الإمام الحسين بأخيه محمد بن الحنفية ٣٧
- نصائح ابن الحنفية للإمام الحسين استعراض للاساليب ٣٧
- وصية الإمام الحسين نص تاريخي وأول اعلان للثورة ٤١
- الإمام الحسين يودع جده رسول الله ٤٥
- حزن الإمام الحسين على واقع الأمة ٤٦
- موقف عامل يزيد على المدينة من الأحداث ٥٠
- يزيد يعزل عامله ويعين الأشدق الحاقد ٥٠

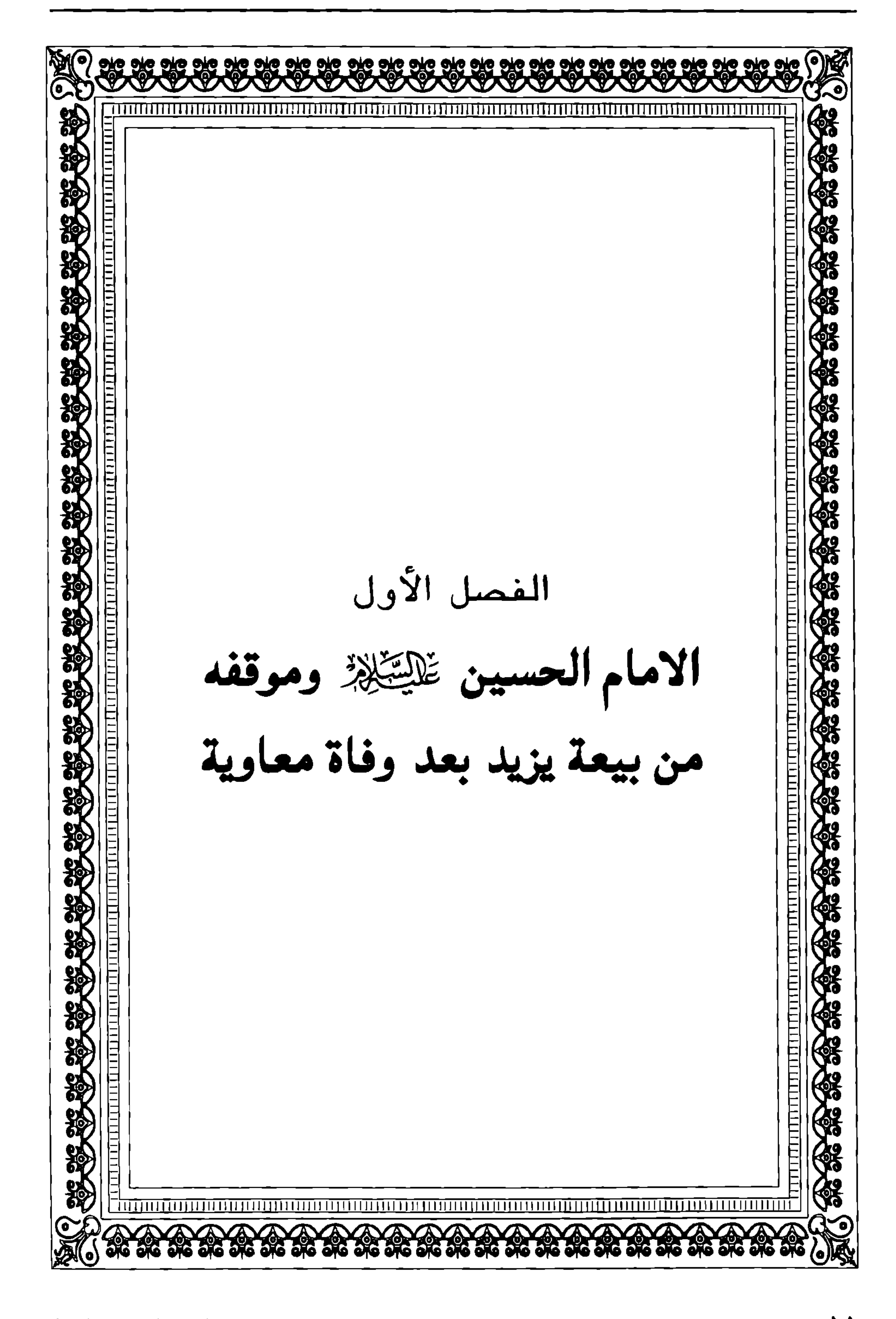
الفصل الثاني: دور الإمام الحسين وموقفه بعد خروجه إلى مكّة ٥٥
- تمهيد ٥٧
- وصول الإمام الحسين إلى مكة ٥٨
- دلالة تنكب الطريق ٥٨
- مكة تستقبل ابنها البار وأملها ٦٠
- النظرة الأموية إلى حرمة الكعبة ومكانتها ٦١
- نشاطات الحسين في مكة تثير السلطات الأموية ٦٤
- يزيد يحاول اغتيال الحسين في مكة ٦٤
- استنفار الدولة الأموية لمنع الإمام من إعلان الثورة ٦٦
- يزيد يكشف خطورة الموقف فيراسل ابن عباس ٦٨
- رد ابن عباس استهزاء بيزيد وكسب الوقت ٧٠
- بين الحسين وابن الزبير اختلاف المقومات ٧٢
- نصائح ابن الزبير غير مخلصة ٧٣
- ابن عباس وفهمه لابن الزبير (يا لك من قبرة بمعمر) ٧٤
- وجود الإمام الحسين مع مكة يقلق يزيد وابن الزبير ٧٥
الفصل الثالث: الإمام الحسين يعلن الثورة في مكة ٧٩
- عودة إلى الفصل السابق ٨١
- المرحلة الثانية من اعلان الثورة ٨٢
- ومن لم يلحق بي لم يبلغ الفتح ٨٣
- رسالة الإمام لأهل البصرة تأكيد الحق ومحاولة للتحريك ٨٤
- ابن مسعود يحاول تعبئة البصريين مع الإمام ٨٦
- الإمام الحسين يبين للامة طبيعة المهمة العظيمة ٨٨
- الخطاب الوداعي للإمام الحسين في مكة ٨٩
- نصائح ابن عباس للامام اتفاق على ضرورة الثورة
واختلاف على الأسلوب ٩٠
- النصيحة الأولى: (أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم) ٩٠

- النصيحة الثانية: سر إلى اليمن ٩١
- رسائل أهل الكوفة القاء الحجة على الإمام ٩٢
- النصيحة الثالثة: لا تسر بأهلك ونسائك ٩٥
الفصل الرابع ٩٩
- دراسة في كتب أهل العراق إلى الإمام الحسين ١٠١
- كتب أهل العراق واثرها على قرار الحسين بالثورة ضد يزيد ١٠١
- كتب شيعة آل البيت إلى الحسين بعد وفاة الحسن ١٠٢
- الإتصالات المستمرة بين أهل الكوفة والإمام الحسين ١٠٥
- فلا يستفزنك السفهاء محاولة معاوية لتصوير الإمام كانفعالي ١٠٥
- عدم خروج الإمام الحسين على معاوية خطوة حكيمة ١٠٧
- الاضاليل الأموية الجديدة ١١٢
- اجتهاد الحسين الذي لم يكن على الحماس الديني ١١٢
- سبب الثورة الحسينية هو عدم تبصر الحسين ١١٤
- الدافع الاول لهؤلاء الكتاب: انهم يعيشون في ظل
  دولة مكررة للدولة الأموية ١٢٢
- ثورة الإمام على يزيد لم تكن بوحي كتب أهل الكوفة ١٢٣
- الإجتماع الأول للشيعة في الكوفة بعد وفاة معاوية ١٢٣
- نص الرسالة الاولى ١٢٤
- رسل ورسائل أهل الكوفة تترى على الحسين ١٢٥
- الكوفة واصلها افضل الخيارات المطروحة للحسين ١٢٩
- ماذا لو لم يستجب الحسين لأهل الكوفة ١٣١
- أول جواب للحسين رداً على رسائل أهل الكوفة ١٣٤
الفصل الخامس: قرار الخروج إلى العراق ١٣٧
- تمهيد ١٣٧
- تجربة الإمامين علي والحسن مع العراقيين ١٤٠
- الإمام الحسين يريد السَّير بالأمة بسيرة أبيه وجده ١٤٤

- الاعتراضات التي واجهت الحسين بالخروج إلى العراق ١٤٦
- عقلية المعترضين تختلف في دوافعها عن عقلية الإمام ١٥١
- بعض العقليات المنطلقة من عقلية الانهزام والخنوع ١٥٤
- ردود الإمام على المعترضين أمرني رسول الله بامر أنا ماض له ١٥٩
- الإمام الحسين يلخص منهج الردود سأمضي ١٦٤
الفصل السادس: الإمام الحسين بين الاستشهاد المؤكد
ومسؤولية الجهاد والثورة ١٦٩
- تمهيد ١٦٠
- الإمام الحسين يلقي الحية على جمع من علماء السلمين في مكة ١٨٢
- النبي يخبر الصحابة باستشهاد الحسين ١٩٣
- بعض القراءات الخاطئة للنصوص التي اخبرت عن استشهاد الإمام ٢٠٤
- التكليف الإلهي بالثورة ضد يزيد تكليف لكل الأمة ٢١٢
- استجابة الإمام الحسين الواعية للمشيئة الإلهية ٢١٥
- استشهاد الإمام الحسين اعطى حياة جديدة للامة ٢١٦
- الحسين عنوان الجهاد الاسلامي ٢١٨
الفصل السابع ٢٢٥
- الإمام الشاهد ٢٢٧
- تمهيد ٢٢٧
- الإمام الحسين صورة مطابقة لأصل رسول الله ٢٢٩
- الإمام الحسين يذكر الأمة بموقعه من رسول الله وبخطأ موقفهم ضده .. ٢٣٤
- الخلافة الربانية في مفهوم الاسلام ٢٣٨
- الحسين يستعرض مواصفات الخليفة ٢٤١
- الفرق بين المعصومين من الشهداء وغيرهم ٢٤٣
- الشهداء ثلاثة أصناف: الأنبياء الأئمة والمرجعية الرشيدة ٢٤٤
- تداخل دور الشهداء مع دور النبوة ٢٤٥
- تصدي الأئمة لمنع دور الإنحراف من خلال دور الشهادة ٢٤٦

- قتل الأمويون الأمام الحسين محاولة لقتل دور الشاهد ٢٤٨
- نصوص الثورة الحسينية تخلد دور الشاهد ٢٥١
- الخلافة الإسلامية عقد بين طرفين بنفسخ بإخلال الشروط ٢٥٥
- الإمام الحسين الشاهد والخليفة الحقيقي ٢٥٧





الفصل الأول

الامام الحسين عليه السلام وموقفه من بيعة يزيد بعد وفاة معاوية

حقد يزيد على الحسين عليه السلام وآل البيت عليهم السلام

مصادر التاريخ تورد أسباب تافهة

لقد ذكرت روايات عن هيام يزيد بامرأتين متزوجتين، هما ارينب بنت اسحاق زوجة عبد الله بن سلام، والي معاوية على العراق، وام خالد زوجة عدي بن حاتم، وذلك في مناسبتين مختلفتين، وان معاوية سعى لتطليقهما من زوجيهما بحيلة من حيله البارعة، بامل تزويجهما من يزيد وان الحسين عليه السلام فوت عليه فرصة ذلك وارجع المرأتين إلى زوجيهما، كان ذلك مبعثاً لزيادة حقد يزيد على الحسين، مع ان عوامل هذا الحقد لم تكن تنقصه باي حال من الاحوال. ومهما يكن من امر هذه الروايات، فان موقف الاريحية الذي وقفه الحسين من الزوجين المخدوعين كان جديراً به، وكان جديراً بيزيد موقفه الشهواني الذي يجعله يتطلع إلى زوجات الآخرين، فيريد سلبهن من ازواجهن.

لعل هاتين القضيتين ظهرتا واشتهرتا لأهمية أشخاص المشتركين في حوادثهما، ولعل عشرات القصص الأخرى التي لم تكشف لنا عن زوجات سلبهن يزيد من أزواجهن.. فذهبت تفاصيلها ولم ترو لنا، وعتم عليها الاعلام الأموي في سعي منه لتحسين صورة يزيد في أذهان الأمة.

إن يزيداً الذي عاش فترة طفولته وشبابه المبكر مع والدته وأخواله بني كلب النصارى، والذي ربي في أحضانهم، لم يتحرج حتى وهو يعود إلى أحضان أبيه المتسامح في مسائل الاسلام وقيمه، من إعلان سلوكه وعدم التكتم على أي جانب منه، واشهار استهتاره على رؤوس الاشهاد، حتى ولو كان أولئك الأشهاد هم الأمة كلها.

ولعل هذا يفسر كثرة المستشارين النصارى في بلاط يزيد، وتقريبه لشعراء نصارى مثل الاخطل وغيره ممن تمادوا في عبثهم إلى هجاء الانصار، كما يفسر اقدامه على ان يعهد بتربية ابنه إلى مرب منهم).

ولم يكن ذلك هو وحده الذي جعل يزيد يكن الحقد على آل الرسول صلى الله عليه وآله،

وإنما طبيعة الصراع المر الذي انتهت نتيجته لصالح معاوية، وحرب المصالح التي خاضها ضد الاسلام وضد أمير المؤمنين عليه السلام، ووجد فيها معاوية مصيره المحتوم، إما ملك عريض أو اندحار واندثار أبديين، جعلت يزيد يقاتل بنفس الضراوة التي قاتل بها معاوية، خصوصاً وإنّه يجد مقومات عديدة (للنصر) والغلبة بين يديه، وفرها له أبوه معاوية في كفاحه المرير طوال أكثر من عشرين عاماً.

وقد رويت قصة أخرى، ظهر فيها أبو عبد الله عليه السلام رافضاً للاقتراب من معاوية وابنه حتى بالقدر الذي يعزز القرابة والنسب، مدركاً أن يزيد ليس ممن يشرف الانسان القريب منه.

ولعله أدرك أن يزيد لم يكن يريد القرب من آل أبي طالب ومصاهرتهم إلا لغرض سياسي رآه أبوه معاوية، سيكون وسيلة لرفع نفسه أمام جماهير المسلمين، وقد فوت الحسين عليه السلام عليه هذه الفرصة. فقد روي:

(ان معاوية كتب إلى مروان بن الحكم وهو والي المدينة: اما بعد فان أمير المؤمنين احب ان يرد الالفة ويسل السخيمة ويصل الرحم، فاذا وصل اليك كتابي فاخطب إلى عبد الله بن جعفر ابنته ام كلثوم، على يزيد بن أمير المؤمنين وارغب له في الصداق. فوجه مروان إلى عبد الله بن جعفر فقرأ عليه كتاب معاوية، وأعلمه بما في رد الالفة من صلاح ذات البين واجتماع الدعوة. فقال عبد الله: ان خالها الحسين بينبع، وليس ممن يفتات عليه بأمر، فانظراني إلى ان يقدم. وكانت امها زينب بنت علي بن ابي طالب صلوات الله عليه. فلما قدم الحسين، ذكر ذلك له عبد الله بن جعفر، فقام من عنده فدخل إلى الجارية، فقال: يا بنية ان ابن عمك القاسم بن محمد بن جعفر بن ابي طالب احق بك، ولعلك ترغبين في كثرة الصداق، وقد نحلتك البغيبغات. فلما حضر القوم للاملاك (أي التزوُّج وعقد النكاح) تكلم مروان بن الحكم، فذكر معاوية وما قصده من صلة الرحم وجمع الكلمة، فتكلم الحسين فزوجها من القاسم)[1].

(١) الكامل في الادب المبرد، ج ٣ ص ١١٥، وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد حفر عين ابي يتزر والبغيبغة وتصدق بالضيعتين اللتين سميتا باسمهما وتصدق بهما على فقراء أهل المدينة وابن السبيل (ليتقي الله بهما وجهه حر النار يوم القيامة لا تباعا ولا توهبا حتى يرثهما الله وهو خير الوارثين، الا ان يحتاج اليهما الحسن أو الحسين فهما طلق لهما (اي حلال لهما) وليس لاحد

وقد اثار ذلك الحادث حنق مروان، ولا بد انه قد اثار ايضاً حنق معاوية ويزيد على الحسين عليه السلام.

ولا نريد ان نتصدى هنا للبحث في موقف مروان من الحسين بعد ان تطرقنا إلى مواقفه الحادة المعادية لامير المؤمنين عليه السلام والحسن عليه السلام، وهي مواقف اسهبت كتب التواريخ والسير في الحديث عنها وعن تطرف مروان في ذلك العداء المشهور.

ولعل مواقفه التحريضية ضد الحسين عليه السلام سواء في عهد معاوية أو يزيد، دلت على ما حمله من حقد على آل البيت عليهم السلام، كما انه، وهذا ما لم يخف على معاوية، ربما اراد تحميل معاوية أو يزيد مسؤولية الاقدام على قتل الحسين عليه السلام لتشويه صورتيهما بنظر المسلمين اذا ما اقدما على ذلك العمل الشائن، لتتاح له فرصة البروز والظهور كخليفة لمعاوية. ولا شك ان امر الاسلام ووحدة المسلمين كان آخر ما يفكر فيه، ولعل الامر الوحيد الذي فكر فيه هو مصالحه الخاصة.

لم تكن هناك ولو نقطة لقاء واحدة بين الحسين عليه السلام ومعاوية، وقد كان رافضاً للحكم الاموي ومقدماته التي مهدت لعهد آخر وراثي يبدأ بيزيد، اذ لم تكن اعمال معاوية ونتائجها المحتملة بخافية عليه، لذلك كانت مواقفه المبدئية الصلبة لايقاف التخريب الاموي ضد الاسلام.

وفي مقابل الروايات التي زعمت ان الحسين عليه السلام استلم بعض هدايا معاوية، وانه وفد عليه والتي لم يذكرها الا رواة معينون، محسوبون على الدولة الاموية ومن الموالين لها، نجد ان السمة البارزة عند استعراض تاريخ الحسين خلال عهد معاوية، ان الحسين عليه السلام كان حريصاً على كشف مخططات معاوية والاعيبه، وانه لم يكن متساهلًا مع ذلك النظام الغريب الذي سيطر على مقدرات الامة، حتى ان ذلك استفز معاوية وجعله يحاول تصوير الحسين عليه السلام كانسان مندفع منطلق تحت تأثير حقد شخصي أو أطماع خاصة، وهذا ما لم ينجح فيه رغم قوة اجهزته الاعلامية، وكثرة المتجرين بالرواية والحديث والقصص.

غيرهما. قال محمد بن هشام: فركب الحسين رضي الله عنه دين، فحمل معاوية بعين ابي ينزر مائتي الف دينار، فابى ان يبيع، وقال انما تصدق بها ابي ليقي الله بها وجهه حر النار، ولست بائعها بشيء) نفس المصدر ص ١١٤.

معاناة الائمة الثلاثة (علي والحسن والحسين عليهم السلام) في مواجهة الجاهلية الأموية

إن محاولات الامويين الدؤوبة لطمس وتشويه وعرقلة النظرية الاسلامية في كل مجالات الحياة، ومنها مجال الحكم التي أرسى دعائمها رسول الله صلى الله عليه وآله، وقيامهم باختراع (احاديث) موضوعة على الرسول صلى الله عليه وآله واستغلال بوادر انحراف سابقة كأساس بديل كان الهدف منها الخروج بالمجتمع الاسلامي كله عن قيم الاسلام ومواضعاته واطروحاته إلى قيم جاهلية مبتكرة حديثة، استثمرت كل خبرات الجاهليات القديمة لا في الجزيرة العربية وانما في اماكن اخرى، كجاهلية الرومان والفرس، مع ان الجاهلية الاموية اعطيت غطاء اسلامياً لتبرير شرعيتها امام المسلمين، اذ ان منهج الحكم وقوانينه قامت على رغبات وهوى ونزعات السلطان الاموي المطلق، الذي كان يرى فيصبح رأيه قانوناً، ويتمنى فتصبح أمنيته حقيقة واقعة قائمة، على ان اكثر ما الحقه الامويون من تخريب هو محاولاتهم الدؤوبة لانتزاع القدسية التي تمتع بها رسول اله صلى الله عليه وآله وآله في نفوس المسلمين، وابراز الرسول صلى الله عليه وآله انساناً خطاء قد ينطلق من هوى شخصي بحت (كذلك الحديث الذي روي بحق معاوية واريد به تبرير لعن رسول اله صلى الله عليه وآله له ولامثاله، حينما جعلوا من ذلك الحديث رحمة لمعاوية ومنفذا لادخاله الجنة)، كما ان مجال تخريبهم امتد لتشويه صورة آل البيت، وهم آل الرسول صلى الله عليه وآله الذين انزلت فيهم آيات محكمة تشيد بفضلهم واحاديث قدسية لا شك فيها، وابرازهم كبؤرة للنزاعات والخصومات والفتن.

ولم يقتصر (نجاح) معاوية خاصة في مهمته هذه على عصره، وانما امتد تأثيره إلى ايامنا هذه، فكأن الدين الذي جاء به معاوية هو الدين الحق، لا دين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، وكأن القيم والاعراف والتشريعات التي وضعها هي القيم والتشريعات العملية القابلة لتطبيق لا قيم الاسلام وتشريعاته الحقيقية.

لماذا غاب عن فطنة الدارسين لمعاوية، والامويين من بعده، سعي هؤلاء لبسط سلطانهم ونفوذهم بشتى الاساليب، ولماذا وجدوا في تلك الاساليب الشاذة قاعدة صحيحة للحكم والحياة.

اترى ان الدارسين قارنوا فترة الحكم الاموي بما يشهدونه الآن، فرأوا انه كان اصلح مما يشهدون؟ وهل ان ما نشهده الآن هو القاعدة والاساس وانه سابق لتلك الفترة؟ ام ان قياسنا الوحيد هو الاسلام؟

ولا يحسبن احد ان مهمة أمير المؤمنين عليه السلام كانت مهمة سهلة لكشف اساليب التضليل الاموي والاعيب معاوية، ولا يحسبن احد ان مهمة الحسنين عليهما السلام من بعده كانت منذ بدايتها مهمة غير محفوفة بالمخاطر.

ان مقارعة معاوية بالسيف من قبل الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام من بعده، وهو يمتلك ما يمتلك من قوة، تتيح له اذا ما خاض الحرب معهما ان يجدد نفس ادعاءاته القديمة، ويضيف اليها ادعاءات واكاذيب اخرى في غياب أمير المؤمنين عليه السلام، وتتيح له ان يستميل اعداداً كبيرة من الامة إلى جانبه بشتى الاساليب التي سبق وان لجأ اليها في وجوده عليه السلام . وسيعمل اذا ما انتصر في بعض المواقع الحربية التي سيخوضها معهم إلى حرب ابادة شاملة لآل الرسول صلى الله عليه وآله، واتباع الاسلام الحقيقيين، لا يكتفي معها بمجرد الحرب الاعلامية والكلامية التي شنها بعد الصلح وحسب، وانما إلى استئصال حقيقي لهم، مبرراً ذلك بمزيد من الالاعيب والاكاذيب، وسيجد إلى جانبه من يؤيده في مسعاه ذاك.

لذلك فان ترك الساحة له وجعله يتسلم مقاليد سلطة الخلافة، يجعله امام محك حقيقي ويكشفه على واقعه امام الامة.

اذ ما حجته بعد سقوط الحجة الاولى وهي المطالبة بدم عثمان لا غير، بانتهاكه حدود الاسلام وقيامه بانحرافات واضحة عنه امام انظار الأمة كلها، وما الضرورات التي الجأته إلى القيام بما قام به بعد ذلك من خروقات واضحة للاسلام.

وهل ان استخلاف يزيد على المسلمين كان جزءاً متمماً لمهمة الثأر لعثمان؟ ام ان تلك الورقة قد اصبحت قديمة ولا داع لذكرها؟

لقد انتبه العديدون لحيلة معاوية في المطالبة بدم عثمان، ولكن بعد فوات الاوان. وكان منهم مروان الذي احتج بشدة على استخلاف يزيد، ومنهم سعيد بن عثمان الذي هاله ما فعل معاوية، وكان يظنه مطالباً بدم عثمان حقاً، وانه نال ما نال بفضل تلك المطالبة، وانه استناداً لذلك لا بد ان يعيد (الحق إلى اهله)، ومن اهله سوى سعيد هذا نفسه، لذلك فانه اقبل على معاوية يعاتبه على ما فعل ويطالب بالخلافة لنفسه، على اساس من منطق معاوية، وقال له:

(علام جعلت ولدك يزيد ولي عهدك، فوالله لأبي خير من ابيه، وامي خير من امه، وانا خير منه، وقد وليناك فما عزلناك، وبنا نلت ما نلت).

وقد اجابه معاوية بإحدى اجوبته المغالطة التي اشتهر بها قائلًا:

(اما قولك ان اباك خير من ابيه فقد صدقت، لعمر الله ان عثمان لخير مني، واما قولك: ان امك خير من امه، فحسب المرأة ان تكون في بيت قومها، وان يرضاها بعلها وينجب ولدها؛ واما قولك انك خير من يزيد، فوالله ما يسرني ان لي بيزيد ملء الغوطة ذهباً مثلك. واما قولك: انكم وليتموني فما عزلتموني فما وليتموني انما ولاني من هو خير منكم، عمر بن الخطاب فأقررتموني، وما كنت بئس الوالي لكم. لقد قمت بثاركم، وقتلت قتلة ابيكم، وجعلت الامر فيكم، واغنيت فقيركم، ورفعت الوضيع منكم. وكلمه يزيد فارضاه، وجعله والياً على خراسان)[1].

لقد كانت مهمة كشف معاوية وتعريته امام الامة، بل وامام اقرب المقربين اليه مهمة عسيرة، كانت تحتاج إلى مهارة كبيرة ودقة واضحة في العمل، فمعاوية ليس من السذاجة كيزيد، حتى يلجأ إلى الاساليب المباشرة، دون ان يجد المبررات (القوية) التي تدعم اعماله وتجاوزاته، وما كانت تصرفاته تتصف بذلك الخرق الذي اتسمت به تصرفات يزيد بعد ذلك، وقد كان شيطاناً حقاً كما وصفه أمير المؤمنين عليه السلام، وكان يتصف بعبقرية الشر والالتواء والظلمة والحيلة إلى درجة لا يرى معها للاسلام اي موقع في حياته.

فكان لا بد من فعل حاسم لوضعه بمواجهة الامة، امام ما ادعى انه ممثله حقاً وهو الخلافة، فهل كان معاوية يمتلك النوايا الحقيقية للقيام بمهامها ولو على النمط الذي أدارها به عثمان الذي واجه اعتراضات عديدة من الامة؟ ام انه ارادها سلماً لتنفيذ مخططاته والاعيبه؟ لقد كانت مواجهة معاوية تمثل عملًا انتحاريا يتيح له الفرصة وبشكل نهائي لعمل ما يريد. ولكنه حين ينفرد بمقاليد الامور، وتختفي الظروف الاستثنائية الطارئة التي عمل ما عمل بحجتها، فكيف سيواجه معاوية الامة اذا ما عمد إلى اي من انتهاكاته؟

وهكذا حرم معاوية من فرصة النزال (السهل) الذي كان يتمناه مع الحسن والحسين عليهما السلام، وقد فوتا عليه تلك الفرصة، وطلبا منه ما دام قد ادعى خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله ان يسير بسيرته.

---

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان ٥، ٣٨٩/ ٣٩٠.

فهل فعل ذلك حقاً، ام انه عمد إلى مقولات مضحكة ذكرنا قسماً منها، مدعياً ان لا أحد يقدر على سيرة عمر أو ابي بكر، أو حتى عثمان، وانه هو نفسه سيكون افضل ممن سيجيء بعده، وسيظل العد التنازلي لسيرة (الخلفاء) من بعده على ذلك المنوال، وكأنه هو الامر الطبيعي الذي يمهد له، وكأنه بذلك يعد الامة لقبول يزيد على علاته مع انه فاسق، ويوجد بين ابناء الامة من هم افضل منه بكثير، وقد روج لمقولاته تلك حتى اصبحت قانوناً مدعماً باحاديث مزورة على لسان الرسول ﷺ تجيز امامة الفاسق والمفضول وانعقاد البيعة ولو بواحد فقط.

لقد كان موقف الامام الحسين عليه السلام من عملية الصلح، التي كان شريكاً فيها مع أخيه الحسن عليه السلام ولم يكن كما زعمه بعض المؤرخين من المخالفين لأخيه عليه السلام، اعلاناً للامة لكي تنتبه بحذر إلى ذلك الحاكم الذي انتزع الحق من اهله وانفرد بالسلطة، لترى إلى اي حد قد بلغ في خروجه عن الاسلام بعد ان كبدها خسائر كبيرة، وجر عليها ويلات الحروب والتفرقة، لقد اراد عليه السلام من الامة ان تكتشف هي زيف الاطروحات الاموية الكاذبة، وعندها ربما تخلت عن موقفها المتراخي والسلبي تجاه ما يحصل امامها.

لقد فعل الحسين عليه السلام ما بوسعه، أيام معاوية لكي يلفت نظر الامة من جديد إلى قيم الاسلام الكبيرة العليا، ويعيدها من جديد إلى عهد رسول الله ﷺ، فكانت حلقة العلم التي يديرها بمسجد الرسول ﷺ، وسيره إلى مكة ماشياً، واجتماعه مع صحابة الرسول ﷺ، وتذكيره اياهم بمنزلة أمير المؤمنين وآل البيت عليهم السلام من الرسول ﷺ والاسلام، وسلوكه الشخصي، وشخوصه كأحد رموز الاسلام كمثال حي له، ومعارضته بيعة يزيد، وتصديه للعديد من احكام معاوية واعماله، تمثل بعض جوانب الاعمال التي قام بها للكشف عن الاسلام الحقيقي وحفظه من الاندثار والتحريف، والكشف عن الوجه الاموي الذي اراد سلب كل مكاسب المسلمين، وجعلها غنيمة باردة بيد يزيد.

ان دراسة حياة الحسين عليه السلام وفهمها، وعدم اقتطاع سيرته خلال معركة الطف وحدها، كفيلة بالكشف عن المزيد من دوافع الثورة الكبيرة التي قام بها ضد الحكم الاموي وكل حكم جائر بعده، كما انها كفيلة بابراز العديد من نقاط الالتقاء مع سلوك ابيه أمير المؤمنين عليه السلام واخيه الحسن عليه السلام، وتري الباحثين بشكل واضح

توحد السلوك والاهداف والفعاليات في حياة الائمة الثلاثة عليهم السلام، وتطابقها مع سلوك رسول الله صلى الله عليه وآله على اساس من قيم الاسلام الثابتة والقوية.

مهمات عاجلة أمام يزيد بعد وفاة معاوية

كانت امام يزيد بعد وفاة معاوية مهمات سريعة رأى ان عليه ان ينجزها قبل ان تتراكم عليه ما احتمله من مشكلات وعوائق امام توطيد سلطانه وعرشه. وكان يدرك ان رصيده لدى الامة اقل بكثير من رصيد ابيه، كما ذكرنا ذلك من قبل. فهو مكشوف امامها، ولم يكلف نفسه عناء التستر أو إخفاء أعماله المشينة، ولم يكن يملك من الدهاء والمكر و(الحصافة) ذلك القدر الذي امتلكه والده من قبل، لانه لم يجد ما يدعوه إلى ذلك، ووجد امامه وضعاً ممهداً وعرشاً جاهزاً وامة مستسلمة مطيعة، وما عليه الا ان يجلس فوق ذلك العرش ويجني ثمار سعي ذلك الاب الكاد الكادح قرابة اربعين عاماً لكي يمهد له ولمن يأتي بعده الامر.

ولم يكن يزيد بحاجة إلى ذكاء كبير ليدرك ان ما قاله ابوه له كان حقاً هذه المرة، وانه قد اعترف بحقيقة مساعيه لاخضاع الامة لولده وبنيه من بعده، وجعل مكاسبها لقمة سائغة له (يا بني اني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الاشياء وذللت لك الاعداء، واخضعت لك اعناق العرب، وجمعت لك من جمع واحد).

وصية معاوية ليزيد برنامج إنحرافي متكامل

وقد روى ابن الهيثمي في كتابه (تطهير الجنان واللسان عن الخطور في ثلب سيدنا معاوية بن ابي سفيان)، ان معاوية لما حضره الموت قال ليزيد:

(قد وطأت لك البلاد وفرشت لك الناس، ولست اخاف عليك الا أهل الحجاز، فان رابك منهم ريب فوجه اليهم مسلم بن عقبة المري فاني قد جربته)[(١)].

وبذلك يكون معاوية هو مجرم واقعة الحرة كما كان هو مجرم واقعة الطف، ولم يكن يزيد سوى متلق ومستجيب لتعليمات والده بابادة وقتل من يخرج عليه، بارسال اقسى قادته واكثرهم شراسة ووحشية لقمع الثورات المحتملة في الحجاز والعراق، واذا ما ذهبنا مع اولئك الذين حاولوا تبرئة معاوية والقاء تبعة الجريمتين على

(١) الطبري: ٣/ ٢٦٠.

يزيد وحده فسنجد من الوقائع الثابتة ومن استقرائنا لتاريخ معاوية بمجمله ان معاوية كان المسؤول الوحيد، وان يزيد كان مجرد منفذ، حاله في ذلك حال ابن زياد وابن سعد وابن عقبة وغيرهم، غير ان جريمته تزيد على جرائمهم باعتبار انه قد تسلم المسؤولية الاولى لقيادة المسلمين وانه كان صاحب القرار الاخير لتنفيذ تلك الجرائم التي عهد إليه والده بتنفيذها.

وقد ذكر الطبري بان معاوية حذر يزيد في وصيته[1] من الحسين عليه السلام وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن ابي بكر، وتخوف من قيامهم بمنازعته امر خلافة المسلمين، غير اننا لو تدبرنا مضمون رأي معاوية بخصوص عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن ابي بكر، وان الاول منهما كما قال رجل قد وقذته العبادة، واذا لم يبق أحد غيره بايع، وان الثاني منهما رجل ان رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم، ليس له همة الا في النساء واللهو، ادركنا ان مخاوف معاوية لم تكن صحيحة بخصوص هذين الرجلين، خصوصاً وانه تكفل بما جعلهما بعيدين عن الساحة، بسم احدهما وهو عبد الرحمن بن ابي بكر بعد ان رفض رشوة مقدمة اليه من معاوية، وذلك قبل وفاة معاوية بحوالي سبع سنين، اي بعيد قيام معاوية بسم الامام الحسن عليه السلام وسعد بن ابي وقاص وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المنافسين المحتملين ليزيد، وتقديم رشوة كبيرة لعبد الله بن عمر بلغت مائة الف.

الأضاليل الاعلامية الأموية التي تضمنتها الوصية

ومما يثير الاستغراب في هذه الوصية دعوته يزيد إلى الرفق بالحسين عليه السلام ان هو خرج عليه، وقوله له:

(... واما الحسين بن علي فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فان له رحماً ماسة وحقاً عظيماً)[2].

---

(١) تطهير الجنان، ٦٠.

(٢) الطبري ٣/ ٣٦٠، وكان هو السبب الأول والأخير في قتله عليه السلام، وربما كان معاوية يعد نفسه منتصراً في المعركة معه، استناداً إلى ما آمن به من قيم جاهلية لم تعتمد سوى المصلحة الشخصية، ولم تر في الاسلام سوى غطاء تتستر به لتنفيذ مآربها وطموحاتها.

وربما كان ما جاء فيها بخصوص الحسين عليه السلام موضوعاً اريد منه تبرئة معاوية مما لحق بالحسين عليه السلام على يد يزيد، مع ان مصادر التاريخ الاخرى روت لنا انه اوصى بتأمير عبيد الله بن زياد المعروف بحقده على آل البيت عليهم السلام وقسوته المتناهية تجاه اعداء الدولة الاموية، اذا ما رأى يزيد تحرك الحسين عليه السلام نحو العراق، فمعاوية كان الرأس المدبر الاول لمجزرة الطف.

أُريد من خلال هذه الوصية اشعار الامة بان الحسين عليه السلام لم يرفض يزيد الا لأنه كان يريد الامر لنفسه، وان الامر برمته لم يكن سوى امر سلطان أو ملك يتنافس عليه ابناء اولئك (المتنافسين) الاوائل، وفيه ايحاء قوي ومحاولة واضحة لتضليل الامة، وجعلها تعتقد بان يزيد ليس ادنى من الحسين منزلة، وان الحسين عليه السلام كان يريد منذ البداية الدعوة إلى نفسه، مع انه لم يفعل ذلك، وكان الشيء الوحيد الذي اصر عليه منذ عهد معاوية هو رفض مبايعة يزيد تحت اية ذريعة وفي اي ظرف.

ولعل النص التالي من وصيته: (واما الحسين بن علي فانه رجل خفيف، وارجو ان يكفيكه الله بمن قتل اباه وخذل اخاه، وان له رحماً ماسة، وحقاً عظيماً، وقرابة من محمد صلى الله عليه وآله، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فان قدرت عليه فاصفح عنه، فاني لو اني صاحبه عفوت عنه)[1] يكاد يفصح عن تناقض واضح، ويكاد يعبر الجزء الاول منه عن رغبة معاوية القوية بأن يكفي الله يزيد من الحسين عليه السلام بمن قتل اباه وخذل اخاه وان يلق نفس المصير الذي لقياه، ولعله كان يتحرق شوقاً لليوم الذي يرى فيه هو أو ولده يزيد الحسين عليه السلام وهو يلقى مصير أمير المؤمنين والحسن عليهما السلام[2].

فكيف يقدم من يتحرق شوقاً لرؤية عدوه مقتولاً على توصية خليفته للرأفة به والصفح عنه؟

ان ما اريد به في هذه الوصية، وفي كل اقوال معاوية، هو تأكيد منافسة الحسين عليه السلام لسلطان يزيد فيما بعد، كما سنرى بعون الله، وكما اكدته الوقائع والاحداث.

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

مراسيم الدفن ولحظات التنصيب نصوص وأحداث

ولم تكن ليزيد تلك الحصافة والدهاء والمرونة التي تمتع بها والده لتجعله يسكت عن اولئك الذين رفضوه ولم يبايعوه وفي مقدمتهم الامام الحسين عليه السلام فها هو الآن (خليفة) فعلًا، يبسط سلطانه على ارض الواقع، وما على اولئك الذين ماطلوا وابوا بيعته في السابق، الا ان يفعلوا ذلك الآن وعلى الفور، لان وجوده اصبح مفروغاً منه، وان معركتهم ليست مع خليفته كما كان الحال ايام معاوية، وانما معه هو شخصياً، والا فالسيف بينه وبينهم.

(ولم يكن ليزيد همة حين ولي الا بيعة النفر الذين أبوا على معاوية الاجابة إلى بيعة يزيد حين دعا الناس إلى بيعته، وانه ولي عهده بعده، والفراغ من امرهم)[1].

وحتى مراسيم دفن معاوية لم يحضرها يزيد وكان بحوارين يلهو ويعبث، رغم ان حال ابيه عند ذاك لم تكن على ما يرام، فهو لم يمت ميتة مفاجئة، وكانت حاله الصحية تتدهور باستمرار، وربما لم ير ان يعكر جو المرح والسرور الذي كان يعيشه يزيد باستدعائه إلى جواره ليحضر ايامه الاخيرة، فربما وجد في موت ابيه عبرة له فتراجع عما ألف من المعاصي والموبقات، وربما كان ذلك الاب يأمل بمزيد من السنوات الاخرى تضاف إلى حياته المديدة ولم يصدق انه كان قاب قوسين من الموت.

وعلى اية حال، لقد كفي يزيد لحظات الازعاج التي تصاحب الموت ومراسيم الدفن والوداع، ووجد حتى هذه المهمة قد انجزت. ولم يجد سوى العرش الممهد والرقاب الممدودة بالولاء والطاعة، واناء الذهب وفراش الحرير، وكل ما تسر به عينه ويفرح به قلبه، ولم يكن بكاؤه على ابيه ذلك البكاء الذي يمكن ان تشم منه رائحة الحزن الحقيقي.

وقد رويت عنه ابيات من الشعر قيل انه قالها عندما كتبوا اليه يحثونه على المجيء ليدركه، ولعله لم يمتثل للدعوات التي وجهت اليه قبل ذلك لحضور موت أبيه.

---

(١) المصدر السابق ٣، ٢٦٩، وابن الاثير ٣، ٣٧٧.

ولعله كما يدل البيت الاخير من القصيدة لم يقلها الا عندما تأكد من موت ابيه وسمع صراخ اخته رملة حزناً عليه:

(جاء البريد بقرطاس يخب به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا: لك الويل ماذا في كتابكم؟ ... قالوا: الخليفة امسى مثبتاً وجعا
فمادت الارض أو كادت تميد بنا ... كأن أغبر من اركانها انقطعا
من لا تزل نفسه توفي على شرف ... توشك مقاليد تلك النفس ان تقعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق ... وصوت رملة ريع القلب فانصدعا)[1]

وقد القى خطبة في أهل الشام، ذكرنا بعض مقاطعها، تؤكد على الفلسفة الاموية التي تبنت فكرة الجبر ونسبة الخير والشر كليهما لله، وان ليس للانسان ان يعارض في (المشيئة الالهية) التي ارادت ان يكون هو خليفة المسلمين وولي امرهم.

وقدجاء فيها:

(الحمد لله الذي ما شاء صنع، ومن شاء اعطى ومن شاء منع، ومن شاء خفض ومن شاء رفع. ان أمير المؤمنين كان حبلًا من حبال الله، مده ما شاء ان يمده، ثم قطعه حين اراد ان يقطعه، وكان دون من قبله وخيراً مما يأتي بعده، ولا ازكيه عند ربه وقد صار اليه، فان يعف عنه فبرحمته، وان يعاقبه فبذنبه، وقد وليت بعده الامر، ولست اعتذر من جهل، ولا اني على طلب علم، وعلى رسلكم اذا كره الله شيئاً غيره، واذا احب الله شيئاً يسره)[2].

ولا شك ان خلافته مما احب الله لانه يسرها وجعل الجميع يرضون بها سوى نفر قليل.

وقد تعرضنا إلى هذا النمط من الكلام المعد المدروس، ولعله موضوع مسبقاً من معاوية نفسه أو من تلاميذ (واعين) من تلاميذه، أخذوا عن مدرسته وتفقهوا في منهجه، ولعل يزيد كان احد هؤلاء التلاميذ النجباء.

---

(١) الطبري: ٣/ ٢٦٣، وابن الاثير: ٣/ ٣٧١ (ولعل الابيات كلها موضوعة على لسانه، اريد منها اثبات امكاناته الادبية والفلسفية، وقد روى الشافعي ان بعض ابيات القصيدة مسروقة من الاعشى.

(٢) العقد الفريد، ٤/ ١٧٧.

مسرحية تنصيب (الخليفة) يزيد

كان جيش المتملقين والمنتفعين، الذين رأوا حياتهم رهينة بحياة يزيد واستمرار وجوده خليفة لابيه على سدة الحكم، معداً لدعم الحاكم الجديد وتقديم العون و(النصح)، وازجاء آيات الثناء والمديح مقرونة بالحزن العميق على الفقيد الراحل. . ، وراحوا ينفخون في كبرياء يزيد ويزينون له تصوره بانه امل الامة الحقيقية، وانه (الضرورة) الحقة التي جعلت معاوية يختارها لقطع دابر الخلافات والفتن.

ولعل يزيد لم ينس في غمرة احتفاله بالتتويج خليفة لابيه، تلك المسرحيات التي اعدها ذلك الاب الراحل، وجعل فيها جوقات المداحين والشعراء يشيدون بفضل يزيد الشاب ذي الادب البارع والمواهب الاستثنائية.

لقد عاد اعوان لفرعون ثانية يزينون لفوعون هواه وسعيه لبسط سلطانه المطلق على الارض، دون ان يتقيد بقانون الا قانونه هو، وشريعة الا شريعته.

وقد كانت المعضلة الاولى التي واجهتهم هي كيفية مخاطبته بعد موت والده، وتوصل احدهم في النهاية وهو عبد الله بن همام السلولي إلى استعمال اسلوب متبع مع القياصرة والاكاسرة: مات قيصر، عاش قيصر، عزاه فيه بأبيه وهناه بمنصبه الجديد (راعي أهل الارض كلهم)، ولفت نظره إلى انهم يتطلعون إلى اليوم الذي سيكون ابنه معاوية خلفاً له، هذا بعد عمر طويل طبعاً:

(اصبر يزيد، فقد فارقت ذامقة ... واشكر حباء الذي بالملك حاباكا

لا رزء اعظم في الاقوام قد علموا ... مما رزئت ولا عقبى كعقباكا

اصبحت راعي أهل الارض كلهم ... فأنت ترعاهم والله يرعاكا

وفي معاوية الباقي لنا خلف ... إذا نعيت ولا نسمع بمنعاكا

ثم دخل يزيد فأقام ثلاثة ايام لا يخرج للناس، ثم خرج وعليه اثر الحزن، فصعد المنبر، واقبل الضحاك فجلس إلى جانب المنبر وخاف عليه الحصر، فقال له يزيد: يا ضحاك، اجئت تعلم بني عبد شمس الكلام؟ ثم قام خطيباً)[1]،

فكانت خطبته التي ذكرناها قبل قليل، وفيها تتجلى مواهب بني عبد شمس،

---

(١) العقد الفريد ٥، ١٢٣/ ١٢٤.

وهي الخطبة التي كانت تبدو وكأنها قد اعدت من قبل، ردد فيها نظرية معاوية في ان السابق هو افضل دائماً من الحالي، وان عليهم ان لا يتوقعوا منه هو اي يزيد ان يكون حتى كأبيه معاوية، ناهيك عن سيرة ابي بكر وعمر، وان الامر امر ملك اختصه الله به دون الخلق اجمعين الخ مما اعتدنا سماعه من معاوية من قبل.

خطاب حفل التتويج اضغاث أحلام وانهار دماء

وقد الحق خطابه هذا بخطاب ناري آخر، اعلن فيه لاهل الشام استماتته في الدفاع عن مصالحه التي هي مصالحهم، وهدد فيه أهل العراق، لانه توقع ان تكون المعارضة من هناك، وقد لجأ إلى اسلوب مقبول عند اغلبية أهل الشام الجهلة والمغرر بهم والمنحازين اليه عن وعي أو دون وعي، وكأنما يقرر فيه اموراً غيبية تحتم عليه القيام بما سوف يقوم به، وهو اسلوب رواية حلم مختلق، ادعى انه شاهد نهراً من دم عبيط يجري بين أهل الشام واهل العراق ولم يستطع اجتيازه سوى عبيد الله بن زياد، واغلب الظن انه لم يرد ان يكشف لهم (ثقة) معاوية بعبيد الله وعهده إليه بتأميره على الكوفة، اذا ما احس ان خطراً يمكن ان يأتيه منها، وربما اعلن حلمه هذا عندما سار الحسين عليه السلام من مكة إلى الكوفة، غير ان ما تأكد من خطابه هو عزمه على منازلة اي طرف أو جبهة معارضة.

وقد جاء في خطابه:

(يا أهل الشام، فان الخير لم يزل فيكم، وسيكون بيني وبين أهل العراق حرب شديد، وقد رأيت في منامي كأن نهراً يجري بيني وبينهم دماً عبيطاً، وجعلت اجهد في منامي أن اجوز ذلك النهر، فلم اقدر على ذلك حتى جاءني عبيد الله بن زياد، فجازه بين يدي، وانا انظر اليه).

وقد اجابه أهل الشام بقولهم:

(يا أمير المؤمنين امض بنا حيث شئت، واقدم بنا على من احببت، فنحن بين يديك، وسيوفنا تعرفها أهل العراق في يوم صفين)[1].

(١) حياة الامام الحسين/ باقر شريف القرشي/ نقلاً عن الفتوح ٥/ ٦، ص ٢٤٥.

ويبدو بشكل واضح محاولة يزيد تملق أهل الشام واستمالتهم وتحريضهم كما كان يفعل أبوه من قبل من خلال ابراز الامر كله وكأنه صراع بينهم وبين أهل العراق وغيرهم.

حقد معاوية التاريخي على مدينة الرسول ﷺ

على ان ثقل المعارضة الحقيقي الذي احتمله يزيد، هو حيث يوجد الامام الحسين عليه السلام، وهو امر توقعه معاوية قبله، ولم تكن المدينة المنورة لتقل في معارضتها للحكم الاموي (وخصوصاً حكم يزيد) عن الكوفة، وربما كان ذلك بسبب وجود الامام الحسين عليه السلام هناك قبل خروجه إلى مكة ثم إلى العراق، وقد سجلت المدينة ملحمة رائعة بمواجهة حكم يزيد، قدمت فيها تضحية رائعة لا تزال تذكر بكل اعتزاز، رغم محاولات التعتيم الاموية على ثورتها التي قمعت بشراسة منقطعة النظير من قبل اعوان السلطة.

وكانت لمعاوية وصية اخرى بشأن المدينة ايضا، وربما كان يضمر حقداً خاصاً على اهلها لمواقفهم المشهودة في نصرة الاسلام والرسول ﷺ واهل البيت، وقد جعل منهم بنظر أهل الشام قتلة ومتمردين على عثمان، وحملهم مسؤولية ما حل به، وتوقع بناء على مواقفهم من الانحراف الاموي وصلابتهم، ان يثوروا ثورة مسلحة بوجه خليفته يزيد، وقد اوصاه ايضاً كما سنوضح ذلك عند الحديث عن واقعة الحرة التي كانت احدى النتائج المباشرة لثورة الحسين عليه السلام ان يرميهم بمسلم بن عقبة، احد سفاحيه المشهورين الذي كان يرى معاوية إلهه ومثله الاعلى، وكان يحقد على أهل المدينة ويتمنى لو اتيحت له فرصة التنكيل بهم وشرب دمائهم.

ان من الثابت لدى عموم المؤرخين وحتى اولئك المتحيزين إلى النظام الاموي انه كانت هناك مخاوف حقيقية لدى معاوية من المدينة تساوي تلك، التي كان يشعر بها من الكوفة، وكان يدرك ان قوة هذين المصرين قد تطيح بالعرش الاموي اذا ما كانتا تحت قيادة واحدة مثل قيادة الحسين عليه السلام، وذلك ما افضى به إلى يزيد كما رأينا، وكما كشفت عنه وسائله التي اتبعها لاخضاع المدينة والكوفة لامر استخلاف يزيد، وكما اصبح هاجس يزيد فيما بعد، ورأى ان من الاولويات ان يطمئن إلى استقرار الاوضاع لصالحه فيهما.

كتاب يزيد إلى واليه على المدينة

فقد روى البلاذري ان يزيد كتب إلى عامل الدولة على المدينة الوليد بن عتبة يبلغه فيها هلاك ابيه قائلًا:

(اما بعد فان معاوية بن ابي سفيان كان عبداً من عباد الله، اكرمه الله، واستخلفه، وخوله، ومكن له، فعاش بقدر، ومات بأجل، فرحمة الله عليه، فقد عاش محموداً، ومات براً تقياً)(١).

وقد اورد الطبري هذه الرسالة بنصها، وقد اضاف: ان يزيد قد كتب في ورقة صغيرة مرفقة مع رسالته هذه التي ارادها ان تكون اعلاناً بوفاة معاوية، اورد فيها امراً خاصاً اراده ان يتم بسرية وكتمان، وربما لم يرد تحمل نتائجه امام الامة فيما بعد، وقد وصف الرسالة بانها كأذن فأرة لصغرها جاء فيها:

(اما بعد فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة اخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا)(٢).

ولسنا نجد سبباً لاضافة اسم عبد الله بن عمر إلى جبهة المعارضين، اللهم إلا إذا اريد من إعلان بيعته (لانه قد اعلن قبوله المسبق لذلك واستعداده للبيعة اذا ما بايع الجميع) استدراج الآخرين لها وتشجيعهم عليها ليكون لهم (اسوة) بهذا الامر، وربما اريد من ذلك رد الاعتبار اليه بعد استسلامه وتنازله امام معاوية ويزيد(٣).

اما الخوارزمي فقد ذكر ان يزيد كتب إلى الوليد بن عتبة بالرسالة التالية:

---

(١) و(٢) البلاذري، انساب الاشراف ج ١ ق ١ ص ١٢٤، والطبري ٣/ ٢٦٩.

(٣) ولم يورد اليعقوبي اسم ابن عمر عند التطرق إلى رسالة يزيد واوردها على الشكل التالي: (اذا اتاك كتابي فأحضر الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، فخذهما بالبيعة، فان امتنعا فاضرب اعناقهما وابعث الي برؤوسهما وخذ الناس بالبيعة، فمن امتنع فانفذ فيه الحكم وفي الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير. .) تاريخ اليعقوبي ٢، ٢١٥، اما ابن عساكر، فقد ذكر الرسالة ولم يشر فيها الا إلى الحسين فقط، وان يزيداً قد اوصى الوليد به خيراً، واغلب الظن انها قد كانت من الرسائل الموضوعة، ولم تكن الرسالة الحقيقية التي كتبها يزيد بالفعل. . ادع الناس بايعهم، وابدأ بوجوه قريش، وليكن اول من تبدأ به الحسين بن علي، فان أمير المؤمنين عهد الي في امره الرفق باستصلاحه) تاريخ ابن عساكر ١٣/ ٦٨.

(اما بعد فان معاوية كان عبداً من عباد الله، اكرمه واستخلصه، ومكن له ثم قبضه إلى روحه وريحانه ورحمته، عاش بقدر ومات بأجل، وقد كان عهد الي وأوصاني بالحذر من آل ابي تراب لجرأتهم على سفك الدماء، وقد علمت يا وليد ان الله تبارك وتعالى منتقم للمظلوم عثمان بآل ابي سفيان، لأنهم انصار الحق وطلاب العدل، فاذا ورد عليك كتابي هذا، فخذ البيعة على أهل المدينة)[1].

ولا نستبعد صدور هذه الرسالة عن يزيد، فقد كانت باسلوبها الفج وما احتوته من مغالطات واكاذيب جديرة بذلك الجو الاعلامي السائد الذي تعمد الاساءة إلى أمير المؤمنين وسبه والتقليل من شأنه وشأن بنيه واتهامهم بسفك الدماء، تمهيداً لاستئصالهم وقتلهم، كما كانت تعبر عن المغالطات الاموية المعروفة بشأن (المظلوم عثمان)، وقيام آل ابي سفيان. لا معاوية وحده .بأخذ ثأره، من أهل المدينة طبعاً في الدرجة الاولى، الذين لم يكفهم ما فعلوه بحق عثمان بزعمه حتى راحوا يرفضون يزيد، الولي الجديد للدم الذي اهدر منذ زمن بعيد، ولم يرد له آل ابي سفيان ان يجف حتى يحققوا كل طموحاتهم واحلامهم.

وجود الحسين عليه السلام يبلور الكوفة والمدينة كمركزين لمعارضة الدولة الأموية

لقد كان الخوف من الحسين عليه السلام واهل المدينة واهل الكوفة هو الهم والهاجس الاول الذي كان يقض مضجعه، ربما حتى قبيل توليه خلافة والده، وها هو الآن يقف دون معاوية لمواجهة الموقف وحده، ومواجهة كل المخاطر والمشاكل المحتملة، ومن هنا كان كتابه الذي تضمن اوامره القاطعة بضرورة اخذ البيعة من الحسين عليه السلام واهل المدينة دون تردد، حال وصول كتابه بوفاة والده إلى والي المدينة، فهو في كتابه هذا وفي كل الصيغ التي وردت فيه لا يضع خياراً أمام الممتنعين عن البيعة ولا يدع امامهم اي مجال للرفض أو التردد، بل ان امره كان سريعاً وحاسماً.

وهنا نتساءل: ماذا كان أمام الحسين عليه السلام ان يفعل امام اصرار يزيد على مبايعته حالّاً دون تردد أو تأخير؟ هل سيظل في المدينة معرضاً نفسه لبطش السلطة

(١) الخوارزمي/ مقتل الحسين ١/ ١٧٨.

القوية المتسلحة ونقمتها؟ ام يغادرها إلى مكان اكثر امناً ريثما يستعد لاتخاذ القرار النهائي الذي عليه ان يتخذه، وربما كان قد اتخذه فعلًا؟

فيزيد لا يريد الا مبايعته. وهو لا يريد الا رفض هذه البيعة.

ان المسألة كلها تكمن في هذه النقطة الحساسة والدقيقة وهي: رفض الامام الحسين عليه السلام مبايعة يزيد تحت اي ظرف وفي اي وقت. وهو امر ينبغي الالتفات اليه بجدية منذ البداية، وقبل القيام بدراسة هذه الثورة وتقويم اسبابها ونتائجها وآثارها.

ان رفضه مبايعة يزيد كان رفضاً لكل القيم والتشريعات والمواصفات الاموية الطارئة على الاسلام. وكان يعني انحيازاً تاماً لهذا الدين وقيمه وتشريعاته التي نزل بها القرآن الكريم، وعمل الرسول صلى الله عليه وآله على ارسائها وتثبيتها كقيم دائمية مطلقة للدولة الاسلامية التي لم يرد لها ان تنتهي أو تضمحل أو تتغير لاي سبب من الاسباب، ومهما كانت المبررات، ومهما يكن مركز الاشخاص الذين يريدون ذلك.

غير ان الذي حصل فعلًا ان الكثير منها قد تبدل فعلًا، وحلت محله قيم جديدة مبتكرة كرست لتثبيت عرش طاغوتي فرعوني جديد يستمد قيمه الاساسية من الخبرات المتراكمة للانظمة الفرعونية السابقة، مثل تلك التي تتعلق (وفق مفهوم تلك الانظمة) بحسن السياسة وادارة الملك وغير ذلك.

واذا ما كان هناك دين سائد (مثل الاسلام) فان هذا الدين ينبغي ان يسخر لخدمة هذه الدولة وسلطانها، وما على (المعنيين) بذلك (وهم وعاظ السلطان وفقهاؤه ووزراؤه وحاشيته)، الا ان يتموا هذه المهمة، ويروضوا الامة على قبولها. وهذا ما حصل فعلًا. ولم يكن الدين الا احد اسلحة النظام الاموي التي رفعت بوجه المؤمنين بالاسلام.

وهذا هو الامر الخطير الذي ولد حالة الارتباك الخطيرة في المفاهيم والقيم والممارسات الاسلامية، والذي عمل على تمزيق وحدة المسلمين وتشتيت شملهم والذي لا نزال نعاني من نتائجه إلى يومنا هذا.

ولم يكن امتناع الحسين عليه السلام عن مبايعة يزيد، وقبول الصيغة الاموية للحكم والحياة ناشئاً عن طموح خاص لاستلام الحكم وخلافة المسلمين، رغم ان ذلك كان

حقاً مشروعاً له، ورغم انه كان المؤهل الوحيد لذلك فعلًا، فهو ما كان ليغفل عن تذكر وصية ابيه أمير المؤمنين عليه السلام حينما قال له ولأخيه الحسن عليه السلام قبيل وفاته:

(ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما، ولا تبكيا على شيء زوي عنكما وقولا الحق)[1].

لم يغفل الحسين عليه السلام عن قوة التيار الاموي واستمالته معظم الناس واخضاعهم بشتى السبل، ولم ينس كره قريش له ولآله، ولم يخف عليه تلاعب التيارات والاحزاب الاخرى واطماعها ومساعيها لابعاد الامر عنهم نهائياً، ولم يكن ليتباكى على هذا الامر الذي زوي عنه، كما لم يبك عليه اخوه عليه السلام من قبل، ولم يبك عليه أمير المؤمنين عليه السلام قبلهما، انه لم يكن ممن يبغي الدنيا، وقد لاحظنا طرفاً من سيرته التي اكدت لنا ذلك.

لكنه الحق الذي أوصاه به أبوه، وهو الذي كرس له جده صلى الله عليه وآله وابوه عليه السلام حياتهما، فلم تأخذهما فيه لومة لائم، أو مقالة عدو أو حاقد، والحق دائماً مع الاسلام، ومع استقامته ومع حدوده ومع شريعته، مع الاسلام كله، لا مع جزء منه وحسب.

ولو اننا سمعنا بحياة الامام الحسين عليه السلام وسيرته قبل الثورة، لما رأينا نظرته إلى الاسلام الا وكانت ترى الاسلام وحده ولا شيء سواه.

وهنا: ما العمل، وهو لا يريد ان يبايع أو يقر هذا النظام الجائر الذي اعلن انحرافه على رؤوس الاشهاد. وكان ذلك مستحيلًا عليه استحالة نهائية والسيف الاموي مشرع فوق رأسه، يطالبه بالبيعة حالًا دون تأخير؟ وكانت اوامر يزيد مشددة وحاسمة بهذا الشأن، اللجوء إلى الشدة وضرب الاعناق ولا شيء دون ذلك.

نصيحة مروان للوليد عامل يزيد بشأن الحسين: نصيحة لئيمة

وقد اشار مروان على الوليد عندما دعاه الاخير وأقرأه كتاب يزيد بشأن البيعة، ان يبعث في طلب النَّفر الذين لم يبايعوا ويدعوهم إلى البيعة والقبول في الطاعة على حد تعبيره.

---

(١) ابن الاثير ٣/ ٣٥٧.

(. . فإن فعلوا قبلت منهم، وكففت عنهم، وان أبوا قدمتهم فضربت اعناقهم قبل ان يعلموا بموت معاوية، فانهم ان علموا بموت معاوية وثب كل إمرىء منهم في جانب، واظهر الخلاف والمنابذة، ودعا إلى نفسه لا أدري)(١).

وكانت نصيحة عميد الاسرة الاموية في المدينة مروان لوالي يزيد عليها، نصيحة لئيمة وسلاحاً ذا حدين، اراد به مروان التخلص من الحسين عليه السلام، وكل من يعارض حكم يزيد والامويين اولاً، واستجلاب النقمة على يزيد ليخلو له الجو فيما بعد، باعتباره اقرب المرشحين للحكم اذا ما هلك يزيد أو تعرض لثورة شعبية ضد حكمه.

ولم يكن مروان منطلقاً من حرص على الاسلام أو وحدة المسلمين بهذه المشورة الماكرة، وقد اراد استغلال اضطراب الوليد بن عتبة وقلقه ومخاوفه لتنفيذ جريمة قتل الحسين عليه السلام حالاً، مدركاً ومؤملاً ان الامور ستكون اقرب لصالحه اذا ما تمت الجريمة بتلك السرعة وذلك الحسم.

وعندما وجد رسوله الحسين عليه السلام في المسجد واخبره بطلب عامل يزيد اياه في ساعة متأخرة من الليل، لم يعتد العامل الجلوس فيها شعر الحسين ان امرا خطيراً قد حدث، وما كان الوليد ليبعث اليه في تلك الساعة لو لم يحدث ذلك الامر، فقال:

(قد ظننت، أرى طاغيتهم قد هلك، فبعث الينا ليأخذنا بالبيعة، قبل ان يفشو في الناس الخبر)(٢).

وذهب اليه في جمع مواليه واهل بيته عازماً ان لا يستجيب لهذه البيعة التي قد تطلب منه، والتي قد يحاولون اكراهه عليها، وقال لاصحابه:

(إني داخل فان دعوتكم أو سمعتم صوته قد علا، فاقتحموا علي باجمعكم والا فلا تبرحوا حتى اخرج اليكم)(٣).

وعندما اخبره الوليد بموت معاوية ودعاه إلى البيعة، رفض ذلك وقال له:

(ان مثلي لا يعطي بيعته سراً، ولا اراك تجتزىء بها مني سراً دون ان نظهرها

---

(١) الطبري ٣/ ٣٦٩-٢٧٠، وابن الاثير ٣/ ٣٧٧.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٧٠، وابن الاثير ٣/ ٣٧٨.
(٣) نفس المصدر ٣/ ٣٧٠ وابن الاثير ٣/ ٣٧٨.

على رؤوس الناس علانية، فاذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان امرأ واحداً)[1].

وربما كان بطلبه هذا يريد كسب الوقت ريثما يتخذ القرار المناسب، وهو اما مغادرة المدينة قبل ان تحاصره السلطة وتلقي القبض عليه وقد تعمد إلى قتله، أو يقوم بتحريض الجماهير على يزيد وتبيان رأيه به امامها. أما احتمال البيعة فلم يكن وارداً بأي حال من الاحوال، وقد ادرك الوليد ومروان ذلك كلاهما، ولم يكن الوليد متحمساً لأخذه بالقوة، فقد كان يدرك من هو ويعرف مكانته من رسول الله صلى الله عليه وآله، ومركزه من المسلمين (وكان يحب العافية)[2]، فسمح له بالذهاب.

بين الحسين عليه السلام ومروان بن الحكم

اما مروان فقد حاول تحريض الوليد على استبقاء الحسين عليه السلام واجباره على البيعة أو قتله، وقال له:

(والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها ابداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه. احبس الرجل ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه)[3].

وقد رد عليه الامام عليه السلام وأنبه قائلاً:

(يا بن الزرقاء، أنت تقتلني ام هو؛ كذبت والله وأثمت)[4].

وكان ذلك هو الجواب المناسب بتلك المناسبة، ونلمس منه عزم الحسين عليه السلام على المضي بقراره الرافض ليزيد وتحديه لسلطته، وقد عبر عن رفضه ذاك بشكل اوضح، بعد ان لمس اقتناع الوليد ومروان بعزمه على ذلك الرفض، وخاطب الوليد قائلاً:

(انا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومحل الرحمة. بنا فتح الله، وبنا ختم. ويزيد رجل فاسق، شارب خمر، قاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله. ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون اينا احق بالخلافة والبيعة)[5].

---

(١) -(٤) المصدر السابق.

(٥) حياة الامام الحسين، باقر شريف القرشي عن (الفتوح ٥/ ١٨) م ٢ ص ٢٥٥.

كان موقفه هذا واضحاً، حتمته عليه مسؤولياته التاريخية، باعتباره القائد الوحيد المؤهل لانقاذ الامة من انحدارها وسقوطها ضحية بيد السلطة الاموية المنحرفة، وليس من شك في ذلك الموقف الحاسم الذي وقفه الحسين عليه السلام من بيعة يزيد، اذ ان هذه الكلمات لم تكن هي وحدها التي عبرت عن تصميم الامام عليه السلام لرفض الانحراف، بل كان مجموع مواقفه في عهد معاوية، وبعد هلاكه يدل بشكل قاطع إنه لم يكن يرى سبيلًا للالتقاء مع الانحراف الممثل بيزيد.

وقد احنق ذلك مروان، وقد رأى ان الحسين عليه السلام قد افلت من موت كاد ان يتحقق بعد ورود الاوامر الصارمة به من يزيد، وقال للوليد:

(عصيتني، لا والله لا يمكنك من مثلها من نفسه ابداً، قال الوليد: وبخ غيرك يا مروان، إنك اخترت لي التي فيها هلاك ديني، والله ما احب ان لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها، واني قتلت حسيناً، سبحان الله؟ أقتل حسيناً أن قال: لا أبايع؛ والله إني لا أظن امرؤ يحاسب بدم حسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة. فقال له مروان: فاذا كان هذا رأيك فقد اصبت فيما صنعت، يقول هذا له وهو غير حامد له على رأيه)[1].

ويدل جواب الوليد لمروان ان الحسين عليه السلام قد اعلن عن رفضه مبايعة يزيد، وانه لم يطلب مهلة لمراجعة نفسه بهذا الشأن، وانه انما اراد كسب الوقت للتخلص من قبضة السلطة الجائرة وتحشيد الامة خلف قيادته التاريخية للقضاء على الانحراف المعلن.

لم يمهل الحسين عليه السلام اذاً، وأريد له ان يبايع يزيد حالًا، وقبل ان يعود من المسجد إلى بيته.

هل ترى ان مروان قد عرف عن الحسين عليه السلام ما لم يعرفه هو عن نفسه؟

وهل كان الا واثقاً من رفض الحسين عليه السلام مبايعة يزيد؟

ولماذا كان واثقاً من ذلك؟

ببساطة لانه عرف من هو الحسين، وماذا كانت توجهاته وكيف كان سلوكه ونهجه وتفكيره ونظرته إلى الامور، وكيف كانت مواقفه السابقة من النظام الاموي.

---

(١) الطبري ٣/ ٢٧٠ وابن الاثير ٣/ ٣٧٨.

وقد اراد مباغتته ومفاجأته وعدم اعطائه فرصة للتفكير والتدبر لان أهل المدينة سيجتمعون حوله ويجعلوه قطباً للمعارضة.

غير ان التصميم المسبق والعزم الاكيد على رفض النظام الاموي المتمثل بيزيد جعل الحسين عليه السلام لا يفاجأ عندما يطلب منه ذلك، وكل ما فعله انه حاول كسب بعض الوقت للتخلص من هذا الطلب غير المقبول وتبعاته.

وقد جرت مشادة كلامية بينه عليه السلام وبين مروان صبيحة الليلة التي طلب منه فيها مبايعة يزيد ورفضه ذلك، عندما تقدم اليه مروان مدعياً نصحه، وطلب منه التخلي عن موقفه قائلًا:

(اني أمرك ببيعة أمير المؤمنين يزيد فانه خير لك في دينك ودنياك)(١).

وقد رد عليه الامام الحسين عليه السلام قائلًا:

(على الاسلام السلام، اذا بليت الامة براع مثل يزيد. ويحك يا مروان أتأمرني ببيعة يزيد، وهو رجل فاسد؟ لقد قلت شططاً من القول.. لا ألومك على قولك، لانك اللعين الذي لعنك رسول الله صلى الله عليه وآله وانت في صلب ابيك الحكم بن ابي العاص، إليك عني يا عدو الله فانا أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله والحق فينا، وبالحق تنطق السنتنا، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: الخلافة محرمة على آل أبي سفيان وعلى الطلقاء وأبناء الطلقاء، وقال: إذا رأيتم معاوية على منبري فأبقروا بطنه، فوالله لقد رآه أهل المدينة على منبر جدي فلم يفعلوا ما أمروا به)(٢).

مروان يتعمد استفزاز الامام الحسين عليه السلام

ويبدو ان مروان قد تعمد الالتقاء بالامام عليه السلام واستفزازه وجره إلى موقف يستطيع معه تأليب اعوان السلطة عليه قبل ان يتمكن من ترتيب خروجه من المدينة، وقد حاول ان يجبره على تغيير رأيه، ومبايعة يزيد ليسجل بذلك موقفاً لدى سيده الجديد وقد قال فيما قاله له:

(والله لا تفارقني أو تبايع ليزيد صاغراً، فانكم آل أبي تراب قد اشربتم بغض آل ابي سفيان، وحق عليكم ان تبغضوهم، وحق عليهم ان يبغضوكم)(٣).

---

(١) حياة الامام الحسين، باقر شريف القرشي ٢/ ٢٥٧/ ٢٥٨ نقلًا عن الفتوح ٥/ ٣٤.

وكأنه اراد بقوله الاخير ان سبب بغض آل البيت عليهم السلام لآل ابي سفيان هو استئثارهم (بالخلافة دونهم)، فكأنهم حسدوهم على ذلك، وكأن آل ابي سفيان ابغضوهم لحسدهم؟ وكان قمينا بمن يعرف مروان ان يفهم منه ذلك. وقد اجاب الحسين عليه السلام مروان قائلاً:

(اليك عني فانك رجس، وانا من أهل بيت الطهارة الذين انزل الله فيهم على نبيه صلى الله عليه وآله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، واضاف: ابشر يا بن الزرقاء بكل ما تكره من الرسول صلى الله عليه وآله يوم تقدم على ربك فيسألك جدي عن حقي وعق يزيد..)[1].

وكان مروان كثيراً ما يتعرض لآل البيت عليهم السلام وللامام الحسن عليه السلام على وجه الخصوص بالشتيمة والسباب والبهتان. فكان صبر الامام عليه السلام عليه وسماحته معه مضرب المثل، الا ان حظه مع الحسين عليه السلام لم يكن كما كان مع اخيه الزكي عليه السلام، فكان الحسين عليه السلام يتصدى له بشدة ويعنفه ويوبخه ويذكره بمركزه من الاسلام ومن رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه، وقد حدث احدى المرات..

(إن مروان سب الحسين بن علي رضي الله عنهما وكرم الله وجهيهما سباً قبيحاً حتى قال: والله انكم أهل بيت ملعونون! فغضب الحسين وقال: لئن قلت هذا فوالله، لقد لعنك الله على لسان نبيه صلى الله عليه وآله، وانت في صلب ابيك، فسكت مروان)[2].

ولعله كان يتوقع ان يكون رد الحسين عليه السلام رفيقاً كرد اخيه عليه السلام الا انه فوجيء به يذكر امامه حديث رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لم يكن يخفى عن أحد من المسلمين.

خروج الامام الحسين عليه السلام من المدينة ليلًا

ويبدو ان الوليد كان يطمع في ان يستجيب الامام عليه السلام لبيعة يزيد، فقد بعث اليه الرسل والرجال اثر الرجال: فكان جواب الامام عليه السلام اليه:

(كف حتى تنظر وننظر وترى ونرى، ثم بعث الرجال إلى حسين عند المساء،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تطهير الجنان، ص ٦٣.

فقال: اصبحوا ثم ترون ونرى، فكفوا عنه تلك الليلة، ولم يلحوا عليه، فخرج حسين من تحت ليلته، وهي ليلة الاحد ليومين بقيا من رجب سنة ستين، وقد خرج ببنيه واخوته وبني اخيه وجل أهل بيته، الا محمد بن الحنفية)[١].

فقد روي انه كان مريضاً وان الحسين عليه السلام اراده ان يبقى في المدينة لرصد تحركات الامويين، ورصد ردود فعلهم تجاه خروجه ورفضه مبايعة يزيد[٢].

علاقة الامام الحسين عليه السلام بأخيه محمد بن الحنفية (رض)

كما اراد الحسين عليه السلام ان يودع وصيته شخصاً موثوقاً يعلنها فيما بعد على الامة، وقد اوضح في وصيته تلك اسباب رفضه بيعة يزيد، وخروجه على الدولة الفاسدة التي اقيمت على انقاض الدولة الاسلامية الاولى، ولا شك ان الامام الحسين عليه السلام لم يجد شخصاً اكثر كفاءة من محمد اخيه للاحتفاظ بوصيته ونشرها فيما بعد، لكي تعلم الامة كلها اسباب الرفض، وتعلم انه عليه السلام لم يخض قضية خاسرة بمواجهة يزيد وقوته، وانما خاض حرباً معروفة الاهداف والنتائج، ستكون محصلتها لصالح الاسلام دون شك.

ولعل هذا أحد الاسباب التي تضاف إلى السببين اللذين اشير اليهما في سبب تخلف محمد بن الحنفية في المدينة.

نصائح ابن الحنفية (رض) للامام الحسين عليه السلام
استعراض للأساليب فقط

فلم تشر حادثة واحدة، أو رواية تاريخية لدى اي واحد من المؤرخين المحايدين، وحتى اولئك المنحازين لآل امية، أو المعادين لآل البيت إلى ان محمد بن الحنفية كان يرى ما لا يراه اخواه الحسنان عليهما السلام، وانه خرج عن مشورتهما

---

(١) الطبري / ٣٧٠/ ٢٧١ وابن الاثير ٣/ ٣٧٩.

(٢) مقتل الحسين، السيد محمد تقي آل بحر العلوم، دار الزهراء ط ٢، ١٩٨٥ ص ١٣٨ نقلاً عن مناقب بن شهراشوب ج ٤ ص ٨٨ ومقتل العوالم للبحراني ص ٥٤ ومقتل الخوارزمي ج ١ ص ١٨٩ النجف وحياة الامام الحسين، باقر شريف القرشي ٢/ ٢٦٣ نقلاً عن الفتوح ٥/ ٣٢.

ورأيهما واوامرهما، بل انه كان يرى ما يريان وكان مطيعاً لهما اشد ما تكون طاعة المرء امامه وقائده ومرشده.

وفي مسألة خروج الامام عليه السلام من المدينة، لم يكن رأي محمد بن الحنفية مخالفاً لرأي الحسين عليه السلام وعزمه على ذلك، ولم يلمح احد في النصيحة التي ابداها للامام عليه السلام الا بعض الاساليب والخطط التي عرضها عليه لتجنب البطش الاموي، ولم يثنه عن الخروج، وتؤكد لنا هذه الوثيقة التي رواها لنا الطبري ذلك. قال محمد بن الحنفية للحسين عليه السلام قبيل خروجه من المدينة:

(يا أخي، أنت أحب الناس إلي، وأعزهم علي، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق احق بها منك، تنح بتبعتك عن يزيد بن معاوية، وعن الامصار ما استطعت، ثم ابعث برسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك، فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك وان اجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك، إني اخاف ان تدخل مصراً من هذه الامصار، وتأتي جماعة من الناس فيختلفون بينهم، فمنهم طائفة معك، وأخرى عليك، فيقتتلون فتكون لأول الاسنة، فاذا خير هذه الامة كلها نفساً وأباً وأماً، اضيعها دماً واذلها اهلاً).

وعندما اخبره الحسين عليه السلام انه ذاهب وان لا بد من خروجه قال:

(فانزل مكة، فإن اطمأنت بك الدار فسبيل ذلك، وان نبت بك لحقت بالرمال وشعف الجبال، وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى ما يصير امر الناس، وتعرف عند ذلك الرأي، فانك اصوب ما تكون رأياً وأحزمه عملاً حين تستقبل الامور استقبالاً، ولا تكون الأمور عليك ابداً اشكل منها حين تستدبرها استدباراً.

وقد اجابه الحسين عليه السلام: (لقد نصحت فأشفقت، فأرجو ان يكون رأيك سديداً موفقاً)[1].

ان محمد بن الحنفية هنا يرى رأي الحسين عليه السلام، ويرى أن عليه اعلان دعوته

---

(١) الطبري ٣/ ٢٧١ وابن الاثير ٣/ ٣٧٩، وقد وردت نصيحة محمد بن الحنفية بصيغة اخرى، لا تختلف في مضمونها عن الصيغة السابقة، وكانت وردت في (مقتل الحسين لابي مخنف الصادر عن مؤسسة الوفاء/ لبنان ط ٢ ١٩٩٢ ص ٢٢/ ٢٣): (يا أخي انت اعز الناس علي

على الناس فان استجابوا كان ذلك موجباً للشكر، وان لم يستجيبوا فان الحسين قام بمهمته وواجبه، وما كان ينبغي عليه القيام به، دون ان يخل ذلك بمروءته أو فضله، فهو سيظل ذلك الرمز الذي تحبه الامة وتحترمه الحاكم الجائر.

ولم تكن نصيحته هنا الا خطة حاول ان يجنب بها الامام عليه السلام مواجهة فعلية وسريعة مع السلطة القوية المسلحة العنيفة، وليستثمر الوقت لعل الامة تثوب إلى رشدها فتدرك معنى رفضه مبايعة يزيد أو دعوته إلى نفسه، ويكون ذلك فترة كافية لتعيد التفكير في امرها وامر استسلامها، فاذا استيقظت وادركت عمق المأزق الذي وجدت نفسها فيه وضرورة التخلص منه فهذا واجبها، وان استمرت في خضوعها وخوفها واستسلامها، فان المدة التي اعطاها الامام لها كافية، لتدعه يقوم بواجبه وبما يراه لايقاظها وجرها من مواقف الاستسلام والهزيمة إلى موقف الرفض والثورة.

وقد وردت نصيحة محمد بن الحنفية بصيغة اخرى، لا تختلف في مضمونها عن الصيغة السابقة، وكانت كما وردت في (مقتل ابي مخنف ص ٢٢-٢٣):

يا اخي انت أعز الناس علي واحبهم واكرمهم لدي، ولست انصح احداً احب الي منك ولا احق بالنصيحة. فبحقي عليك الا ما ابعدت شخصك عن يزيد، وإياك والتعرض له دون ان تبعث دعاتك في الامصار يدعون الناس إلى بيعتك، فان فعل الناس ذلك حمدت الله، وان اجتمعوا إلى غيرك فلم ينقص الله بذلك فضلك. واني خائف عليك ان تأتي مصراً من هذه الامصار في جماعة من الناس، فيختلفون عليك فتكون بينهم صريعاً فيذهب دمك هدراً فتنتهك حرمتك).

كان موقف الوداع مؤثراً، انفجر فيه ابن الحنفية باكياً مما سيلحق اخاه وامامه، الا ان الامام عليه السلام حاول ان يخفف عن اخيه، واكد عزمه على الخروج، شاكراً اياه على نصيحته.

(جزاك الله خيراً. لقد نصحت واشرت بالصواب وانا عازم على الخروج إلى

واحبهم واكرمهم لدي، ولست انصح احداً احب إلي منك ولا أحق بالنصيحة، فبحقي عليك إلا ما أبعدت شخك عن يزيد، واياك والتعرض له دون ان تبعث رعاتك في الامصار يدعون الناس إلى بيعتك، فان فعل الناس ذلك حمدت الله، وان اجتمعوا إلى غيرك فلم ينقص الله بذلك فضلك، واني خائف عليك ان تأتي مصراً من هذه الامصار في جماعة من الناس، فيختلفون عليك فتكون بينهم صريعاً فيذهب دمك هدراً فتنتهك حرمتك).

مكة، وقد تهيأت لذلك انا واخوتي وبنو اخي وشيعتي، امرهم امري، ورأيهم رأيي وأما انت فلا عليك ان تقيم بالمدينة، فتكون لي عيناً، لا تخف عني شيئاً من أمورهم..)[1].

وقبل خروجه من المدينة، عهد الامام عليه السلام بوصيته إلى اخيه محمد بن الحنفية شارحاً فيها اسباب خروجه وثورته على يزيد، والهدف الذي توخاه من ذلك. وهي وثيقة واضحة تعلن عن التزام المبادىء الاساسية التي اعلنها الاسلام، وتكاد على قلة كلماتها تفصح بشكل واضح عن السبب الذي دعا الحسين عليه السلام لرفض يزيد وحكمه المنحرف منذ اللحظة الاولى التي سمع فيها باستلامه القيادة الفعلية للمسلمين، مدركاً ان الامة ستقبل على كارثة محتمة بعهده، لما عرف عنه من استهتار معلن بالاسلام وقيمه ومقدساته.

لقد رأى الامام عليه السلام ان يزيد لم يكن يثنيه قول أو نصيحة ليتراجع عن سلوكه البعيد عن الاسلام، وانه سيتمادى إلى حد انكار الاسلام، وانه سيجد في غمرة السلطة الواسعة التي كان يتمتع بها، من يؤيده ويبرر له سلوكه، بل ويشيد بانحرافه واستهتاره.

فلم يكن من علاج لايقاظ الامة وجعلها تتراجع وتنتبه إلى واقعها المرير، الا القيام بفعل حاسم واضح معلن امام انظارها، وهو الفعل الذي قرر الامام عليه السلام اتخاذه.

ان وضوح وصيته يؤكد وضوح رؤيته للاسلام، كما يؤكد عمق انتمائه اليه، بحيث انه لم ير في حياته غاية سوى التمسك به، وهو ما اراده لكل الناس، ان لا يروا امامهم الا الله والا الاسلام. والا قيمه ومباده.

وقد اعلن عزمه في هذه الوصية على المضيّ إلى نهاية الشوط في سبيل منع الانحراف حتى وان لم يستجب له احد من الامة، فحالتها المرضية وطبيعة النظام التسلطي قد لا يتيحان لها الاستجابة التامة له، الا انها لا بد ان تستيقظ في النهاية، وتستجيب بعد ان تدرك انها كانت على خطأ، وانها كانت مخدرة ومعطلة ومستسلمة لحاكمها. وهذا ما حصل فعلًا، بعد ان اريق دم الثوار في كربلاء، بعد اشهر من كتابة

(١) حياة الإمام الحسين، القرشي، ٢/ ٢٦٣، نقلًا عن الفتوح ٥/ ٣٣، وابن الاثير ٣/ ٣٧٩.

هذه الوصية، وبعد ان عرفت الامة كلها بخروج الحسين عليه السلام إلى الكوفة للتصدي للنظام الجائر، وتخلت عن مسؤوليتها بمتابعته والالتفاف حوله، ثم ادركت جسامة خطئها وتخليها المشين عنه، وحاولت تدارك ذلك بالتفكير جدياً بأمر النظام الاموي المنحرف، وما جره عليها من ويلات ومآسي ابسطها الابتعاد عن نهج الاسلام ومبادئه وقيمه الحقيقية، وما جره ذلك من تمزيق لوحدة الامة، وايجاد نمط جديد من العلاقات الفرعونية، ترى فيها القوي والضعيف، والغني والفقير، والمتسلط والمستضعف، نمط اعتمد العلاقات الجاهلية القديمة لكي يفصل الاسلام عن الحياة فعلًا.

ان تفكيرها فيما بعد جعلها تدرك صواب نهج الحسين عليه السلام، وان كانت قد علمت ذلك قبلًا الا ان ذلك جعلها الآن تفكر بشكل اكثر جدية لسلوك نفس سلوكه، والثورة على الظالمين واستئصالهم وابعادهم عن حياتها ومحيطها، تدل على ذلك سلسلة الثورات والانتفاضات بوجه الارهابيين الامويين، وبوجوه الحكام الطغاة في كل وقت وعلى امتداد الايام.

وصية الامام الحسين عليه السلام نص تاريخي وأول اعلان للثورة

ان الكثيرين منا وقد اعتادوا سماع الكلمات الوعظية، يلقيها بعض الحاكمين، وربما دبلجها لهم كتابهم المحترفون ربما ينظرون إلى هذه الوصية نظرة سطحية غير متأملة فيأخذوها على انها كلام عام يقال بامثال هذه المناسبات، غير اننا عندما نرى ان الحسين عليه السلام صمم على تنفيذ كل بنودها، وان حياته بمجموعها كانت مصداقاً لاقواله، وان قراره المعلن بعدم الاستسلام ومبايعة يزيد انعكس بشكل واضح على افعاله قبيل جلوس يزيد على العرش وبعده، وانه استمر بفعل ارادي واضح، اراده ان يكون بمرأى ومسمع من الامة، دليلًا على موقفه الرافض المعلن رغم تعرضه الاكيد للموت.

ان قيمة الوصية تنبع من مصداقية الفعل الحاسم الذي قام به الحسين عليه السلام، وقد كانت كلمة واضحة توضع امام المسلمين لا في المدينة وحسب، وانما في كل اقطار الارض، لتعلن عن انصهار الموصي التام بالاسلام واندماجه معه، وان سبيل الحق الذي انتهجه ورآه واجباً على كل الناس، لا يهمه اذا ما كان هو السالك الوحيد فيه.

وقد دللت اقواله على ذلك طيلة الفترة التي خرج فيها من المدينة وحتى

استشهاده في كربلاء، وهي فترة حافلة بالاحداث مليئة بالترقب، وقد برز فيها حدث رفض الحسين عليه السلام وخروجه من المدينة إلى مكة كأكبر حدث طغى حتى على حدث وفاة معاوية وتنصيب يزيد، وقد اخذت الامة كلها، وقد اجتمعت نخبة من بنيها في مكة في موسم الحج، تراقب الموقف الرافض المتصاعد من الحسين لبيعة يزيد، ويثيرها الاقدام على تلك الخطوة التي علمت ان الدم والقتل لا بد ان يكون وراءها، ورأت فيها جرأة افتقدتها وعزماً تخلت عنه منذ زمن بعيد.

ان نص وصية الامام الحسين عليه السلام لاخيه محمد بن الحنفية يمكن ان نفهم منه العديد من الامور، ويمكن اعتمادها كأول وثيقة تبين اسباب رفض يزيد، والثورة على حكمه، وينبغي لدارس الثورة ان يدرسها بدقة باعتبارها الاعلان الاول لتلك الثورة المؤكدة، مع ان اعلانات اخرى سبقتها في عهد معاوية وقبيل خروج الحسين عليه السلام من المدينة، ألا أن هذه الوصية تمثل البيان المكتوب الذي اعده الامام عليه السلام وأراد الامة إن تطلع عليه فيما بعد، وقد أعد في وقت كان الامام عليه السلام يستطيع فيه اتخاذ مختلف المواقف ومنها موقف المساومة الذي رفضه منذ البداية، وذلك يدحض المقولة الاموية بان موقفه كان مجرد رد فعل، وانه كان يتطلع للسلطة، وانه كان متأثراً بأهل العراق وكتبهم ودعوتهم إياه للحضور، فوصيته سبقت كتب أهل العراق، وكانت رداً على الدعوة السريعة من قبل عامل يزيد لمبايعته فوراً، فلا بد اذاً وكما أوضحت لنا الوقائع فعلًا ان الامر قد حسم منذ زمن بعيد، وان القرار النهائي برفض يزيد قد تم منذ اليوم الاول الذي فكر فيه معاوية بتنصيبه خليفة على المسلمين من بعده.

كتب الحسين عليه السلام في وصيته التي اودعها لدى محمد بن الحنفية (رض):

(بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما اوصى به الحسين بن علي بن ابي طالب، إلى اخيه محمد المعروف بابن الحنفية:

إن الحسين يشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له،

وأن محمداً عبده ورسوله، جاء بالحق من عنده،

وان الجنة حق والنار حق وان الساعة آتية لا ريب فيها، وان الله يبعث من في القبور. . .

وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً،

وإنما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي محمد صلى الله عليه وآله،

أريد ان آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي محمد صلى الله عليه وآله وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق، فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين)[1].

وهذه الوصية تشابه في كثير من بنودها وصية أمير المؤمنين لولديه الحسن والحسين عليه السلام قبيل وفاته اذ جاء فيها: (أوصيكما بتقوى الله وان لا تبغيا الدنيا وان بغتكما، ولا تأسفا على شيء زوي عنكما وقولا بالحق واعملا للاجر وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً، الله الله في الجهاد باموالكم وانفسكم والسنتكم في سبيل الله، لا تتركوا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولي عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم) ابن الاثير ٣/ ٢٥٧.

فكأنما هذه الوصية هي تلك نفسها، ومن اجدر بحمل وصية أمير المؤمنين عليه السلام وتنفيذها من وليه عليه السلام.

إن الموت الذي اقدم عليه كاتب الوصية هنا، الامام الحسين عليه السلام، بدا وكأنه امر محتوم، فالعمل الذي اقدم عليه، لم يكن يتوقع ان يقابل من الدولة المتجبرة بالغبطة والسرور، أو ان يكون مثار ارتياح حتى لابسط منتفع ومتملق لها.

ان تغيير النظام الذي عمل معاوية على بنائه طيلة اكثر من ثلاثين عاماً والاطاحة بمصالح الطبقة الطفيلية المتنفذة والواقفة خلف يزيد، لم يكن بالامر الذي ترضاه تلك الطبقة التي اتسعت بشكل غير معقول في اواخر عهد معاوية، ووجدت ان لها من الامتيازات والجاه، ما يمكن ان ترفض معه حتى مبادىء الاسلام العامة، فانها اذا ما وضعت امام مفترق طرق، تخير به بين الاسلام ومصالحها والجاهلية التي تحقق لها بعض المصالح والامتيازات، فانها ستلجأ إلى رفض الاسلام علانية، والتخلي حتى

(١) المناقب لابن شهر اشوب ج ٤ ص ٨٨ ومقتل العوالم للبحراني ص ٥٤، ومقتل الحسين/ الخوارزمي ١/ ١٨٨/ ١٨٩، والفتوح ٥/ ٣٣.

عن شعاراته ومبادئه المعلنة، اما فيما يتعلق بالحسين عليه السلام فهل نلمح خلف وصيته اثراً لطالب ملك، أو انساناً لا يرى شيئاً الا مصالحه، ولم تكن افعاله الا ردود فعل انعكاسية لاعمال الآخرين، أو شخصاً خفيفاً يستجيب للاغراءات ويخدع بسهولة، كما حاولت اجهزة الاعلام الاموي تصوير ذلك باسلوب مخطط مدروس ومعد من قبل معاوية.

وهل ثمة ضرورة لاعادة القول بان الحسين عليه السلام يستجيب هنا استجابة واعية لوصايا جده صلى الله عليه وآله وابيه عليه السلام؟ وانه كان بموقفه منسجماً مع الاسلام وكان بحمله مبادئه كأنه يجسد صورة لاسلام حي متحرك؟

هل كان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يمثل سوى اقوال ارادنا الاسلام ان نرددها دون وعي، ودون معرفة بمحتواها الحقيقي، ودون ان نفكر بالاخذ بها؟ ام انها كانت احدى المسائل الملحة التي وضعها الاسلام لكبح كل شذوذ وانحراف قد ينشأ في ظله، وان تركها سيجعل المجتمع الاسلامي ينهار ويقع فريسة بيد أبعد الناس عن الاسلام واشدهم عداوة له؟

وهل ان دعوة الحسين عليه السلام للسير على منهج جده صلى الله عليه وآله وابيه عليه السلام مما يعاب عليه، باعتبار ان سيرة جده صلى الله عليه وآله اصبحت امراً مثالياً لا يقوى عليه اي انسان، وأنها اصبحت اثراً من آثار الماضي البعيد، لا يمكن ان تتكرر أو تعاد كما اوحى بذلك معاوية ايضاً، وقد رأينا ايحاءاته الشيطانية الخبيثة بهذا الخصوص.

لم يكن مع الحسين عليه السلام عند اعداد هذه الوصية الا نفر ضئيل من أهل بيته واصحابه، ولم يكن أهل العراق قد دعوه بعد، وكان يعمل على الخروج من المدينة للتخلص من بطش السلطة، وكانت القوة التي تواجهه وتعاديه قوة ضاربة كبيرة، ومع ذلك عزم بشكل حاسم ان يتصدى لمنع الانحراف والوقوف بوجه يزيد وطغمته، فهل ان من يفعل ذلك طالب ملك أو زعامة أو مال؟ كان عليه السلام مصمماً على المضي إلى نهاية الشوط حتى لو لم يبق معه احد وهذا ما توقعه مسبقاً اذا لم يبق معه الا النفر القليل الذين خرج اغلبهم معه من المدينة، وقد عزم على اكمال مهمته والصبر عليها رغم عاقبة القتل المؤكدة التي كانت تلوح في الافق امامه، والتي اخبر عنها اخباراً اكيداً عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله وابيه أمير المؤمنين عليه السلام.

فهل كان عليه السلام يجهل ما علمه الآخرون عن اخبار رسول الله صلى الله عليه وآله انه سيقتل في سبيل احياء الاسلام واعادته قوياً عزيزاً كما كان من قبل؟

الامام الحسين يودع جده رسول الله ﷺ

وقبل ان يغادر المدينة ودع الامام عليه السلام جده بعد ان زار قبره وقضى ليلة في المرقد الشريف متوجهاً إلى الله تعالى بالعبادة، وكانت مناجاة حميمة بين الاب وابنه، اذ ألم به رسول الله ﷺ في المنام، فشكى له عليه السلام حال امته وكيف انها قد ضعفت وتخلت عن دينها تحت وطأة استسلامها للجاهلية الجديدة وقد توجه الحسين عليه السلام إلى الله كاشفاً عن نفسه، ومعلناً عن نواياه بمنازلة الظلم ومستجيباً له سبحانه استجابة تامة.

قائلًا: (اللهم هذا قبر نبيك محمد، وانا ابن بنت نبيك، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت. اللهم، اني احب المعروف وانكر المنكر. وانا اسألك يا ذا الجلال والاكرام بحق القبر ومن فيه، الا اخترت لي ما هو لك رضاً ولرسولك رضاً)[1].

وكانت مواقف عاطفية مشهودة مع الحسين عليه السلام وأهل بيته، وبني عبد المطلب، اريد لها ان تذكر، ليذكر معها اصرار الحسين عليه السلام على الشهادة رغم ما سيحل به من موت محقق على يد السلطة الجائرة.

كان (الحل) الوحيد لتجنب موقف الحزن والبكاء، هو أن يعلن الحسين موافقته على مبايعة يزيد، فيتجنب ما سوف يلقاه، ولكن هل كان ذلك (حلًا) فعالًا؟ ام انه كان اعلاناً عن مأساة دائمة تضيع فيها الامة إلى الابد، واعلاناً عن الام ودموع وقهر وحرمان ستظل تشهدها طيلة حياتها اذا ما اعلن خليفة رسول الله ﷺ الفعلي والحقيقي استسلامه للخليفة المزيف، وساومه على حساب مصالح الامة ومستقبلها وحياتها؟

ان هذا ما اراد الامام عليه السلام من الناس ان تفهمه في المدينة، وفي مكة بعد ذلك، وفي كل مكان، انه ضحى من اجل أن يبقوا على تماس والتقاء دائمين بالاسلام، انه لم ير له حجة بالالتقاء بيزيد ووضع يده في يده، وكان ذلك امراً مستحيلًا، ان يتخلى خليفة الاسلام عن قيم الاسلام، على ان الامر الجدير بالانتباه هو ان الحسين عليه السلام اراد الامة ان تدرك نواياه واهدافه من رفض يزيد والثورة عليه،

(١) مقتل الحسين، الخوارزمي ط النجف الاشرف ج ١ ص ١٨٦ فصل ٩.

وارادنا ان ننظر بنفس الوعي ونحمل نفس الرؤية التي جعلته يقف موقفه ذاك، لنقف مواقف مشابهة من كل ظلم وانحراف.

وحتى المواقف العاطفية أراد لها ان تستثمر استثماراً نبيلًا، وان يذكر معها نبل الهدف الذي اراده عليه السلام، من رفض يزيد منذ اللحظة الاولى لتسلمه الحكم. لقد تعرض الامام عليه السلام إلى ضغوط و(نصائح) عديدة للاستسلام ليزيد وقبول مبايعته والتخلي عن موقفه السابق طيلة حياة معاوية، ونصائح اخرى بعدم التوجه إلى العراق، لانه لن يجد هناك الثبات والصلابة عند العراقيين لتجعلهم يسيرون خلفه إلى نهاية الشوط، وكانت اجوبته الرفيعة حاسمة، لا تدع فرصة امام احد لكي يجعله يطمع في ان يثنيه عن عزمه، فهو قد اتخذ قراره، ومن يعرفه يعرف ان هذا القرار كان هو الصائب والحكيم، غير ان ما لم يكن بمقدور الآخرين ان يفعلوه، فعله الحسين عليه السلام، وان الشيء الذي عجزت عنه الامة اقام به نفر محدود من أهل بيته واصحابه، ساروا معه الشوط إلى النهاية، ولم يثنهم عنه ما علموه من موت محقق سيلحق بهم ان هم واصلوا المسيرة.

حزن الامام الحسين عليه السلام على واقع الأمة

لقد امض الحزن الحسين عليه السلام وهو يرى تخاذل الناس عن نصرة دينهم ونبيهم صلى الله عليه وآله وخرج يجر الخطى بعد ان دخل مسجد المدينة

(وانه ليمشي وهو معتمد على رجلين، يعتمد على هذا مرة وعلى هذا مرة، وهو يتمثل بقول ابن مفرغ:

لا ذعرت السوام في فلق الصبح مغيراً ولا دعيت يزيدا
يوم أعطي من المهابة ضيماً والمنايا يرصدنني ان أحيدا[1]

فلما سار الحسين عليه السلام نحو مكة، قال:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2]. كان مشهد القافلة الحسينية وهي تغادر مدينة جده حزيناً جداً، فمع ان الحسين عليه السلام سيقف موقفاً مشهوداً امام الله يسجل فيه ما قام به من اجل دينه، وهو منتصر بمقاييس الاسلام، غير

(١) الطبري ٣/ ٢٧١/ ٢٧٢.
(٢) القصص: الآية ٢١.

ان الثمن الذي يدفعه لم يكن ثمناً بخساً، كان الثمن فراق ما ألف من حياة في جو المدينة المقدسة التي ولد ونشأ فيها، وفيها رسول الله صلى الله عليه وآله وأمه وأخوه عليه السلام وكل أعزته. وكان ما سيتعين عليه دفعه هو حياته وحياة الثلة من اهله واصحابه، في مشهد مروع. إن آلام مشاهد الوداع والخروج من المدينة ورؤية الامة منهكة ضعيفة مستسلمة، ثم كل المشاهد التي اعقبتها انتهاء بالواقعة الفاجعة، اريد لها ان تمثل دائماً امام الامة وان يكون لها شهودها الذين سيروون للآخرين، كيف ان ما حسبوه مستحيلًا عليهم، وهو الوقوف مع الحسين عليه السلام، كان ممكناً، وانهم قد ضيعوا فرصة العمر الكبيرة لتسجيل موقف النصر على الطغاة.

لقد اريد للامة ان تفكر في انها لو وقفت مع الحسين عليه السلام لحققت نصراً مؤكداً على الظالمين، ولأقامت حكم الله حقاً، ولكانت وقفتها فاصلة في حياتها إلى الأبد، ولما تحملت مسؤولية الاجيال اللاحقة من بعدها.

لقد كان موقف وداع رسول الله صلى الله عليه وآله وداعاً مؤثراً، وكانت مناجاة الحسين عليه السلام لله، عند قبر رسوله الكريم صلى الله عليه وآله معبرة عن الاستسلام التام لحكمه وقضائه، والاستعداد للتضحية من أجل دينه، وقد أوشك هذا الدين ان يندثر تحت وطأة المحرفين والكذابين والدجالين الذين ارتدوا رداءه، ورفعوا بعض شعاراته فخدعوا الامة وساروا بها في طريق الضلال والانحراف ارضاء لفراعنتها الجدد، الذين تسللوا إلى الاسلام، ودخلوا في صفوف المسلمين بعد ان لم يجدوا بداً من ذلك، وقد بدأوا تدريجياً بسحب البساط من تحت ارجل الامة واستدراجها وغوايتها، مستغلين بوادر انحراف سابقة، حتى اصبحوا في مركز الصدارة، واحتلوا منصب رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد تم ذلك كله بفترة زمنية قياسية لم تتجاوز نصف قرن على وفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله.

كانت الامة موشكة على الانهيار التام والنهائي، وهو ما كان يمض الامام عليه السلام ويقض مضجعه عندما كان يرى انه الشخص الوحيد الذي بامكانه ان يوقضها وينتزعها من سباتها واستسلامها، كان يرى انه مسؤول شخصياً ان لم يقم حالًا ويستجيب للمعروف الذي احبه، ويقمع المنكر الذي كرهه.

ولم يكن ما اقدم عليه وهو يواجه اعتى سلطة طاغوتية مستهترة هيناً ولم يكن ما أراده نزهة يغادر فيها المدينة إلى أماكن أخرى يمضي فيها بعض الوقت ثم يعود وقد استجم وارتاح.

ان مسيرته تلك، كانت المسيرة النهائية، وانها لتنتهي في مكان ستضمخه دماؤه ودماء اصحابه.

ان خليفة الله سيستشهد لتبقى خلافة الله على الارض صافية صحيحة.

وان الامام الذي كان يفترض من الامة ان تتجه اليه بقلوبها وابصارها يموت لكي تظل تلك القلوب حية والابصار سالمة.

انه يمضي إلى الموت بعزم وثبات، لكي ينقذها وينتشلها من المصير المحزن الذي اعد لها في ظل اجهل واعتى سلطة قيض لها ان تعيش في ظلها. وانه لامر محزن حقاً ان لا يكون تصحيح المسيرة ألا بذلك الدم الطاهر الذي اعد ليراق منذ اللحظة الاولى التي بدأ الانحراف والجهل يأخذان طريقهما إلى الامة المسلمة.

ومن هنا كانت تلك المناجاة الحزينة مع الله عند قبر رسوله الحبيب صلى الله عليه وآله:

(اللهم ان هذا قبر نبيك محمد، وانا ابن بنت نبيك، وقد حضرني من الامر ما قد علمت، اللَّهُمَّ اني احب المعروف وانكر المنكر، وانا أسألك يا ذا الجلال والاكرام بحق القبر ومن فيه الا اخترت لي ما هو لك رضا ولرسولك رضاً[1]).

وتوجه بمناجاته بعد ذلك إلى جده الرسول صلى الله عليه وآله:

(بأبي انت وأمي يا رسول الله، لقد خرجت من جوارك كرها، وفرق بيني وبينك وأخذت قهرا ان ابايع يزيد شارب الخمور وراكب الفجور، وان فعلت كفرت، وان أبيت قتلت، فها انا خارج من جوارك كرها، فعليك مني السلام يا رسول الله)[2].

لم يكن القتل وما سيلاقيه مع عائلته واصحابه امراً هيناً، ولم يكن فراقه مدينة جده صلى الله عليه وآله وموطن طفولته وشبابه مشرداً بالذي يسر النفس، غير ان الاصعب منه كان مبايعة يزيد شارب الخمور وراكب الفجور خليفة وقائداً على المسلمين، اذ ان ذلك كان يعني الكفر بنظر الامام والتخلي عن كل قيم ومبادىء الاسلام.

وهكذا خرج من المدينة وقلبه عالق بها، وفارق جده صلى الله عليه وآله وامه واخاه عليهما السلام وملاعب طفولته وحلقات العلم التي تخرج فيها على يديه الاف المسلمين خائفاً يترقب يدعو الله كما دعاه نبيه موسى ان ينجيه من القوم الظالمين، الذين تمردوا على

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ج ١ ص ١٨٦، والفتوح ٥/ ٢٨/ ٢٩.
(٢) مقتل الحسين لابي مخنف ص ٢٤.

الاسلام وجاءوا بدين جديد يعزز من قيم الجاهلية والكفر، وان ينقذ دين جده ﷺ من جاهليتهم وكفرهم.

وقد روي انه عليه السلام:

رأى جده ﷺ في المنام، وانه اخبره بما سيلحق به على يد الطغاة الحاكمين، وانه سيلتقي به عما قريب وقد بشره بالشهادة(١).

لن يتاح بسهولة ويسر وصف حادث خروج الحسين عليه السلام من المدينة إلى مكة في جماعة قليلة من أهل بيته واصحابه وعياله، فقد كان هو رجل المدينة الاول وأمل المسلمين لوقف الانحراف، واذا كان وقع الامر عليه شديداً فربما لم يكن عليهم امراً هيناً يسيراً، ولعلهم ادركوا وان كان بعد فوات الاوان انهم بتخليهم عنه قد تخلوا عن رسول الله ﷺ وعن الاسلام وقد دفعوا الثمن باهظاً في واقعة الحرة التي استباحهم فيها جند يزيد وأذلوهم وارتكبوا معهم اعمالاً مشينة لا زالت تشكل لطخة سوداء في تاريخ الامويين، الذي كان كله لطخة سوداء في تاريخ المسلمين.

وقد وردت رواية اخرى مفادها ان الحسين عليه السلام، لما دعي إلى بيعة يزيد، خرج من ليلته إلى مكة، ووردت رواية اخرى ذكرت انه خرج في الثالث من شعبان، وذكرت اخرى انه وصل في الثالث من شعبان إلى مكة.

ومهما يكن من امر فان من الثابت على ضوء الروايات التاريخية بمجملها ان الحسين عليه السلام لم يطل المكث في المدينة اثر دعوته لمبايعة يزيد، وانه ابتعد عن السيف الاموي المسلط فوق رأسه فيها، لينفذ خطته لمناوئة الحكم المنحرف، واعلان موقفه منه على جماهير المسلمين، ليكونوا على بينة منه، وليتخذوا بدورهم قرارهم النهائي برفضه أو الاستجابة له.

لقد حثه كثيرون على الاستسلام ليزيد ومبايعته، وكان منهم عبد الله بن عمر، بحجة عدم تفريق جماعة المسلمين وقد روى الطبري:

(ان عبد الله بن عمر لقي الحسين وابن الزبير عند خروجهما من المدينة (من المعلوم انهما لم يخرجا سوية) وربما كان ذلك قبيل وصولهما إلى مكة فقال لهما: (اتقيا الله ولا تفرقا جماعة المسلمين)(٢).

---

(١) مقتل العوالم ص ٥٤ عن (حياة الحسين للقرشي ص ٢٦٠).

(٢) الطبري: ٣/ ٢٧٢، وقد قدم ابن عمر المدينة، ثم تقدم إلى الوليد بن عتبة فبايعه.

وهي نفس الحجة القديمة الحديثة التي يتذرع بها من يتنازل في النهاية ويستسلم، وقد تنازل ابن عمر فعلًا، بعد موقفه الرافض الاول، وتقدم إلى الوليد بن عتبة فبايعه.

موقف عامل يزيد على المدينة من الاحداث

لقد عد يزيد تماهل الوليد بن عتبة بن ابي سفيان، ابن عمه وواليه على المدينة في اخذ البيعة من الحسين عليه السلام تقصيراً متعمداً منه، وقد الح عليه بعد ان اعلمه برفض الحسين عليه السلام البيعة، ان يأخذه واهل المدينة اخذاً شديداً، وان لا يتساهل معهم بأي حال من الاحوال، وقد كتب اليه:

(. . . فخذ البيعة ثانياً على أهل المدينة بتوكيد منك عليهم، وذر عبد الله بن الزبير، فانه لن يفوت ابداً ما دام حياً، وليكن مع جوابك رأس الحسين بن علي، فان فعلت ذلك، فقد جعلت لك أعنة الخيل، ولك عندي الجائزة والحظ الاوفر والنعمة)[1].

ولم يتحمس الوليد لمتابعة المهمة التي اهملها منذ البداية، وصرح قائلًا:

(لا يراني الله قاتل الحسين بن علي، لا اقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ولو اعطاني يزيد الدنيا)[2].

وقد جاءت رسالة يزيد متأخرة على خروج الحسين عليه السلام إلى مكة، ولعله اراد من الوليد ان يلحق الحسين عليه السلام إلى مكة فينفذ فيه أوامره هناك.

يزيد يعزل عامله على المدينة

ويعين مكانه (الأشدق) الحاقد على أهل البيت عليهم السلام

وقد بادر يزيد بعزله بعد ذلك (. . . في شهر رمضان، فأقر عليها عمرو بن سعيد الاشدق (عمرو بن سعيد بن العاص)[3]، الذي كان يكن حقداً خاصاً على أهل المدينة وآل بيت الرسول صلى الله عليه وآله خاصة.

---

(١) و(٢) حياة الامام الحسين/ القرشي ٢/ ٢٥٨ عن (الفتوح ٥/ ٢٤/ ٢٦).

(٣) الطبري ٣/ ٢٧٢.

وما كان يزيد يتورع عن ارسال عبيد الله بن زياد أو مسلم بن عقبة المري أو غيرهما كعمرو بن سعيد بن العاص، ممن اشتهروا بقسوتهم وفظاظتهم ليقتلوا الحسين عليه السلام في المدينة، إذ لا يعرف هؤلاء حرمة لاحد مهما بلغ مقامه، حتى ولو كان ابن رسول الله ﷺ أو كان رسول الله ﷺ. كان يزيد يحاول شد أزر الوليد بن عتبة بأناس موالين له ومعروفين بانحيازهم التام لعائلته أمثال روح بن زنباع الذي بذل جهوداً محمومة لاجبار أهل المدينة على البيعة، والقى فيهم خطباً متشنجة تكاد تشبه السباب والتهديد وقد جاء في احداها:

(أيها الناس، انا لا ندعوكم إلى لخم وجذام وكلب، ولكنا ندعوكم إلى قريش، ومن جعل الله له هذا الامر واختصه به، وهو يزيد بن معاوية. ونحن ابناء الطعن والطاعون وفضالات الموت. وعندنا ان اجبتم واطعتم من المعونة والعائدة ما شئتم، فبايع الناس)[1].

وتبدو المغالطات واضحة في هذه الخطبة التي حشدها بالمفاهيم والمقولات الاموية المضللة، فكأن الامر أمر لخم وجذام وكلب وقريش، وكأن يزيد هو خلاصتها ومن جعل الله له هذا الامر واختصه به دون خلقه اجمعين على حد زعمه. ويبدو ان عمرو بن سعيد ابن العاص الاشدق كان يريد ان يبدو بمظهر مغاير للمظهر الذي بدا عليه الوليد بن عتبة، أراد ان يبدو قوياً صاحب قضية وحق، وربما اراد بملابسه التي ظهر بها امام أهل المدينة على منبر رسول الله ﷺ، ان يجعل من الطاووس الفخور بزينته، والذي مثله خير تمثيل، المؤثر الاول على جمهور المتعجبين الذين حسبهم من المعجبين، والذين ربما رأى بعضهم رسول الله ﷺ بملابسه البسيطة على ذلك المنبر، وهو يلبس لباسهم وبعيش عيشتهم، ويرون الآن ذلك المنتفخ ببردية المعجب بزينته المتشدق بكلامه، وهو يوجه اليهم الاتهام والسباب والتهديد.

ونترك الحديث لابن عائشة يحدثنا عنه عندما قدم المدينة اميراً بعد عزل الوليد.

فخرج إلى منبر رسول الله ﷺ، فقعد عليه وغمض عينيه وعليه جبة خز قرمز،

(١) البيان والتبيين، الجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط ٢ القاهرة مكتبة الخانجي ١٩٦٠ م ج ١ ص ٣٩٢.

ومطرت خز قرمز، وعمامة خز قرمز، فجعل أهل المدينة ينظرون إلى ثيابه اعجاباً بها، ففتح عينيه فاذا الناس ينظرون اليه، فقال:

ما بالكم يا أهل المدينة ترفعون الي ابصاركم، كأنكم تريدون ان تضربونا بسيوفكم؟ أغركم انكم فعلتم ما فعلتم فعفونا عنكم؟ أما انه لو أثبتم بالاولى ما كانت الثانية؛ أغركم أنكم قتلتم عثمان فوافقتم ثائرنا منا رفيقاً، قد فني غضبه وبقي حلمه؟ اغتنموا انفسكم، فقد والله ملكناكم بالشباب المقتبل، البعيد الامل الطويل الاجل، حين فرغ من الصغر، ودخل في الكبر، حليم حديد، لين شديد رقيق كثيف، رفيق عنيف، حين اشتد عظمه. واعتدل جسمه، ورمى الدهر ببصره، واستقبله بأشره، فهوان عض نهس، وان سطا فرس، لا يقلقل له الحصى ولا تقرع له العصا ولا يمشي السهمى)[1].

وقد خطب قبلها في أهل مكة عندما عينه ابوه والياً عليها، وقد هددهم قائلًا:

(يا أهل مكة، انفسكم انفسكم؛ وسفهاءكم سفهاءكم؛ فان معي سوطاً نكالًا وسيفاً وبالًا، وكل منصوب على اهله)[2].

ولم يبق بعد خطبته الاولى تلك في أهل المدينة الا ثلاث سنين وثمانية أشهر حتى قصمه الله[3].

كان عمرو ممثلًا معقولًا ليزيد، وقد ذهب به غروره فيما بعد لادعاء الخلافة لنفسه بعد ان رأى من يساوونه قد احتلوا ذلك النصب امثال يزيد ومروان وعبد الملك.

لقد خرج عمرو هذا في رمضان اميراً على المدينة والموسم، وعزل الوليد بن عتبة، وربما ذهب إلى مكة في اثر الحسين عليه السلام، وقد وصل مكة قبل التروية بيوم، اي قبل عرفة بيومين، وحاول منعه من الخروج إلى العراق وقال:

(اطلبوه، اركبوا كل بعير بين السماء والارض فاطلبوه)[4].

ان ما اكدته الاحداث هو ان الحسين عليه السلام رفض يزيد منذ اللحظة الاولى، وكان من أشد المعارضين لمبايعته، ولم يخرج من المدينة بناء على طلب أهل العراق

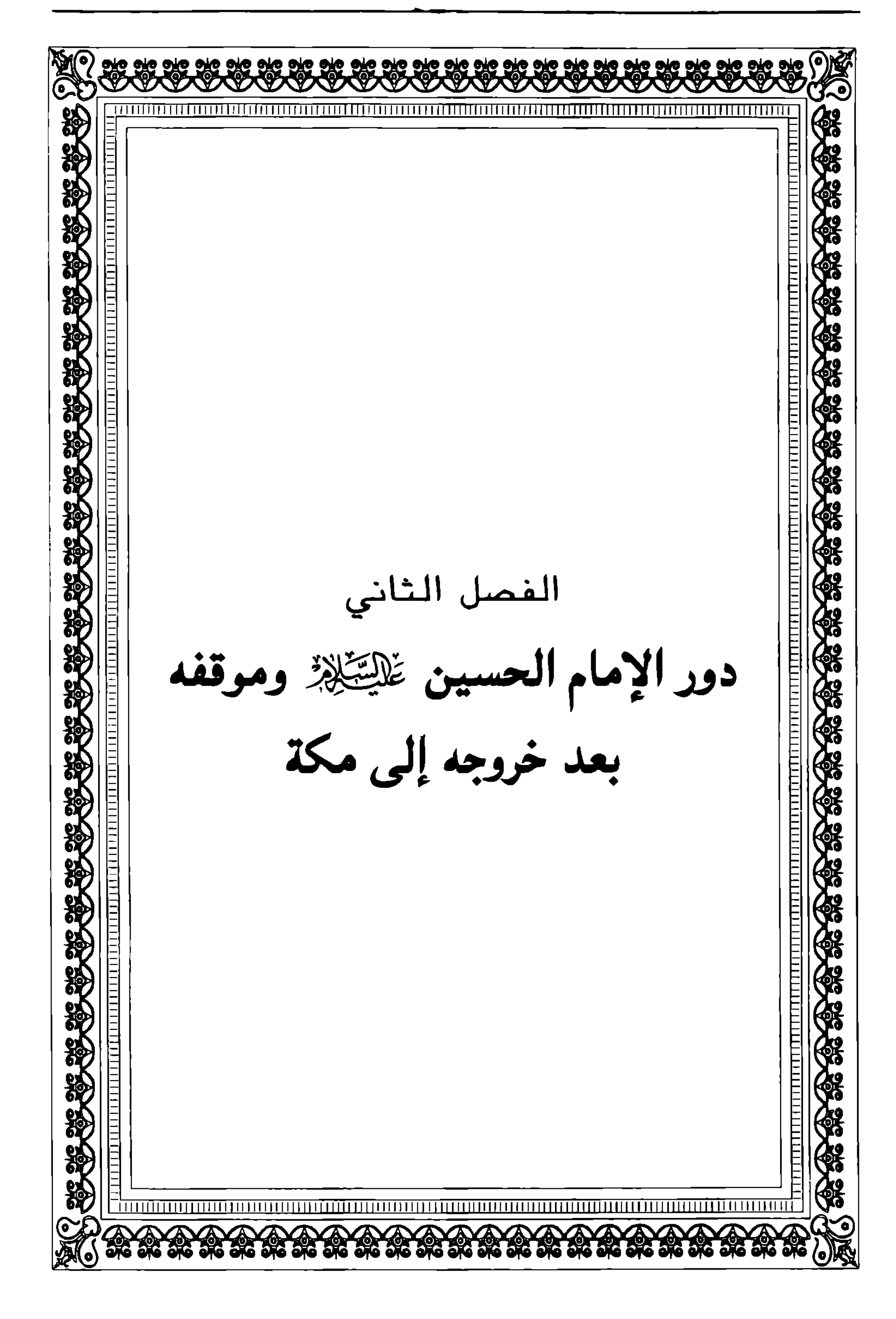
---

(١) - (٣) العقد الفريد ٤/ ٢١٨/ ٢١٩.

(٤) المصدر السابق ٥/ ١٢٦.

الذي وصله متأخراً وعند وجوده في مكة فيما بعد، وهذا وهم ارادت الدعاية الاموية ايقاع الرأي العام المسلم به، لابراز الحسين عليه السلام كطالب حكم ومنافس ليزيد، وحاولت بنفس الوقت التنديد بالحسين عليه السلام لهذا السبب وبأهل العراق لخذلانهم اياه وبوصفهم من (المتقلبين والغادرين) الدائميين الذين لا يؤتمن جانبهم ولا يوثق بهم، وذلك رداً على موقفهم من معاوية واتباعه.

ولهذا بحث منفصل تطرقنا إلى بحث بعض جوانبه، وسنتحدث بعون الله عن جوانبه الاخرى.



الفصل الثاني

دور الإمام الحسين عليه السلام وموقفه بعد خروجه إلى مكة

دور الإمام الحسين عليه السلام وموقفه بعد خروجه إلى مكة

تمهيد

كان وصول الحسين عليه السلام إلى مكة حدثاً فريداً، قلما اتيح لها ان تشهد مثله.

لقد عرفنا مكة، وهي مقر قبلة الله وكعبة المسلمين والموحدين. رأينا مكة القرشية تقف من الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، ابنها وابن سادتها موقف العداء والحرب منذ اعلانه الرسالة على الامة منطلقاً منها. .، وكانت حربها الشرسة عليه مستمرة، لم تقطعها هدنة أو صلح حتى أخرجته. .، ثم حاولت ملاحقته وقتله وشن الحروب عليه بقيادة زعمائها التقليديين ذوي المصالح والتجارات الواسعة، القائمة على الربا والاستغلال امثال ابي سفيان وغيره، واستمرت حروب مكة معه حتى قبل عام واحد من وفاته صلى الله عليه وآله، والتحاقه بالرفيق الاعلى حينما فتحها وادخل اهلها في حظيرة الاسلام، وجعل قريش تنحني صاغرة امام عز هذا الدين الجديد الذي جاء بقيم واهداف وتشريعات جديدة تتقاطع مع قيمها واهدافها وتشريعاتها التجارية المصلحية المستغلة.

على ان مكة عادت بعد الفتح إلى الأسلام، واصبح أهلها أهليه، وعاد البلد الحرام، حرماً آمناً على كل جبار، الّا ان يخرج عن الاسلام علانية.

وفي خضم التيارات والحوادث عرفت مكة من كان ينبغي عليها أن تلتف حوله، غير ان الدولة الاموية التي استمالت أهل الشام منذ البداية، وجعلت من دمشق عاصمة لها، قللت من شأن الحجاز باجمعه، والذي ضم عاصمة الرسول صلى الله عليه وآله ومثواه وانصاره، وكذلك مقر كعبته المشرفة، واهملت المدينتين إهمالاً ذريعاً، أريد للفساد أن ينتشر فيهما بشكل مقصود.

وما جرى في عهدي معاوية ويزيد، كان يبدو وكأنه يشير إلى ان هذين (الخليفتين) ارادا الانتقام من هاتين المدينتين، وتجريدهما من صفة القدسية التي بدتا

بها في نظر المسلمين، وخصوصاً المدينة، حيث تعرضت لغزوات مقصودة من قبل احد قادة معاوية، الذي اهان اهلها وأخذهم بالشدة والعنف . . ، ثم ، غزاها احد قواد يزيد، وكانت له معها واقعة لن تنسى وستظل وصمة عار كبيرة في جبين الحكم الاموي برمته، تضاف إلى الوصمات العديدة التي طبعت دولتهم بطابعها وعارها.

وصول الامام الحسين عليه السلام إلى مكة

وصل الحسين عليه السلام مكة في الثالث من شعبان سنة ستين من الهجرة،وكان كما قلنا قد خرج من المدينة

(ليومين بقيا من رجب سنة ستين من الهجرة)[1].

وقد لزم الطريق الرئيسي الاعظم، وابى عندما قيل له لو تنكبت الطريق، ان يلزم طريقاً جانبية كما فعل ابن الزبير خوف الطلب وقال لابن عمه مسلم ابن عقيل، الذي كان طليعته إلى العراق واول من استشهد من اصحابه فيما بعد:

(لا والله يا ابن عم، لا فارقت هذا الطريق ابداً، أو أنظر إلى أبيات مكة، ويقضي الله في ذلك ما يحب ويرضى)[2].

دلالة تنكب الطريق الاعظم على المنهج الاسلامي في المعارضة والثورة

ويبدو ان الامام عليه السلام كان يريد بخروجه على تلك الصورة الواضحة متنكباً الطريق الاعظم الذي يمر منه آلاف الناس اشعار الامة باستنكاره استلام يزيد مقاليد السلطة ورفضه المعلن لذلك، اذ ان موسم الاشهر المقدسة واقتراب شهر الحج

(١) الطبري ٣/ ٢٧١، وخطط المقريزي ج ٢ ص ٢٨٥. وقد ذكرت بعض كتب التاريخ المختصة بمقتل الحسين عليه السلام مثل الخوارزمي وابن شهراشوب ان خروجه عليه السلام من المدينة كان لثلاث مضين من شعبان، وهو التباس، اذ ان اغلب كتب التاريخ تؤكد على خروجة ليومين بقيا من رجب.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ١/ ١٨٩، النجف وقد روى المفيد في (الارشاد) ص ٢٠٨ إنه قال: (الا والله لا افارقه حتى يقضي الله ما هو قاضٍ). . (. . . ما هو احب اليه) في تاريخ الطبري ٥/ ٣٥١.

يجعل عشرات الالاف من الحجيج يفدون إلى مكة (قبل الموسم بالطبع لبساطة وسائط النقل والمواصلات، وقد يكون ذلك من باب الاحتياط وضماناً لوصولهم قبل الموعد المقرر، خصوصاً وان زيارة مكة قد لا تتاح لمن يقطنون بعيداً عنها الا مرة واحدة في حياتهم).

فهو لم يكن يخاف على حياته شخصياً، بالقدر الذي كان يخاف على مهمته الا تنجز امام سمع المسلمين وبصرهم وفي وضح النهار، لكي يفكروا فيها بشكل جديد ويتراجعوا عن الموقف الذي استدرجوا إليه بفعل تدابير معاوية الشيطانية.

ومن هنا نرى ان كثيراً من تدابيره ومواقفه عليه السلام تستهدف اشعار اكبر عدد من الناس بطبيعة المهمة الدقيقة التي كان ينوي القيام بها رغم ما قد يتعرض له من موت محقق اشار اليه اكثر من مرة خلال لقاءاته وخطبه واحاديثه وردوده على من نصحه بالعودة، أو عدم الذهاب إلى العراق فيما بعد.

وقبيل دخوله مكة، وعندما تراءت له جبالها اخذ يردد قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[1].

وقد استقبل في مكة استقبالًا منقطع النظير، فقد كانت الامة ترصد حركاته لتتخذ الموقف المناسب على ضوئه، وان كانت قراراتها بطيئة ومائعة ومتذبذبة بفعل ارهاب السلطة واعتياد الناس على الاستسلام والهزيمة والمساومة.

وقد لقيه، وهو في الطريق إلى مكة عبد الله بن مطيع العدوي وأشار عليه ان لا يذهب إلى العراق، اذا ما عزم السير في قضيته إلى النهاية وقال له:

(فاذا اتيت مكة فاياك ان تقرب الكوفة فأنها مشؤومة بها قتل ابوك وخذل اخوك، واعتل بطعنة كادت تأتي على نفسه، الزم الحرم فانك سيد العرب، لا تعدل بك أهل الحجاز احداً، ويتداعى اليك الناس من كل جانب لا تفارق الحرم فداك عمي وخالي فوالله لئن هلكت لنسترقن بعدك)[2].

---

(١) القصص: الآية ٢٢.

(٢) ابن الاثير ٣/ ٣٨١، ونهاية الارب في فنون الادب للنويري. ٢ ص ٣٨٤ القاهرة. والطبري ٥/ ٣٥١ ط دار المعارف القاهرة.

ان المخاوف من العراق كانت مخاوف مبررة، تدعمها تجارب سابقة اشارت إلى خذلان اهلها أمير المؤمنين عليه السلام الذي اراد ان يجعلهم طليعة لجيل جديد من الامة يربيه ويعده كما ربى وأعد رسول الله صلى الله عليه وآله جيل الصحابة الاوائل، وخذلان الامام الحسن عليه السلام من بعده، لان مجتمع العراق كان مجتمعاً مستهدفاً من قبل معاوية، الذي اراد ان يجعله شبح مجتمع، فعمل على تمزيقه واثارة الخلافات والمخاوف بين ابنائه، واضطهدهم وعاملهم معاملة سيئة باعتبار انه كان من اشد المجتمعات عداوة له.

واذ يخضع ذلك المجتمع، ويستسلم في الظاهر، فانه سرعان ما يقوم بوجه السلطة عند ظهور أدنى بادرة يرى انه قادر فيها على كسر طوق الخوف والذل، وتلمس الطريق الذي رسمه له أمير المؤمنين عليه السلام من قبل، والذي ظل يحتفظ له باجمل الصور واجمل الذكريات التي عاشها في ظل دولة العدل والحرية والامان التي اقامها عليه السلام وجعل عاصمتها الكوفة. فالسيف الاموي لم يزل فوق الرقاب. والخزينة الاموية لم تزل مع عمال الدولة يستميلون بها الناس، والمتملقون من رؤساء القبائل وغيرهم يرون ان مصالحهم رهينة ببقاء هذه الدولة المتسلطة.

وهذا ما اخاف من تقدموا بنصيحتهم إلى الامام عليه السلام بعدم الذهاب إلى الكوفة اذا ما اختار مكاناً لاعلان ثورته على النظام الجائر، وقد شكر الامام عليه السلام ابن مطيع على (نصيحته) التي تكررت فيما بعد من اناس آخرين، طلبوا منه عدم الذهاب إلى العراق، غير ان القرار الذي اتخذه عليه السلام فيما بعد وعلى ضوء طلب أهل الكوفة لقدومه عليهم كان يبدو انه قرار نهائي لا رجعة فيه، رغم ما لاح امامه من مخاطر عديدة في مقدمتها خطر الموت، الذي اشار عليه السلام اليه عدة مرات انه نازل به لا محالة، وفي تصريحاته هذه التي سبقت واقعة الطف، والتي بدات منذ رفضه اقرار بيعة يزيد وتسلمه السلطة، ومنذ ان كان الامام عليه السلام في المدينة مجال لتأملات عديدة.

إذ ما الذي يدعوه لخوض معركة يعلم إنه مقتول فيها في النهاية.

وهذا ما ينبغي لنا تبينه ودراسته، وسنحاول ذلك بعون الله.

مكة تستقبل ابنها البار وأملها

استقبلته مكة استقبالًا حافلًا واحتفت به ورحبت بمقدمه، فلم تجد في عهده من هو أفضل منه.

(فعكف الناس على الحسين يفدون اليه ويقدمون عليه، ويجلسون حواليه، ويستمعون كلامه، حين سمعوا بموت معاوية وخلافة يزيد)(١).

(بل الناس انما ميلهم إلى الحسين لانه السيد الكبير وابن بنت رسول الله ﷺ، فليس على وجه الارض أحد يساميه ولا يساويه، ولكن الدولة اليزيدية كانت كلها تناوئه)(٢).

(واقبل أهل مكة ومن كان بها من المعتمرين واهل الافاق يختلفون اليه ويغدون عليه)(٣).

ومن الطبيعي ان وجوده في مكة لن يكون امراً مرغوباً فيه من قبل هذه الدولة، التي احتملت الخطر منه كما احتملته عندما كان موجوداً في المدينة. ولو انه بقي في مكة لحشدت قواها وجيوشها لأخراجه أو قتله حتى ولو كان عائذاً بالبيت الحرام، كما فعل بعد ذلك بابن الزبير وغيره.

النظرة الأموية إلى حرمة الكعبة ومكانتها

وكانت قداسة البيت وحرمته لا تقف مانعاً امام من لم يعرفوا قداسة للاسلام أو الرسول ﷺ، وربما كانوا يتمنون ان تتاح لهم الفرصة (المناسبة) لكي (يثبتوا) للناس ان ما اعتقدوا بقداسته باطل.

ولم تكن مكة أو البيت الحرام سوى مركز من مراكز الربح والتجارة بنظر اسلاف اولئك الذين استباحوا حرمة الكعبة فيما بعد، ولم يكن بامكان أي من الناس ان يقنعهم بعدم صواب رأيهم ذاك.

(١) و(٢) ابن كثير، البداية والنهاية م ٤ ج ٨ ص ١٥٣/ ١٥٤.
(٣) الفصول المهمة، ابن الصباغ المالكي ص ١٧٠ ووسيلة المال فى عد مناقب الآل ص ١٨٥ وقد اورد ابن الاثير نصاً ذكر فيه ان شخصية ابن الزبير قد تضاءلت امام شخصيته عليه السلام إلى درجة انه لم يكن يطمح بمبايعة الناس له ما دام الحسين عليه السلام موجوداً في مكة (... فأقبل [الحسين] حتى نزل مكة واهلها يختلفون اليه ويأتونه، ومن بها من المعتمرين واهل الافاق، وابن الزبير بها قد لزم جانب الكعبة فهو قائم يصلي عندها عامة النهار، ويطوف ويأتي الحسين فيمن يأتيه ولا يزال يشير عليه بالرأي وهو اثقل من خلف الله على ابن الزبير لان أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين باقياً بالبلد)، ابن الاثير ٣/ ٣٨٩.

وقد لا تكون الكعبة بنظرهم ايضاً سوى احجار واعواد صماء، كما عبر عن ذلك صراحة فيما بعد أحد اقطاب حكمهم، الحجاج بن يوسف الثقفي، الجلاد الذي سلطوه على العراق، وقام هو نفسه بضرب الكعبة بالمنجنيق واستباحها وقتل بعض من كانوا يلوذون بها.

حرص الامام الحسين عليه السلام على الكعبة وقداستها

ولم يكن الحسين عليه السلام يرغب في ان يغير الصورة الجميلة للمدينة المقدسة في اذهان المسلمين، ولم يكن يريد لأحد ان يستحل حرمة مكة، حتى ولو كان ذلك يشكل املًا وحيداً لانقاذ حياته، اذ ان ذلك يجعلها عرضة لكل غشوم على مر الايام.

ان بقاءه في مكة قد يكون عملًا سلبياً نتج عن مجرد رفضه مبايعة يزيد، وليس عملًا ايجابياً ناتجاً عن ارادة التغيير والقيام بفعل حقيقي يسعى فيه للاطاحة بالحكم الاموي من خلال سعيه لتعبئة ابناء الامة لكي تقوم بعمل عسكري ينهي فترة الظلام الاموية الرهيبة. وهكذا جاء رده لابن عباس ولكل من نصحوه بالبقاء في مكة وعدم الخروج منها:

(. . . لأن اقتل والله بمكان كذا أحب الي من ان أستحل بمكة)[1].

وقال لابن الزبير:

(ان ابي حدثني ان بها كبشاً يستحل حرمتها، فما احب ان اكون انا ذلك الكبش)[2].

وقال للناس اثر مسارة ابن الزبير له:

(والله لأن اقتل خارجاً منها بشبر احب الي من ان اقتل داخلًا منها بشبر)[3].

كان يريد ان تظل لمكة حرمتها وان تظل للبيت العتيق مكانته، والا يستحلا بسببه، اذ انهما اذا ما استحلا مرة فسيكون ذلك سبباً لاستحلالهما إلى الابد، وستفقدان بعض قداستهما بنظر المسلمين، لتكون الكعبة مجرد احجار صماء وعيدان كما قال الحجاج الثقفي، وان من يملك القوة على اعادة بناء الاحجار، يستطيع

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٦٩.

(٢) و(٣) الطبري ٣/ ٢٩٥- ٢٩٦ وابن الاثير ٣/ ٤٠٠.

تهديمها فهي ليست سوى بناية عادية[١]، لا تشكل اية قيمة بنظر الامويين البعيدين عن الاسلام، الا قيمة الاحجار التي بنيت بها، كما رأينا في وصية مسلم بن عقبة المري لخليفته الحصين بن نمير.

كان الاقدام على غزو الكعبة احد ردود الفعل لدى اعوان السلطة الاموية عندما شعروا ان هناك من يناؤهم ويخرج على سلطانهم، فقد.

(بعث إلى عبد الله بن الزبير عمرو بن سعيد فقال له أبو شريح لا تغز مكة فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انما اذن الله لي في القتال بمكة ساعة من نهار ثم عادت كحرمتها» فابى عمرو ان يسمع قوله، وقال: نحن اعلم بحرمتها منك ايها الشيخ، فبعث عمرو جيشاً (مع عمرو بن الزبير)[٢].

لقد رفض عمرو الاستماع إلى ابي شريح، رغم انه قد سمع مقالة الرسول ﷺ التي بلغه اياها من سمعها منه امام ملإ من المسلمين، ولم يكن ما قاله الرسول ﷺ وخطبته مما يخفى على المسلمين، غير ان مصالح الدولة المنحرفة كانت بنظر اعوانها فوق كل شيء.

روى ابو شريح الخزاعي قال:

(لما قدم عمرو بن الزبير مكة لقتال اخيه عبد الله بن الزبير، جئته فقلت له: يا هذا انا كنا مع رسول الله ﷺ حين افتتح مكة، فلما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة على رجل من هديل فقتلوه فقام رسول الله ﷺ فينا خطيباً، فقال: «يا أيها الناس، ان الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة، فلايحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسفك فيها دماً ولا يعضد فيها شجراً، لم تحلل لأحد كان قبلي، ولا تحل لاحد يكون بعدي، ولم تحلل لي الا هذه الساعة، غضباً على اهلها. ألا ثم قد رجعت كحرمتها بالامس، فليبلغ الشاهد منكم

---

(١) كما قال مسلم بن عقبة للحصين بن نمير وهو يأمره بغزو مكة (. . . فانصب عليه المجانيق، فان عاذوا بالبيت فارمه فما اقدرك على بنائه) انساب الاشراف للبلاذري ج ٤ ق ٤٥٢ وقد وردت هذه الوصية في العديد من كتب التاريخ الاخرى مثل الامامة والسياسة ج ١ ٣٤٥/ ٣٤٦ وتاريخ اليعقوبي ص ٢٥١ ووفيات الاعيان ٥/ ٣٢٠ والطبري ٤/ ٣٨١-٣٨٢ مع بعض الاختلافات اليسيرة في النصوص.

(٢) الطبري ٣/ ٢٧٤ وابن الاثير ٣/ ٣٨٠.

الغائب. فمن قال لكم: ان رسول الله قد قاتل فيها، فقولوا: ان الله قد احلها لرسوله، ولم يحللها لكم، فقال عمرو لابي شريح: انصرف ايها الشيخ، فنحن أعلم بحرمتها منك، انها لا تمنع سافك دم، ولا خالع طاعة، ولا مانع جزية، فقال ابو شريح: اني كنت شاهداً وكنت غائباً. ولقد امرنا رسول الله صلى الله عليه وآله ان يبلغ شاهدنا غائبنا، وقد ابلغتك فأنت وشأنك[1].

ونرى هنا ان عمرو لم يستجب لأمر الرسول صلى الله عليه وآله، وكانت مصلحة الدولة برأيه فوق اقوال الرسول صلى الله عليه وآله ما دامت تلك الاقوال تتعارض مع تلك المصالح.

نشاطات الحسين عليه السلام في مكة تثير السلطات الأموية

نزل الحسين عليه السلام في دار العباس بن عبد المطلب، وقيل في شعب علي، ومهما يكن من امر فقد كانت مكة كلها داره، وكان يقضي جل اوقاته في بيت الله العتيق موجهاً الناس إلى ما ينبغي فعله لمواجهة المؤامرة التي كانوا يتعرضون لها، والتي بلغت فصلها الاخير.

وقد اثار ذلك حفيظة ممثل السلطة في مكة عمرو بن سعيد، فكتب إلى يزيد بامره وكيف ان الناس كانت تجتمع اليه وتلتف حوله محرضاً اياه على اتخاذ الاجراءات الكفيلة بمنعه ولو كان ذلك بقتله عليه السلام.

ان تسلسل الحوادث يشير إلى ان يزيد لم يؤمر عمرو بن سعيد الاشدق على المدينة ومكة بعد ذلك الا بعد ان يئس من استجابة الوليد بن عتبة لتنفيذ كل اوامره، وان ايفاده عمرو بن سعيد اميراً على الحاج ربما كان قبل فترة قليلة من خروج الامام عليه السلام من مكة، لغرض منعه عليه السلام من الاتصال بمؤيديه أو القيام بأي عمل من شأنه ان يطيح بالدولة الاموية أو يسبب لها اية مشاكل أو صعوبات.

يزيد يحاول اغتيال الحسين عليه السلام في مكة

ويبدو ان الاخبار كانت تصل يزيد قبل ان يعين عمرو الاشدق اميراً على الحاج، وأنه عينه بناء على تلك الاخبار التي وصلته.

---

(١) السيرة النبوية، (ابن هشام، ق ٢، ج ٣/ ٤. ص ٤١٥-٤١٦.

(٢) ترجمة الحسين عليه السلام من تاريخ دمشق لابن عساكر ص ٢٠٠ ط بيروت.

(٣) الدينوري، الاخبار الطوال ص ٢٠٩.

(وبلغ الحسين عليه السلام ان يزيد بن معاوية أنفذ عمرو بن سعيد بن العاص الاشدق الفاتك الجبار في عسكر عظيم، وأمره على الحاج، وولاه امر الموسم، وأوصاه بقبض الحسين سراً، وان لم يتمكن منه بقتله غيلة، وأمره أن يناجز الحسين القتال، إن هو ناجزه، ودس مع الحاج ثلاثين رجلًا من شياطين بني امية وأمرهم ياغتيال الحسين، ولو كان متعلقاً باستار الكعبة)[1].

كان الامام عليه السلام معرضاً للقتل والاغتيال في مكة، كما كان حاله في المدينة بالضبط اذ لم يكن الحكم الاموي بقيادة يزيد يتحرج من اتخاذ اي موقف ضده أو ضد اي معارض آخر، وكانت الترتيبات تجري فعلًا بهذا الاتجاه لو لم يسارع الامام بالخروج من مكة.

وبعد أن (طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة، وأحل من احرامه، وجعلها عمرة مفردة، لانه لم يتمكن من اتمام الحج، مخافة ان يقبض عليه في مكة، فتستباح به حرمة البيت الحرام)[2].

وقد قال عليه السلام لمن سأله:

(ما أعجلك عن الحج؟: لو لم اعجل لأخذت)[3].

وكان موقف الامام عليه السلام دقيقاً وحرجاً، وهذا ما ينبغي ان يفهمه كل دارس عن اسباب ثورته وخروجه من مكة بتلك السرعة المفاجئة التي لم يتوقعها الكثيرون منهم ابن الزبير وعمرو بن سعيد الذي ما كان ليتورع عن منعه لو كان له علم مسبق بخروجه.

وسيتبين لنا من اجوبته للمعارضين و (الناصحين) بعدم الخروج السبب الحقيقي الذي كان وراء ذلك، وهي اسباب لا يستطيع فهمها الا من يفهم الاسلام حقاً

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام السيد محمد تقي آل بحر العلوم، بيروت ط ١/ ١٩٧٨ ص ١٥٣، نقلًا عن مثير الاحزان لابن نما ص ٨٩، واللهوف لابن طاوس ص ٢٦ ط النجف، وينابيع المودة للقندوزي، باب ٦١.

(٢) الطبري ٥/ ٢٨٥ ط ١ دار المعارف والاسناد للمفيد ط ايران ص ٢٢٨ ومقتل الخوارزمي ج١ ف ١١.

(٣) الطبري ٣/ ٢٩٦ ط دار المكتبة العلمية/ لبنان.

ويفهم العقلية التي حملها الامام عليه السلام ، والتي كانت نسخة من عقلية جده رسول الله صلى الله عليه وآله وابيه أمير المؤمنين عليه السلام .

أما الذي يناقش الامور والاحداث بعقلية معاوية الانتهازية المصلحية، أو بعقلية رجل الدولة الجاهلية، فانه سيتيه في حيرته ولن يجد سبباً مقنعاً لذلك الخروج وطريقته واسلوبه. ولكنها على اية حال اسباب مقنعة بنظره عليه السلام ، ولو لم تكن كذلك لما اقدم على مناوئة الدولة القوية وتحديها إلى درجة اعلان الحرب عليها، واذا ما فهمنا ان حرصه على الاسلام كان الدافع الاول وراء ذلك، ادركنا إلى اي حد كان علينا ان نقدر تلك الخطوة الفدائية الجادة التي جاءت في الوقت المناسب، وكيف ان كل المسلمين مدينون لذلك الجهد الخارق الذي بذله امام الامة من اجل انقاذ الامة.

ومن هنا جاء تقدير واعجاب العديدين، حتى من اولئك لم يحملوا الفكر الاسلامي اساساً وكانوا منتمين إلى ديانات اخرى، فقد هزهم ذلك الالتصاق الكبير بالمبادىء والقيم التي حملها عليه السلام ، وذهب في سبيل نشرها واحيائها وانقاذها إلى حد الاستشهاد والتضحية بنفسه وخيرة شباب عائلته واصحابه.

استنفار الدولة الأموية لمنع الإمام الحسين عليه السلام من اعلان الثورة والخروج إلى العراق

كانت محاولات الدولة الاموية بمجموعها منصبة على منع الامام الحسين عليه السلام من اعلان ثورته ومسيره المحتمل إلى العراق، مع انه كما اشرنا لم يعلن عزمه على ذلك المسير، الا بعد ان وردته مئات الكتب من اهلها تؤكد رغبتهم بالقدوم عليهم وقيادتهم للاطاحة بالحكم الاموي، وبعد ان تيقن من صدق بعض أو معظم تلك الدعوات[1].

وكان ذلك بعد حوالي شهرين من قدومه إلى مكة اي بعد انتهاء النصف الاول من اقامته فيها، لكي تتاح لاهل الكوفة فرصة سماع رفض الحسين للبيعة والاجتماع واتخاذ القرار المؤيد لقرار الامام عليه السلام ومراسلته والوصول اليه، ثم لكي تتجمع

---

(١) وبالتأكيد فان معظم تلك الدعوات كان صادقة وقد التف اصحابها حول مبعوث الامام، مسلم بن عقيل، الا ان مساعي مسلم احبطت نتيجة الخطة المحكمة التي اتبعها ابن زياد بالتعاون من بعض شيوخ الكوفة ورؤسائها واشرافها.

رسائلهم وتدرس من قبله، وهذا بالتأكيد يحتاج إلى فترة مناسبة قد تمتد إلى اكثر من شهرين، وهذا ما حصل بالضبط كما اكدت لنا كتب التاريخ.

ولا شك ان عيون الدولة ومخبريها قد زودوها بتحركات الامام عليه السلام والتي لم تكن خافية باية حال من الاحوال لان الامام اراد لها ان تتخذ موقفاً معلناً لكي تدرك الامة طبيعتها واهدافها، وهي طبيعة دقيقة لا بد ان تتحسسها، لكي تنسجم معها وتلتحق بركب الثورة.

ويبدو ان عمرو بن سعيد الاشدق كان من اشد المتحمسين للقضاء على خطط الامام الحسين عليه السلام وافشالها، وكان يراقب تحركاته واتصالاته، وبلغ الامر انه حاول اغتياله ثم منعه بعد ان لم يتح له ذلك، وقد كتب إلى يزيد يعلمه كيف ان الحسين عليه السلام قد استقطب الناس من المعتمرين من ابناء البلاد الاسلامية، وكيف انهم كانوا يختلفون اليه ويجتمعون به، ولم يخف على يزيد المركز الذي كان يتمتع به الامام عليه السلام لدى الامة وقوة موقفه بمواجهة انحرافه المعلن وامكانية الاطاحة بحكمه الفاسد، وهو ما بدا محتملًا، وبدا امراً مخيفاً وداعياً للقلق الشديد، واذا ما علمنا ان اعوان الدولة قد بدأوا يحسون بقرب نهايتهم امام الثورة الشعبية المحتملة بقيادة الامام عليه السلام، والتي تمتلك قضية عادلة واضحة، وانها ستقضي على كل الامتيازات التي كرسوا لها حياتهم، بل وكرس لها حتى آباؤهم من قبل حياتهم ووقتهم، فانهم رأوا ان يجعلوا من قضية الالتفاف حول يزيد وحكمه قضية بمواجهة قضية الامام عليه السلام، التي اراد فيها اعادة المسلمين إلى الخط الاول الذي رسمه رسول الله صلى الله عليه وآله.

وبدا ان اعوان الدولة قد استنفروا كل امكاناتهم لايقاف مسيرة الحسين عليه السلام واحتجازه في مكة والقضاء عليه هناك، اذ ان مجرد وجوده كان خطراً محتماً عليهم، وقد ادركوا ان خطه بشكل عام لا يمكن ان يوازي خط دولتهم المنحرفة، واذا ما اخذوا احتمالات المستقبل بعين الاعتبار، وتبنوا امراً سياسياً تقوم عليه سياستهم وهو الاخذ على الظن والشبهة، فانهم رأوا ان خير اجراء يمكن ان يتخذوه هو ايقاف الثورة منذ البداية، ومنع الامام عليه السلام من اي تحرك واجباره على البيعة أو حجزه واعلام الامة (كذباً) انه بايع، كما فعل معاوية مع النفر الذين احتجزهم في المدينة تحت التهديد واعلم الناس انهم بايعوا، ولم تكن امثال هذه الوسائل الملتوية مما يعوز الدولة القائمة على المكر والخديعة والدس.

يزيد يكشف خطورة الموقف فيراسل ابن عباس
محاولة أخيرة لاستمالة الحسين عليه السلام بالرشوة

وقد ارتبك يزيد عندما ادرك خطورة الموقف الملتهب في مكة، والذي قد يمتد حتى إلى الشام نفسها، فكتب إلى عبد الله بن العباس رسالة يشكو له فيها من الحسين عليه السلام، ويتهدد ويعد بتقديم رشوة كبيرة للامام عليه السلام اذا ما تخلى عن موقفه الرافض له، ووضع يده في يده، واستسلم كما استسلم بقية ابناء الامة، وقدجاء فيها:

(اما بعد، فان ابن عمك حسيناً وعدو الله ابن الزبير التويا ببيعتي ولحقا بمكة، مرصدين للفتنة، معرضين انفسهما للهلكة.

اما ابن الزبير فانه صريع الفناء وقتيل الاعداء غداً.

واما الحسين، فقد احببت الاعذار اليكم أهل البيت مما كان منه، وقد بلغني ان رجالًا من شيعته من أهل العراق يكاتبونه ويكاتبهم، ويمنونه الخلافة ويمنيهم الامرة، وقد تعلمون ما بيني وبينكم من الوصلة وعظيم الحرمة، ونتائج الارحام، وقد قطع ذلك الحسين وبتر، وانت زعيم أهل بيتك، وسيد بلادك، فالقه فاردده عن السعي في الفتنة، فان قبل منك وأناب فله عندي الامان والكرامة الواسعة، واجري عليه ما كان ابي يجريه على اخيه، وان طلب الزيادة فاضمن له ما اديك، وانفذ ضمانك، واقوم له بذلك وله علي الايمان المغلظة، والمواثيق المؤكدة بما تطمئن به نفسه، ويعتمد في كل الامور عليه، عجل بجواب كتابي، وبكل حاجة لك قبلي)[1].

---

(١) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ط النجف ٢٣٨/ ٢٣٩ وتاريخ ابن عساكر ١٣/ ٧٠ وترجمة الحسين عن تاريخ دمشق ط بيروت ص ٢٠٤ وقد ذكر ان يزيد ذيل الرسالة بابيات من الشعر، منها:

يا أيها الراكب الغادي مطيته	على عذافرة في سيرها قحم
أبلغ قريشاً على نأي المزار بها	بيني وبين حسين الله والرحم
وموقف بفناء البيت أنشده	عهد الاله وما توفى به الذمم
هنيتم قومكم فخراً بأمكم	أم لعمري حصان عفة كرم
هي التي لا يداني فضلها احد	بنت الرسول وكل الناس قد علموا
وفضلها لكم فضل وغيركم	من قومكم لهم في فضلها قسم
إني لأعلم أو ظناً كعالمه	والظن يصدق احياناً فينتظم =

ويبدو ان هذه الرسالة اذا ما صحت قد ارسلت إلى ابن عباس في المدينة، لحثه على منع الحسين عليه السلام من الثورة والخروج إلى العراق، وقد رأينا من سياق الاحداث ان ابن عباس وابن عمر لقيا الحسين عليه السلام وهو في طريقه إلى مكة وهما في طريقهما إلى المدينة، اما اللقاء الثاني فكان قبيل مخرج الحسين إلى العراق.

ولعل يزيد قد حسب ان الرشوة والاغراءات من شأنها ان تضمن استجابة الجميع له، بما فيهم الحسين عليه السلام، ومن هنا كان تأكيده في الرسالة بشكل ملح ومحموم على تقديم كل ما قد يرغب فيه، وربما حسب في سياق الوهم الذي جره اليه ابوه واقتنع به هو ان خروج الحسين عليه السلام كان بدوافع ذاتية بحتة، منها المنافسة ومنها الاستجابة السريعة لرسائل أهل العراق كما اوضحنا من قبل، ولم يحسب حساب الدوافع الحقيقية وراء ذلك، والتي لا يتمكن الحسين عليه السلام معها من التخلي عما أزمع القيام به.

ويراد ان يشار هنا إلى ان كاتب الرسالة يتمتع بقدر من الحصافة وسعة البال والعقل، وانه يلقي الحجة على (عدوه) ويحذره مغبة الاقدام على مناوئته، وهو الامر الذي اضافه بعض الكتاب الموالين للدولة الاموية إلى (رصيد) يزيد، وقالوا انه لم يقدم على خطوته بقتل الحسين عليه السلام واصحابه الا بعد أن أنذر اليهم كما فعل بالضبط بعد ذلك مع أهل المدينة.

وهنا لنا وقفة بسيطة معهم: هل وعد يزيد بالتراجع عن مواقفه وسلوكه في هذه الرسالة وفي رسالته إلى أهل المدينة بعد ذلك؟ ام انه طلب عدم التصدي له وحربه وحسب؟ وهل ان طلبه كان (حجة) لايقاف الحسين عليه السلام، لكي يكون خروجه وثورته بعد ذلك غير مشروع ولا مبرر بنظر هؤلاء، ما دام (ولي الامر) ولياً للأمر حقاً؟ وهل كان يزيد يتمتع بالشرعية التي تتيح له الجلوس على كرسي الخلافة اصلًا، لكي يكون امره مطاعاً، وحجته بالغة على جميع الناس؟

ومهما يكن من أمر، ومهما بدا يزيد عاقلًا حصيفا بنظر اولئك المعجبين، فان

= أن سوف يترككم ما تدعون به ... قتلى تهاداكم العقبان والرخم
ياقومنا لا تشبوا الحرب ان سكنت ... وأمسكوابحبال الله واعتصموا
قد غرت الحرب من قد كان قبلكم ... من القرون وقد بادت بها الامم
فأنصفواقومكم لاتهلكواً بذخاً ... فرب ذي بذخ زلت به القدم

تلك الرسالة لم تكن سوى محاولة لكسب واستمالة الحسين عليه السلام، ولعلها كانت تنبع من مخاوف حقيقية من عواقب الثورة، ولعل يزيد كان صادقا بوعوده التي بذلها برسالته، فاستجابة الحسين عليه السلام له، كانت تمثل حلما من احلامه البعيدة، اذ انها ستكون حقاً الزينة الفريدة التي سيزين بها عرشه، ويتيح له ان يتبجح امام الامة بانه الخليفة الشرعي حقاً، ما دام الحسين عليه السلام قد وضع يده في يده ورضي ان يخضع لحكمه ويعيش في ظله، ولن يهمه عندها ما يعطيه وما يبذل له.

رد ابن عباس على رسالة يزيد استهزاء بيزيد، الفاسق وكسب الوقت لاستكمال خطوات الثورة

وقد رد ابن عباس على رسالة يزيد قائلًا:

(أما بعد فقد ورد كتابك تذكر فيه لحاق الحسين وابن الزبير بمكة. فاما ابن الزبير فرجل منقطع عنا برأيه وهواه، يكاتمنا مع ذلك اضغاناً يسرها في صدره، يوري علينا وري الزناد، لا فك الله اسيرها فارء في امره ما انت راء.

واما الحسين فانه لما نزل مكة وترك حرم جده ومنازل آبائه، سألته عن مقدمه، فأخبرني ان عمالًا لك بالمدينة أساؤوا اليه، وعجلوا عليه بالكلام الفاحش، فأقبل إلى حرم الله مستجيراً به، وسألقاه فيما اشرت اليه، ولن أدع النصيحة فيما يجمع الله به الكلمة، ويطفىء به النائرة، ويخمد به الفتنة، ويحقن به دماء الامة.

فاتق الله في السر والعلانية، ولا تبيتن ليلة، وانت ترصد لمسلم غائلة، ولا ترصده بمظلمة، ولا تحفر له (مهراة)، فكم من حافر لغيره حفرة وقع فيه. وكم من مؤمل املًا يؤت أمله. وخذ حظك من تلاوة القرآن. ونشر السنة وعليك بالصيام والقيام، لا تشغلك عنهما ملاهي الدنيا وأباطيلها. فان كل ما اشتغلت به عن الله يضر ويفنى، وكل ما اشتغلت به من اسباب الآخرة ينفع ويبقى)[1].

وقد اوضح ابن عباس في رسالته إلى يزيد، هذه جملة امور منها:

١- لم يكن الموقف الذي اتخذه الامام الحسين عليه السلام نتيجة تدبير مسبق مع ابن الزبير بل انهما لا يلتقيان بالرأي والهدف من وراء خروجهما عليه، كما انهما لم

(١) نفس المصادر السابقة.

يكونا على وفاق دائماً وان ابن الزبير كان ممن يكنون العداوة للامام وآل البيت عليهم السلام،

٢- في الرسالة اشارة واضحة لموقف مروان وبعض اعوان السلطة في المدينة من الامام الحسين عليه السلام حيث ضايقوه والحوا عليه بمبايعة يزيد، وتهددوه بالقتل ان لم يستجب لذلك حالًا دون ان يمنحوه مجالًا للتفكير والتدبر.

٣- في الرسالة محاولة واضحة لكسب الوقت ريثما يتخذ الامام قراره النهائي ويعد عدته للخروج، وفيها وعد بازجاء النصيحة فيما يجمع الله به الكلمة، الخ ولعل يزيد هنا معني بالنصيحة اكثر من غيره، وهو ما فعله ابن عباس حيث اشار عليه بجملة امور لا تعدو الالتزام بابسط قواعد الاسلام وبنوده وشعائره وتشريعاته، فهو يدعو يزيد للعودة إلى الاسلام.

وهو امر لا نعتقد ان ابن عباس كان قادراً على جعل يزيد ملتزماً به، بعد ان حرص معاوية تحت وطأة شعوره بضرورة تحسين صورة يزيد بنظر الامة، على دفعه اليه في السابق، وفشل في تحقيقه مع ذلك.

ان الذي القى الحجة حقاً هو ابن عباس على يزيد، لا يزيد على ابن عباس أو على الحسين عليه السلام اذ ما معنى هذه الاشارات التي وردت في الرسالة عن ضرورة التمسك بتلاوة القرآن والسنة والصيام والقيام والابتعاد عن الغدر والظلم والملاهي والاباطيل وما يشتغل به عن الله، اترى أنه كان يشير عليه بها لو انه كان متمسكاً بها فعلًا؟ ولماذا اوردها برسالته تلك خاصة؟ ولم يكتف بالاجابة عن اسئلته وما ورد في رسالته إليه؟

ويبدو ان ابن عباس قد التقى بالامام عليه السلام قبيل ارسال رده ليزيد، وقد بذل بعد ذلك جهوداً حثيثة لمنع الامام من الذهاب إلى العراق، مدركاً ان يزيد ما كان ليتوانى عن اتخاذ اشد الاساليب بطشاً ودموية في سبيل قمع معارضيه مهما كان مركزهم من الأمة، ولعله في حالة الامام الحسين عليه السلام سيجعل من ذلك ذريعة للتعبير عن كرهه وحقده عليهم، والذي اتخذ صوراً واشكالًا مختلفة منذ بداية عهد أبيه، وربما قبل ذلك، كما اشرنا إلى ذلك بوضوح.

لقد كان يريد تجنيبه وعائلته واصحابه المصير المؤلم، مدركاً ان يزيد سيتمادى في الاستخفاف بدماء ابناء الامة ومقدراتها اذا ما استخف بحرمة اقدس انسان فيها،

وهو الحسين بن رسول الله صلى الله عليه وآله ومن شهد له ولأخيه بالامامة والجنة، وقد التقى به فيما بعد وقبيل مغادرته مكة وبذل جهودا كبيرة لمنعه من المسير إلى العراق.

بين الحسين عليه السلام وابن الزبير

اختلاف المقومات الشخصية ودوافع الثورة

لقد رأينا ان ابن الزبير كان ممن لم يبايعوا ليزيد، غير ان مكانة ابن الزبير لدى المسلمين في مكة وغيرها لم تكن لتصل بأي حال من الاحوال إلى مكانة الحسين عليه السلام لديهم، اذ لم تكن دوافعه كدوافع الحسين عليه السلام، ولم يكن يتمتع بما كان يتمتع به عليه السلام من صفات فريدة.

فكان ابن الزبير يرى فيه منافساً كبيراً جديراً بأن يجعله بعيداً عن دائرة الضوء، وبعيداً عن اهتمام المسلمين اذا ما مكث معه في مكة واقام بها.

وهكذا فقد كان الامام الحسين عليه السلام.

(أثقل الناس عليه، قد غمه مكانه بمكة، لان الناس ما كانوا يعدلونه بالحسين، فلم يكن شيء يؤتاه احب اليه من شخوص الحسين عن مكة، فأتاه فقال: ابا عبد الله ما عندك؟ فوالله لقد خفت الله في ترك جهاد هؤلاء القوم على ظلمهم واستذلالهم الصالحين من عباد الله)[1] وحثه على الخروج قائلًا: (اما لو ان لي كلها مثل انصارك

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٦٩ وقد روي ان ابن الزبير اتى الامام عليه السلام وقال له: (ما ادري ما تركنا هؤلاء القوم وكفنا عنهم، ونحن ابناء المهاجرين، وولاة هذا الامر دونهم. خبرني ماذا تريد ان تصنع؟ فقال الحسين: والله لقد حدثت نفسي باتيان الكوفة، ولقد كتب الي شيعتي بها واشراف اهلها، واستخير الله، فقال له ابن الزبير: اما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت بها، ثم انه خشى ان يتهمه فقال: اما انك لو اقمت بالحجاز ثم اردت هذا الامر ها هنا ما خولف عليك ان شاء الله، ثم قام فخرج من عنده، فقال الحسين: ها ان هذا ليس شيء يؤتاه من الدنيا احب اليه من ان أخرج من الحجاز إلى العراق، وقد علم انه ليس له من الامر معي شيء، وان الناس لن يعدلوه بي، فود اني خرجت منها لتخلو له). الطبري ٣/ ٢٩٤ ونهاية الارب للنويري ج ٤٠٧٢٢٠ ط القاهرة وجمهرة خطب العرب ٢/ ٣٥ وقد ذكر ابن الاثير ٣/ ٣٩٩-٤٠٠ والطبري ٣/ ٢٩٥- ٢٩٦، ان ابن الزبير قال للامام عليه السلام لما اخبره بعزمه على الخروج إلى العراق (اما انك لو اقمت بالحجاز ثم اردت هذا الامر ها هنا لما خالفنا عليك وساعدناك وبايعناك ونصحنا لك. فقال له الحسين: ان ابي حدثني ان لها كبشاً به تستحل=

ما عدلت عنها)[1] (يعني الكوفة).

نصائح ابن الزبير للحسين نصائح غير مخلصة

ولم تكن (نصيحة) ابن الزبير خالصة لوجه الله، ولعله قد شعر ان الحسين عليه السلام قد علم بذلك، وانه لم يكن يريد الا ابعاده ليخلو له الجو في مكة، فحاول استدراك ما قاله بعد ذلك وخاطب الحسين عليه السلام وقد خاف ان يتهمه فقال:

(ولو اقمت بمكانك فدعوتنا واهل الحجاز إلى بيعتك، اجبناك، وكنا اليك سراعاً، وكنت احق بذلك من يزيد وابي يزيد)[2].

ومع ذلك نجد من يقول بان خروج الحسين من مكة كان استجابة لنصيحة ابن الزبير وبتشجيع منه، كما ذهب إلى ذلك احد الكتاب المحدثين (انيس زكريا في كتابه (الدولة الاموية في الشام ص ٥٤)، ولا ندري كيف لم يقرأ هذا (المؤرخ) ما كتبه (اسلافه) عن هذا الموضوع وكيف غاب عنه تقييم الامام عليه السلام لابن الزبير.

ولعل ذلك يعود إلى ما لمسه هؤلاء من عبد الله بن عباس وقد غضب على ابن الزبير (لنصيحته) واشارته على الامام للخروج من مكة، تلك (النصيحة) التي ادركها الامام، وان كان قد خرج من مكة فعلًا لاسباب كان يعلمها عليه السلام وقد اشرنا إلى طرف منها وسنتناولها بالتفصيل بعون الله تعالى.

اننا لو تساءلنا: هل كان الحسين عليه السلام يأخذ بنصيحة ابن الزبير، لو كان يريد الاقامة فعلًا بمكة، وان الاقامة فيها كان يمثل احد الخيارات امامه، ولم يكن عازماً

=حرمتها فما احب ان اكون انا ذلك الكبش. فقال: فأقم إن شئت وتوليني انا الامر فتطاع ولا تعصى. قال: ولا اريد هذا ايضاً. ثم انهما اخفيا كلامهما فالتفت الحسين إلى من هناك وقال: اتدرون ما يقول؟ انه يقول أقم في هذا المسجد اجمع لك الناس، ثم قال له الحسين: والله لان اقتل خارجاً منها بشبر احب الي من ان اقتل فيها، ولأن اقتل خارجاً منها بشبرين احب الي من ان اقتل خارجاً منها بشبر، وايم الله لو كنت في حجر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا بي حاجتهم، والله ليعتدن علي كما اعتدت اليهود في السبت، فقام ابن الزبير فخرج من عنده فقال الحسين: ان هذا ليس شيء من الدنيا احب اليه من ان اخرج من الحجاز، وقد علم ان الناس لا يعدلونه بي. فوددت اني خرجت حتى يخلو له).

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

على الخروج منها؟ وهل كان سينخدع به لو اراد خديعته؟ كلا بدون شك وهذا ما اوضحه الامام بكل جلاء.

ان علينا ان نعرف طبيعة القرار الحاسم الذي اتخذه الامام عليه السلام وطبيعة تصميمه على الخروج لنقرر على ضوء ذلك السبب الحقيقي الذي دعاه لذلك.

ابن عباس وفهمه لابن الزبير (يا لك من قبرة بمعمر)

كان ابن عباس يدرك طبيعة العقلية الملتوية التي حملها ابن الزبير، وقد رأى انه ايضاً يمكن ان يصبح خليفة ما دام يزيد نفسه قد تسنم هذا المنصب، ولا شك انه كان يرى في نفسه مزايا عديدة تفوق تلك التي كان يراها في يزيد، هذا اذا ما كانت لدى هذا الاخير مزايا على الاطلاق، وقد خاطب ابن عباس الامام عليه السلام قائلاً:

(لقد اقررت عين ابن الزبير بتخليتك اياه والحجاز والخروج منها، وهو اليوم لا ينظر اليه احد معك، ثم خرج فمر بعبد الله بن الزبير، فقال: قرت عينك يا بن الزبير: ثم قال:

يا لك من قبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري

هذا حسين يخرج إلى العراق وعليك بالحجاز)[1].

كان ابن الزبير سيستفيد فائدة مزدوجة من خروج الحسين عليه السلام إلى العراق، فاحتمال قتله هناك وازالته عن طريقه احتمال وارد، ومن شان ذلك، ان يضعف من موقف يزيد، وقد يكون سبباً للاطاحة به فيما بعد، وهذا يتيح له البروز وادعاء الامر لنفسه فيما بعد، وهو ما فعله بعد ذلك وقد قوي لديه الامل بان يكون خليفة خصوصاً وانه كان يتظاهر بالصلاح والتقوى والحرص على الاسلام، فينخدع به الكثيرون ممن نقموا على يزيد افعاله المشينة وخروجه السافر عن ابسط تعاليم الاسلام وبنوده واحكامه، ان المسألة لا ينبغي ان تعرض هنا كخلاف أو منافسة بين الحسين عليه السلام وبين ابن الزبير، أو بينه وبين يزيد كما يحاول البعض ربما لغرض مقصود.

---

(١) الطبري ٣/ ٢٩٥/ ٢٩٦، وابن الاثير ٣/ ١ ٠ ٤، ومروج الذهب ٣/ ٦٩ وابن كثير ٨/ ١٦٦.

وجود الامام الحسين عليه السلام في مكة
يقلق يزيد وابن الزبير على السواء

لقد كان اقبال الناس على الحسين بمكة كبيراً.

(ووفدت الناس لحسين يقولون لو تقدمت فصليت بالناس فأنزلتهم بدارك)[1].

وكان ذلك كما بينا يشكل خطراً امام الحكومة اليزيدية التي لم تستطع ارغامه على البيعة أو استمالته إلى جانبها، أو العمل على تحييده وابعاده عن التأثير.

وقد كان امتناعه عن البيعة، ثم خروجه من المدينة إلى مكة وبقاؤه في مكة عدة اشهر، انشغل الناس فيها بشأنه والتفوا حوله التفافاً حميماً، إلى درجة تركوا فيها عامل الدولة ومبعوثها، وتوجهوا اليه عليه السلام لاقامة الصلاة بهم، مصدر قلق وانزعاج كبيرين ليزيد وعامله على مكة عمرو بن سعيد، الذي لحقه من المدينة وحاول منعه من الخروج، وقد فوجىء عندما بلغه ان الحسين قد خرج من مكة بعد ذلك إلى العراق بعد ان اعلن، ثورته فقال:

(اطلبوه، اركبوا كل بعير بين السماء والارض فاطلبوه، فعجب الناس من قوله هذا)[2].

لماذا لم يرد له عامل يزيد الخروج من مكة؟

واذا بقي فيها، فهل يرضى يزيد بذلك ويسكت أو يقنع؟

وهل كان يستطيع البقاء في مكة والسيف الاموي مصلت على رأسه كما اصلت في المدينة؟

وهل لا يعمد يزيد إلى تنفيذ تهديده وقتله واستئصاله وآل بيته إلى الابد، واستباحة حرمتهم واضاعة اثرهم، فلا يعود احد يتحدث عنهم أو يذكرهم، وتنساهم الناس إلى الابد؟ خصوصاً اذا ما استسلموا وماتوا ميتة ذليلة يقودهم خلالها اعوان يزيد وشرطته امام سمع الناس وابصارهم في مكة أو المدينة، مستهينين بالمدينتين المقدستين؟

---

(١) و(٢) العقد الفريد ٥/١٨ ١/ ١١٩.

الم يتعرض الامام عليه السلام للقتل لو انه لم يأخذ معه جماعة من اصحابه واهل بيته إلى منزل الوليد؟ أكان مروان نفسه يتورع عن قتل الحسين في المدينة لو اتيحت له الفرصة؟ ام كان عمرو بن سعيد يتورع عن قتله في مكة لو اتيح له ذلك؟

الم يبعثوا اليه بمجموعة من اعوان الدولة وجنودها لاغتياله، ثم لمنعه والقاء القبض عليه قبل مغادرة مكة؟

واية قيمة لوعود ادرك الجميع وفي مقدمتهم الامام عليه السلام بطلانها وزيفها؟ وقد كانت لها سوابق من وعود اخرى أعلن فيها معاوية نفسه تنصله منها فيما بعد وانها تحت قدميه، مثل العهد المكتوب بينه وبين الامام الحسن عليه السلام؟

ان تصميم الحسين عليه السلام هو نفسه في مكة أو المدينة أو غيرهما، باق لم يتغير، لا ليزيد ولا لمبايعته ولا لحكمه ولا لسلطانه.

ان هذا ما ينبغي ان يفهم من قبل كل دارس للاحداث الدقيقة التي سبقت الثورة ورافقتها، فهل وجد احد في حوادث التاريخ ما يثبت لنا عكس ذلك؟

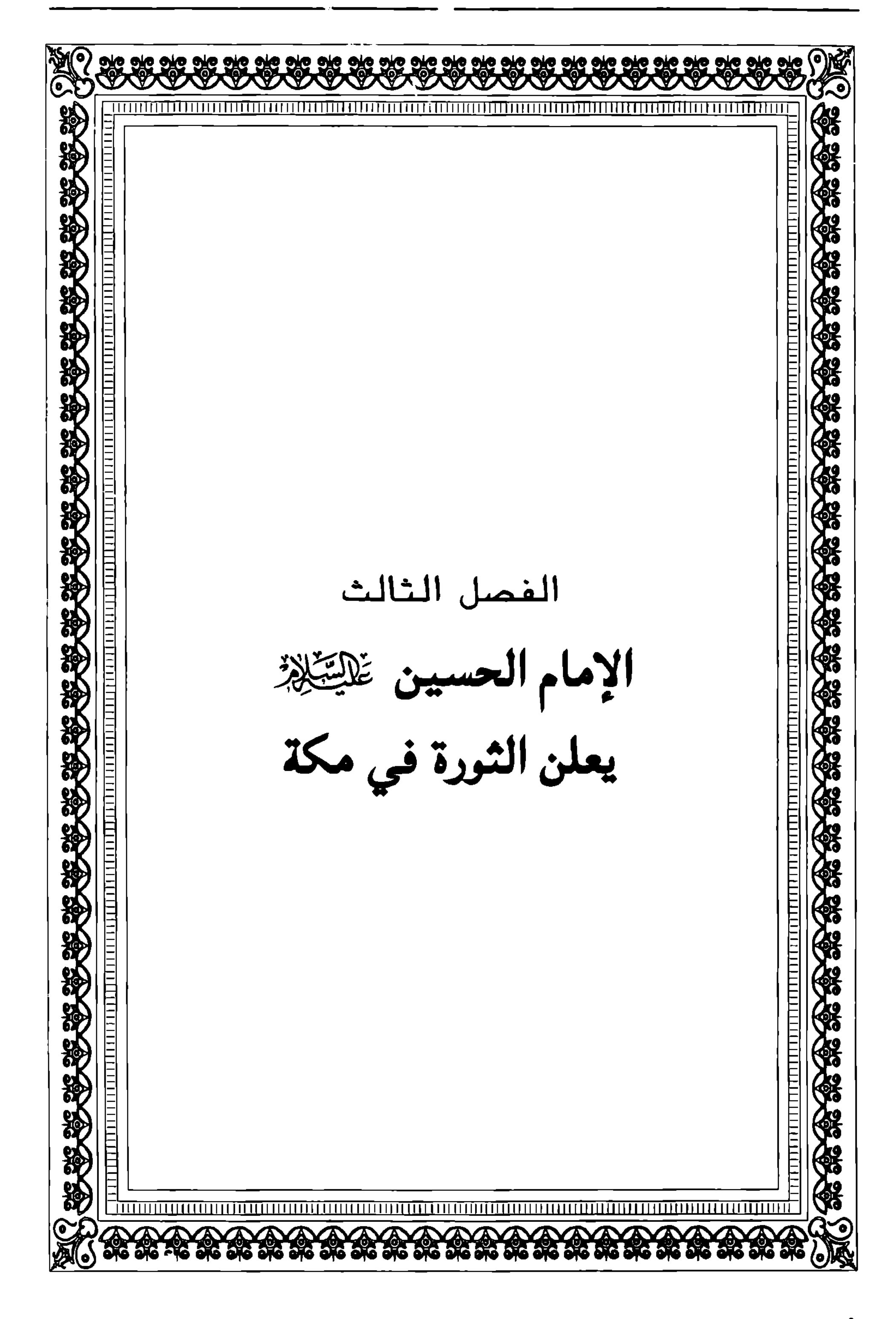
ولو انا تمعنا بنصائح محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس، وهما من اقرب الناس إلى الامام عليه السلام لما وجدنا اشارة إلى انهما قالا له بايع يزيد واستسلم واحسم الامر منذ البداية، فانهما اعرف بيزيد واخلاقه من غيرهما، وقد علما وعلمهما يقيني بالحسين عليه السلام انه ما كان ليبايعه في المدينة أو في مكة أو في العراق أو في اي مكان آخر من العالم.

كان ذلك لديهما امراً مؤكداً رغم علمهما انه عليه السلام يعلم انه سيتعرض للمطاردة والاذى والقتل، وما كانت نصائحهما منصبة الا على ابعاده عن ذلك الاذى المحتمل والنأي به إلى ابعد ما يمكن ان تحمله قدماه اليه.

لقد اصبح موقف الحسين عليه السلام من يزيد واضحا ومعلناً امام الامة، وقد شكل امتناعه عن البيعة احتجاجاً قوياً على الدولة الأموية اليزيدية، ورفضاً تاماً لها، ودعوة صريحة للامة لكي تثوب إلى رشدها، وتعود إلى الاسلام رافضة الحكم التسلطي المطلق الجديد.

وقد باتت الامة باجمعها تترقب الخطوة التالية التي سيقدم عليها الامام وما سيفعله بعد ذلك، هل سيتنازل كما تنازلت هي واستسلمت، ام سيمضي إلى النهاية في موقفه المعارض الرافض للحكم الاموي جملة وتفصيلاً؟

انه اذا ما فعل ذلك ومضى في موقفه إلى النهاية، فانه سيشعرها حتماً بانحرافها وتدنيها وخضوعها وابتعادها عن الاسلام، وسيكون ذلك اكبر صرخة احتجاج في وجهها اذا ما قدم حياته في سبيل هدفه الكبير. فالمهمة هائلة جداً، واذا لم تنجز في وقتها المحدد فستفوت الفرصة عليه وعليها إلى الابد، فكيف كان الامام سينجزها؟ وكيف كان يستطيع ان يعيد الامة إلى صوابها؟ هذا ما ينبغي ان نتساءل عنه دائماً، وذلك ما سنعرفه بعون الله في الفصول القادمة.



الفصل الثالث

الإمام الحسين عليه‌السلام يعلن الثورة في مكة

الامام الحسين عليه السلام
يعلن الثورة في مكة

اشرنا في الفصل السابق إلى ان وصول الامام الحسين عليه السلام إلى مكة شكل حدثاً فريداً وهاماً، خصوصاً وانه اقترن مع اكبر مناسبة للمسلمين تتم شعائرها في ذلك المكان المقدس وهي مناسبة الحج، وهي فرصة يتاح فيها للامام عليه السلام اطلاع الامة كلها من خلال شهودها الذين حضروا الموسم، على موقفه المعارض لبيعة يزيد، والذي ربما شكل التمهيد الاول للثورة، وجعل فئات عديدة من المسلمين وخصوصا في العراق، تتطلع إلى الالتحاق به اذا ما ثار ضد النظام الاموي، وهو ما فعله بعد ذلك، عندما رأى ان الظروف الموضوعية كانت كلها معدة لذلك.

وقبل ان ندخل في تفاصيل البحث، لا بد لنا ان نذكر، وهو ما اكدته لنا كل كتب التاريخ، ان اول فعل قام به الحسين عليه السلام، هو اعلانه استمرار موقفه السابق ايام معاوية برفض بيعة يزيد، رغم تخلي بعض المعارضين الاوائل عن مواقفهم المشابهة لموقفه، وبقائه في الساحة وحيداً تقريباً، الا من ابن الزبير الذي كانت دوافعه مختلفة عن دوافع الامام تماماً، والذي لم يكن يحظى بأية اهمية أو ثقل لدى الامة، مع وجود الامام عليه السلام، الامر الذي دفعه (لنصحه) لمغادرة مكة إلى العراق، وهو (النصح) الذي لم تخف دوافعه عليه، رغم انه خروج بدا بنظر البعض استجابة لتلك النصيحة الخديعة، وقد المحنا إلى ذلك قبلًا.

اما موضوع رسائل أهل العراق، وهو ما سنتعرض له في فصل لاحق بعون الله، فهو موضوع دقيق لا بد فيه من حل اشكالات عديدة، تكونت في اذهان بعض الباحثين والدارسين والمؤرخين، بفعل الاستجابة الظاهرية من الامام لها اولًا، وما حصل له بعدها، اذ عدوه نتيجة تلك الاستجابة لا غير، وكذلك بفعل الاعلام الاموي الماهر، القائم على مدرسة معاوية ذات الكفاءة العالية في التزوير والدس والكذب، والذي حاول طمس كل اهداف الثورة وغاياتها، والتعتيم عليها بشكل مضلل طيلة فترة طويلة، امتدت طيلة العهد الاموي، ثم بفعل كل الاعلام المعادي لآل

البيت عليهم السلام، ابتداء من اعلام الحكم العباسي الذي رأى فيهم خطراً على وجوده وعلى كيانه، فراح يعمل على تقويض مكانتهم لدى المسلمين، ويعمل على حربهم وابادتهم واستئصالهم، رغم ان قضية الحسين عليه السلام كانت ورقتهم الرابحة التي استخدموها لدى الامة للاطاحة بالحكم الاموي.

المرحلة الثانية من اعلان الثورة

ان المرحلة الثانية من الثورة على يزيد بدأت في مكة، عندما وصلت اخبار رفض الامام عليه السلام لمبايعة يزيد، وعزمه على المضي في موقفه مهما كانت العواقب، ثم استجابة اعداد كبيرة ممن وصلتهم تلك الاخبار، وعزمهم على اتخاذ نفس موقفه الرافض ليزيد، وهو ما اقدموا عليه، وطلبوا من الحسين عليه السلام ان يقودهم لتصحيح الأوضاع التي ادركوا سوءها فعلًا، بعد موقف الامام عليه السلام وبعد اختفاء معاوية من الساحة واختفاء الهالة الكاذبة والاضواء البراقة التي احاط نفسه بها، والتي لم تكن محلحتها سوى سعيه لتثبيت عرش ابنه المعروف لدى الامة ومن سيأتي بعده من ذرية واحفاد.

لقد أعاد موقف الامام الامة إلى وعيها وجعلها تفكر بشكل جدي باوضاعها المتردية التي جرت اليها بفعل مقصود مدروس، لتصل إلى وسيلة تمكنها من تجاوز محنتها وترديها، على ان ما أعادها إلى الصواب حقاً هو موقف الامام عليه السلام بعد ذلك في الطف، وخلال المسيرة الملحمية من مكة إلى الكوفة، وهو موقف ان اصابها بصعقة في بداية الامر وجعلها تقف حائرة منذهلة امام ذلك الاصرار لتحدي الدولة الجائرة، إلى حد اعلان الحرب عليها رغم قلة الامكانات والعدد والناصر، فانه جعلها بعد ان لمست بعض نتائج تلك الثورة تفكر بالتصدي للظلم والانحراف والطغيان مهما كان مركز وقوة الظالم والمنحرف والطاغي، وتجد الوسائل المناسبة لتنغيص عيشهم والوقوف بطريق مخططاتهم التي كانت تريد ابعادها عن الاسلام وصرفها عنه، وهو ما. حدث فعلًا، اذ لم تنطف جذوة تلك الشرارة الاولى في نفوس المسلمين رغم كل فترات السبات والاستسلام الظاهرية، ووجدت لها صدى في نفس كل مسلم على امتداد التاريخ واتساع رقعة العالم.

وقد ذكرنا ان هناك مخاوف حقيقية كانت تساور نفوس رجال الدولة الاموية وفي مقدمتهم يزيد، الذي احس بالخطر المحتمل القادم من مكة، فكتب إلى ابن

عباس لكي يسترضي الحسين عليه السلام، ويعرض عليه الاموال الطائلة كرشوة على سكوته أو مبايعته، ويعرض على ابن عباس رشوة اخرى ان هو نجح بمهمته التي عرضها عليه.

وكان الامر الرئيسي الذي تضمنه رد ابن عباس هو ان الشيء الوحيد الذي ربما يكفل ذلك هو ان يقلع يزيد عما اعتاده من سلوك فاضح معلن، ويعود إلى حضيرة الاسلام، وهو ما بدا مستحيلًا امام انغماسه في حياة اللهو والموبقات واعتياده بل وادمانه عليها.

ومن لم يلحق بي لم يبلغ الفتح

نهاية مرحلة جديدة من الثورة في مكة

وقد روي لنا ان الحسين عليه السلام لما نزل مكة كتب رسالة مختصرة إلى اخيه محمد بن الحنفية وبني هاشم الذين تخلفوا في المدينة جاء فيها:

(اما بعد فانه من لحق بي منكم استشهد ومن لم يلحق بي لم يبلغ الفتح والسلام)[1].

ولعل هذه الرسالة كانت بناء على موقفه الاخير الذي اتخذه للمسير إلى الكوفة، وتزعم الثورة المناهضة ليزيد، ولم تكن في بداية وصوله مكة.

ونلاحظ انه في هذه الرسالة اعتبر ان من يستشهد معه قد بلغ الفتح، وهو امر لا يمكن ان يفهم الا على ضوء العقلية الاسلامية الواضحة التي حملها الامام عليه السلام، والا على ضوء الفهم الواعي للاسلام، الذي لا يمكن ان يتاح لاولئك الذين يحملون التصورات الارضية البحتة البعيدة عن الاسلام وروحه وواقعه، وهي رسالة جديرة بالتأمل والدراسة، لما فيها من مضامين عالية، تجعل قوة الحسم التي حملها الامام عليه السلام تلوح بين اسطرها، وتجعل عباراتها تلوح كحقائق ثابتة اذا ما عرضت على حقائق الاسلام وواقعه وتصوراته وقيمه.

---

(١) اللهوف لابن طاووس ط النجف ص ٢٧، وكامل الزيارات ابن قولوية ط ايران ص ٧٥ وتاريخ ابن عساكر ١٣/ ٧١ من مصورات مكتبة أمير المؤمنين عليه السلام في النجف حيث جاء فيه: (فالتحق به ابناء عمومته واخوته على اثر الكتاب) راجع مقتل الحسين/ السيد محمد تقي آل بحر العلوم.

رسالة الامام الحسين عليه السلام لأهل البصرة تأكيد لأحقية أهل البيت عليهم السلام ومحاولات لتحريك الامة في كل الأقاليم

كما ان رسالته عليه السلام لأهل البصرة ربَّما كانت ايضاً بعد عزمه نهائياً على الخروج إلى العراق، فلا بد انه كان يزمع القيام بعمل حاسم ضد الدولة الفاسدة ليطلب نصرتهم، ولو انه اكتفى بموقفه الرافض للبيعة لما وجد سبباً يدعوه لدعوتهم لسماع قوله واطاعة امره عليه السلام.

يدل على ذلك ان احدى الرسائل وقعت بيد عبيد الله بن زياد قبيل توجهه إلى الكوفة بليلة واحدة عند ورود خبر مسير الامام اليها، اي ان الامام عليه السلام ربما كتبها قبيل خروجه بليلة واحدة أو عدة ليالي، وهو ما يبدو منسجماً مع الموقف الذي اتخذه عند ذاك، ومع تاريخ وقوع الرسالة بيد ابن زياد.

كتب الحسين عليه السلام من مكة إلى جماعة من اشراف البصرة ورؤساء الأخماس فيها مع مولى له، اسمه سليمان، وكنيته (ابو رزين) الرسالة التالية:

(أما بعد، فان الله اصطفى محمداً من جميع خلقه، وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته، ثم قبضه اليه مكرماً، وقد نصح لعباده وبلغ ما ارسل به، وكنا اهله وأولياءه، وأوصياءه، وورثته، واحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك فرضينا وكرهنا الفرقة، وأحببنا العافية، ونحن نعلم انا احق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه.

وقد بعثت رسولي اليكم بهذا الكتاب، وأنا ادعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فان السنة قد أميتت، وان البدعة قد أحييت، وان تسمعوا قولي، وتطيعوا أمري أهدكم إلى سبيل الرشاد)[1].

لقد اعاد إلى اذهانهم بكتابه هذا سبب سكوت أمير المؤمنين عليه السلام عن حقه عندما رأى ان مطالبته به ستسبب الفرقة والخصومة، خصوصاً وان من نافسوه عليها لم يكونوا مثل يزيد الذي اميتت السنة في عهده واحييت البدعة، ولو ان يزيد كان كغيره فلربما اختلف الامر، غير ان السكوت عن يزيد الذي أمات السنة واحيا البدعة، فمسألة لا يمكن ان يقرها الامام أو يرضى عنها أو يتساهل بشأنها.

(١) الطبري ٣/ ٢٨٠، وابن الاثير ٣/ ٢٦٨، ومقتل ابي مخنف ص ٣٦/ ٣٧.

وكان فيمن كتب اليهم الحسين عليه السلام مالك بن مسمع البجري والاحنف بن قيس والمنذر بن الجارود ومسعود بن عمرو وقيس بن الهيثم وعمرو بن عبيد الله بن معمر، وقد كتموا امر الرسالة عن اعوان السلطة وكان رد فعل بعضهم ايجابياً تجاهها، الا المنذر بن الجارود فقد قبض على الرسول، وسلمه إلى زوج ابنته، ابن زياد الذي قتله بدوره، والقى على اثر ذلك خطبة مليئة بالسباب والتهديد من على منبرالبصرة وقد جاء في خطبته:

(... فوالله ما تقرن بي الصعبة، ولا يقعقع لي بالشنآن. واني لنكل لمن عاداني، وسم لمن حاربني، أنصف القارة من راماها. يا أهل البصرة، إن أمير المؤمنين ولاني الكوفة وانا غاد اليها الغداة، وقد استخلف عليكم عثمان بن زياد بن ابي سفيان، واياكم والخلاف والارجاف، فوالله الذي لا اله غيره، لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريفه ووليه، ولآخذن الادنى بالاقصى حتى تستمعوا لي، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق، انا ابن زياد، اشبهته من بين من وطىءالحصى، ولم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم)[1].

ان لنا عودة إلى ابن زياد وموقفه المحموم من الثورة، غير اننا نلفت النظر هنا إلى امر مهم وهو قيام الحسين عليه السلام بدعوة أهل البصرة لنصرته بينما كان مسيره يبدو في الظاهر استجابة لاهل الكوفة.

فهل كان الامر كذلك بالفعل؟ ام انه اراد اشعارهم واشعار الامة كلها انه كان يستجيب لهم، ويتحمل مسؤوليته الشرعية بالتصدي للظلم والانحراف والمنكر، وان دورهم مقابل ذلك ان يقفوا خلفه ويدعموه ويساندوه، لقد كان ذلك ما طلبه منهم بالضبط في كل المراحل التي مرت بها ثورته المجيدة.

ان الايحاء كما قلنا بأن مسيره إلى الكوفة كان استجابة بحتة لرغبة أهل الكوفة ورسائلهم، ايحاء خبيث ومقصود كما سبق واكدنا، وكما ستدلنا الامثلة العديدة فيما بعد على ذلك.

ورسالته إلى أهل البصرة كانت تدلل على انه كان يريد حشد جماهير الامة خلف قيادته ضد الطغمة الجائرة المنحرفة، ولم يكن بحاجة لمن يدفعه لذلك، وانما كان هو الذي كان يقوم باعداد الامة للنهوض والمجابهة.

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨١ وابن الاثير ٣/ ٣٨٨.

ابن مسعود يحاول تعبئة البصريين مع الامام الحسين عليه السلام

ولم تتح الفرصة القصيرة بين وصول الرسالة إلى البصرة، وخروج الحسين عليه السلام السريع بعدها إلى الكوفة المجال للكثيرين من الناس للانضمام لموكبه، ولم يلتحق به سوى عدة أفراد استطاعوا في الوقت المناسب قبيل بدء المعركة، واستشهدوا معه كما استشهد معه رسول ابن مسعود إليه الحجاج بن بدر السعدي، وكان ابن مسعود قد أرسل معه رسالة يعد فيها الامام بنصرته، وقد بلغه قتله قبل أن يسير فخرج من انقطاعه عنه، وكثر أسفه عليه.

وكانت رسالة ابن مسعود تفصح عن فهم كامل لموقف الامام، ورغبة كبيرة في الالتحاق به، وقد جاء فيها :

(أما بعد فقد وصل إلي كتابك وفهمت ما ندبتني إليه ودعوتني له من الأخذ بحظي من طاعتك، والفوز بنصيبي من نصرتك، وإن الله لم يخل الأرض قط من عامل عليها بخير، أو دليل على سبيل نجاة، وأنتم حجة الله على خلقه، ووديعته في أرضه، تفرعتم من زيتونة أحمدية، هو أصلها وأنتم فرعها، فأقدم سعدت بأسعد طائر، فقد ذللت لك أعناق بني تميم، وتركتهم أشد تتابعاً في طاعتك من الابل الظماء لورود الماء يوم خمسها، وقد ذلت لك رقاب بني سعد، وغسلت درن صدورها بماء سحابة مزن حين استهل برقها فلمع)[1].

ويبدو من مضمون الرسالة أن ابن مسعود، كان يعلم بتوجه الحسين إلى الكوفة، وقد رحب بقرار الامام، وحاول تحشيد أفراد قبيلته ومحالفيهم خلفه، وأرسل تلك الرسالة مع الحجاج بن بدر السعدي، الذي لم ينتظر ريثما يتم فيه اعداد الحملة الموالية للامام، فالتحق به حال سماعه نبأ القرار، ووجده ربما في كربلاء أو قريباً منها، يدل على ذلك قول الامام عقيب اطلاعه على الرسالة:

(مالك، آمنك الله يوم الخوف، واعزك وأرواك يوم العطش الاكبر)[2].

وكان يزيد بن مسعود قد حاول تعبئة اكبر عدد من الناس، للالتحاق بالامام، وربما استغرق ذلك فترة كانت كافية لكي يسبقهم الامام من مكة إلى الكوفة، وقد جمع مقاتلي قبيلته ووجوههم، وكذلك مقاتلي ووجوه القبائل الحليفة له، والقى

---

(١) و(٢) اللهوف لابن طاووس ط النجف ص ١٨، ومثير الاحزان لابن نما، ص ١٣.

خطبة حثهم فيها إلى التخلي عن الدولة الظالمة بقيادة يزيد، والالتحاق بالحسين عليه السلام، وقد جاء في خطبته:

(ان معاوية قد مات، فأهون به والله هالكاً ومفقوداً. ألا وانه قد انكسر باب الجور والاثم، وتضعضعت اركان الظلم، وقد كان احدث بيعة عقد بها امراً ظن أنه قد أحكمه، وهيهات الذي اراد. اجتهد والله ففشل، وشاور فخذل، وقد قام من بعده يزيد شارب الخمور، ورأس الفجور، يدعي الخلافة على المسلمين ويتأمر عليهم، مع قصر حلم، وقلة علم، لا يعرف من الحق موطأ قدميه، فاقسم بالله قسماً مبروراً، لجهاده على الدين افضل من جهاد المشركين.

وهنا الحسين بن علي وابن رسول الله ذو الشرف الاصيل، والرأي الاثيل، له فضل لا يوصف وعلم لا ينزف، وهو اولى بهذا الامر، لسابقته وسنه وقدمه وقرابته، يعطف على الصغير، ويحسن إلى الكبير، فأكرم به راعي رعية، وامام قوم وجبت لله به الحجة، وبلغت به الوعظة، فلا تعشوا عن نورالحق، ولا تسكعوا في وهدة الباطل، وقد كان صخر بن قبس انخذل بكم يوم الجمل، فاغسلوها بخروجكم إلى ابن رسول الله ونصرته، فوالله، لا يقصر احد عن نصرته الا اورثه الله الذل في ولده، والقلة في عشيرته.

وها أنا ذا قد لبست للحرب لامتها، وادرعت لها بدرعها، من لم يقتل يمت، ومن يهرب لم يفت، فاحسنوا رحمكم الله رد الجواب)[١].

اما قومه بنو حنظلة فقد استجابوا له بسرعة وابدوا استعدادهم للسير وراءه قائلين له:

(نحن نبل كنانتك وفرسان عشيرتك، ان رميت بنا اصبت، وان غزوت بنا فتحت، لا تخوض والله غمرة الا خضناها، ولا تلقى والله شدة الا لقيناها ننصرك باسيافنا، ونقيك بابداننا)[٢].

وكذلك استجابت له بنو عامر بن تميم، غير ان بني سعد بن زيد، قد طلبوا امهالهم كي يراجعوا للمشورة، ويأتوه برأيهم بعد ذلك، وقد طلب منهم ابن مسعود الثبات والاستجابة لطلبه بالوقوف خلف الامام الحسين عليه السلام.

---

(١) و(٢) المصدر السابق.

الامام الحسين عليه السلام يبين للأمة طبيعة المهمة العظيمة التي سيقدم عليها

اننا نجد ان الامام عليه السلام في كل مراحل ثورته، وفي كل خطبه واجوبته للناصحين، والعاذلين، كان يؤكد صعوبة المهمة التي كان يمضي لها، وانها ليمست من المهام العادية، اذ ان اقل ما يمكن ان يلقاه فيها هو الموت، وكان يبدو في كل اقواله وتصرفاته وكأنه ينعى نفسه للامة، وقد اوضح منذ البداية أن على من يلتحق به ان يوطّن نفسه على الموت معه، وهو أمر ما كان ليلق الاستجابة السريعة عند عموم افراد الامة، الذين ربما رأوا ان القضية (خاسرة) منذ البداية، ما دام الموت هو الثمن المباشر لها، ولم يكن بالامكان ان تجد تلك الصفوة البدرية الاولى التي وعدها الله بالنصر، وتربت على يدي رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة، لتقدم بنفس الحماس الذي اقدمت عليه تلك، غير خائفة من الموت أو متهيبة منه.

ان مهمة كهذه كانت تحتاج إلى قيادة مطلقة السراح، غير مقيدة أو محاصرة، تأخذ حريتها وتوضح اهدافها بمرونة وطلاقة، اما اذا ما حوصرت القيادة الاصيلة، وبدأت القيادة المزيفة بتزعم الامة للسير بطريق الانحراف، الذي عبد لها ومهد منذ زمن طويل، من قبل قيادة مزيفة منحرفة اخرى، أقرت الزيف والانحراف كواقع عملي، وجعلت الناس ينظرون للاسلام كأشراقة مرت ولم يعد بالامكان ان تستمر، وانه غير ممكن ان يستمر على النهج الذي سار به منذ البداية، فان مهمة القيادة الاصيلة المراقبة المحاصرة ستبدو محفوفة بالاخطار، ولن تتاح لها فرصة التعبير الحر الواضح عن اهدافها ومهامها، ومع ذلك، فان هذا الامر لم يثن الامام عليه السلام من التصريح بمهمته امام الامة، وتوضيح اهدافه بصراحة ووضوح.

وكان خطابه الوداعي بمكة، قد بدا كخطاب تأبيني، نعى الامام عليه السلام فيه نفسه إلى الامة، وقد أشار فيه إلى مسؤوليات هذه الامة بالسير خلفه، باعتبار ان طريقه هو الطريق الوحيد الذي فيه خلاصها وحياتها، كما أشار فيه إلى موقعه هو عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن الاسلام، وهذا ما فعله في عدة مناسبات بعد ذلك، واوضح فيها بجلاء ان مسؤولية الامة هي في السير على خطه وحسب، وهذا ما أوضحه قبله رسول الله صلى الله عليه وآله وامير المؤمنين والحسن عليهما السلام، باعتبار ان خطهم هو خط الاسلام الواضح غير المحرف.

ومهمة كمهمته لا بد ان تقتضي تضحية كتضحيته، وهو اذ يطلب من الامة

الاشتراك معه في هذه المهمة، فانه يضع امامها الثمن الذي ينبغي ان يدفعه كل من يريد ذلك.

الخطاب الوداعي للامام الحسين عليه السلام في مكة

خطب الامام عليه السلام بعد ان صلى ركعتين بين الركن والمقام خطبة وداع أخيرة بمكة، أوجز فيها كل شيء لمن كان هناك من المسلمين، الذين لا بد انهم قد تأثروا بها، غير انهم ربما لم يجدوا القوة للاستجابة العملية لها في الوقت المناسب، وهو الوقت الذي ارادهم فيه ان ينصروه.

وجاء فيها:

(الحمد لله، وما شاء الله، ولا حول ولا قوة الا بالله، وصلى الله على رسوله. خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما اولهني إلى اسلافي، اشتياق يعقوب إلى يوسف. وخير لي مصرع انا لاقيه. كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني اكراشاً جوفاً، واجربه سغباً، لا محيص عن يوم خط بالقلم. رضا الله رضانا أهل البيت. نصبر على بلائه، ويوفينا اجور الصابرين لن تشذ عن رسول الله لحمته. بل هي مجموعة له في حظيرة القدس، تقربهم عينه، وينجز لهم وعده.

ألا ومن كان فينا باذلًا مهجته، موطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فاني راحل مصبحاً إن شاء الله تعالى)[1].

ومن الطبيعي ان تثير خطبة الوداع هذه مشاعر المحبين للامام عليه السلام، واولئك الذين كنوا مشاعر الكره له، أما اولئك الذين أحبوه، فقد رأوا في ذلك الموت المحقق شيئاً لا يمكن ان يحتملوه هم، ورأوا فيه امراً خارقاً لا طاقة لهم به، ومع انهم رأوا ان مهمة الامام لا تخرج عن حدود واجباته، بل انه كان المسؤول عنها بالدرجة الاولى، فانهم حاولوا ان يثنوه عن عزمه بمواصلتها، لكي يجنبوه المصير المؤلم الذي كان يبدو انه يراه رأي العين، وقد كانت لبعضهم اسبابه الخاصة في القعود[2].

---

(١) اللهوف لابن طاووس ط النجف ص ٢٥، وكشف الغمة للاربلي ط قم ج ٢ ص ٢٤١.

(٢) كما ذكرنا في حال محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس (وقد امرهما الامام الحسين عليه السلام بالبقاء في الحجاز).

اما الحاقدون على الامام ومنافسوه، فأنهم رأوا امامهم صلابة قد تحرك الامة كلها ضدهم، ورأوا في موقفه تحريضا قائما ضد الحكم القائم، قد يؤدي إلى الاطاحة به في نهاية المطاف، وذلك ما لم يسرهم على اية حال.

فهم يدركون اكثر من غيرهم إلى اي حد قد تمادوا بانحرافهم وخطئهم، ويدركون ان ثورة الحسين عليه السلام انما كانت على الخطأ والانحراف، وعليه فان موقفه كان يشكل ادانة تامة لهم شخصياً.

نصائح ابن عباس حبر الامة (رض) للامام الحسين عليه السلام

اتفاق على ضرورة الثورة واختلاف على أسلوبها

وقد رأينا ان محاولات كثيرة بذلت من قبل ابن عباس (رض)، وابن سعيد الاشدق على سبيل المثال لمنع الامام من المسير إلى العراق، ولا شك ان دوافع تلك المحاولات لم تكن واحدة، فبينما اراد ابن عباس تجنيب الامام بطش الدولة، خاف ابن سعيد على الدولة من الامام.

كان ابن عباس يريد من الامام ان يسير إلى العراق بعد ان تضبط الامور هناك من قبل من دعوه إلى المجيء اليهم، ولم يحاول ان يثنيه عن رفض مبايعة يزيد، فنظرته هنا كانت نظرة من يضع امام عينيه احتمالات الاخفاق والفشل أو النجاح قبل الاقدام على اية خطوة يخطوها[1]، بينما كان الامام يضع امراً وحيداً نصب عينيه، وهو انقاذ الامة من المنزلق الخطير الذي وضعت اقدامها عليه، واخذت حركتها تزداد سرعة نحو الهاوية هاوية الشرك والضلال والانحراف التي اعدت لها بمهارة لم تكن تتاح الا لأفراد موهوبين امثال معاوية، الذي كان يمثل عبقرية الشر القائمة بطريق الاسلام.

النصيحة الأولى اتسير إلى قوم قتلوا أميرهم

قال ابن عباس للحسين عليه السلام بعد ان تأكد انه سائر إلى العراق:

(إني اعيذك بالله من ذلك: أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونقلوا عدوهم؟

---

(١) ويهمنا هنا اشارته على أمير المؤمنين ان يقر اعمال عثمان على اعمالهم وخصوصاً معاوية ريثما يمهد الامور ورفض أمير المؤمنين عليه السلام ذلك، وان يكتب إلى معاوية فيمنيه ويعده. الطبري ٣/ ٧٠٤.

فان كانوا فعلوا ذلك فسر اليهم، ففي مسيرك، لعمري، الرشاد والسداد، وان كانوا انما دعوك اليهم، واميرهم عليهم قاهر لهم، وعماله تجبي بلادهم، فانما دعوك إلى الحرب والقتال، ولا آمن عليك ان يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك، وان يستنفروا اليك، فيكونوا أشد الناس عليك)[1].

النصيحة الثانية : سر إلى اليمن

ولم يكتف ابن عباس عندما رأى اصرار الامام عليه السلام على المسير إلى العراق وأتاه بعد وقت قصير، من العشي أو من الغد وقال له:

(يا ابن عم، اني اتصبر ولا اصبر، إني اتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والإستئصال، ان أهل العراق قوم غدر، فلا تقربنهم، أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز، فان كان أهل العراق يريدونك؛ كما زعموا فاكتب اليهم فلينفوا عدوهم، ثم أقدم عليهم، فان أبيت الا أن تخرج فسر إلى اليمن فان بها حصوناً وشعاباً، وهي ارض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وانت عن الناس في عزلة، فتكتب إلى الناس وترسل، وتبث دعاتك، فاني ارجو ان يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية)[2].

ان اقتراح ابن عباس قد يبدو لطالب حكم عادي أو لمجرد منافس من منافسي الدولة الاموية من اصوب الاقتراحات واكثرها عملية، اما لصاحب قضية حقيقية مثل الحسين عليه السلام، يرى ان خطراً ماثلاً يكاد يطيح بالامة بأجمعها ويرى انه المسؤول الاول بحكم كفاءته وعلمه وموقفه منها، والشخص الوحيد القادر على انقاذها بالاسلوب المناسب، لا تسليم نفسه ضحية للحكم الجائر، أو الاختباء في مكان ناء وارسال الرسائل وصرخات الاحتجاج بل بالتصدي الفعلي الواضح المعلن، بالفعل الارادي الحقيقي الذي يعبر عن رغبة تدعو اليها ضرورة التغيير السريع الحاسم.

وهكذا رفض الحسين عليه السلام البقاء في المدينة، لان السلطة هناك ستلقي القبض عليه وتحاصره أو تقتله، وعند ذاك لن يصل صوته إلى ابعد من حدودها. وكذلك رفض

---

(١) الطبري ٣/ ٢٩٤ ومقتل الخوارزمي ط النجف ١/ ٢١٦ وابن الاثير ٣/ ٢٧٥ وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت ٢/ ٣٥ ونهاية الارب للنويري ٢٠/ ٤٠٧.

(٢) الطبري ٣/ ٣٩٥، وابن الاثير ٣/ ٤٠٠، ومقتل الخوارزمي ١/ ٢١٧، ومروج الذهب ٣/ ٦٥، وجمهرة خطب العرب ٢/ ٣٦، مع اختلافات يسيرة ببعض النصوص، وترجمة ريحانة الرسول من تاريخ دمشق لابن عساكر بيروت ٢٠٤، ونهاية الارب للنويري ٢٠/ ٤٠٨.

البقاء في مكة، اذ ان السلطة ايضاً وبمجرد انقضاء موسم الحج الذي كان قريباً جديداً (بعد يومين فقط)، سيخلو لها الجو وستنتهك حرمته وحرمة مكة وبيتها ايضاً، وستعمد إلى استعمال اشد الاساليب قسوة معه دون شهود عديدين من ابناء الامة، وستزور القضية التي دعا لها، وستعرضها على انها قضية منافسة في الملك والسلطان.

كما رفض الذهاب إلى اماكن نائية مثل اليمن، والاحتجاب في جبالها وشعابها وارسال كتبه ودعاته إلى الناس، لان الدولة ستستنفر أعوانها لمحاصرته وحجب صرخاته، والقبض على دعاته وتصويره على انه مجرد متمرد يلوذ بالجبال، وليس له من القوة والاعوان والرصيد الشعبي والكفاءة ما يمكنه من مواجهة السلطة، التي ستعمد (لمواجهة ذلك) إلى تحسين مؤقت لصورتها، وعرض نفسها على انها الممثل الحقيقي والمؤهل للتعبير عن ارادة الامة، ورغباتها ومصلحتها، وستسفر عن واقعها الارهابي بمواجهة كل من التفوا حول آل البيت عليهم السلام، وستعمد إلى ابادة شاملة لهم، وتزييف كامل لموقفهم، خصوصاً وانها تمتلك المال اللازم لشراء من يقفون معها لتنفيذ مخططاتها، والقوة اللازمة لتنفيذ تلك المخططات.

رسائل أهل الكوفة، القاء الحجة على الامام الحسين عليه السلام

وقد اجابه الامام:

(يا ابن عم، اني لأعلم انك ناصح مشفق، ولكن قد ازمعت واجمعت على المسير، وهذه كتب أهل الكوفة ورسلهم، وقد وجبت علي اجابتهم، وقام لهم العذر عند الله سبحانه.

ثم قال له:

يا بن عم، ما تقول في قوم اخرجوا ابن بنت رسول الله عن وطنه وداره وقراره، وتركوه خائفاً مرعوباً، لا يستقر في قرار، ولا يأوي إلى جوار، يريدون بذلك قتله وسفك دمه، وهو لم يشرك بالله شيئاً ولا اتخذ من دونه ولياً ولم يرتكب منكراً ولا اثماً؟

فقال ابن عباس:

ما اقول فيهم الا انهم كفروا بالله ورسوله)[١].

---

(١) نفس المصادر السابقة مع اختلاف يسير في بعضها. كما ورد في الطبري وابن الاثير (فوالله اني لخائف ان تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون اليه».

ويعرض الامام الحسين عليه السلام هنا قضيتين اساسيتين:

الاولى: انه عليه السلام اصبح ملزماً بحكم دعوة أهل العراق (مهما تكن نواياهم التي لا يعلمها الا الله) ان يجيبهم، وكان يبدو في الظاهر انهم قد أدوا واجبهم امام الله، وامام الامة بدعوته لقيادتهم وتزعمهم ضد الدولة الظالمة، اما الخطوة التالية فينبغي ان تكون الاستجابة لهم من قبله.

وقد يطرح سؤال هنا: ماذا سيكون موقف الامة لو لم يستجب لدعوة أهل الكوفة، وظلت الدولة الاموية متمادية في ظلمها وانحرافها؟ لا بد أنها ستحمله مسؤولية ذلك كله، وستقول انها بذلت محاولة لتغيير الاوضاع وازاحة الحكم الجائر المنحرف، ودعت قائدها، غير انه لم يستجب وآثر القعود، و (الهرب) إلى مكان بعيد في اليمن مثلًا واكتفى بحملة اعلامية مضادة ضد الدولة، قد يكون مفعولها ضعيفاً، لانه لم يقدم على عمل ايجابي في سبيل القضاء عليها وحربها، واذا ما تصدى أهل الكوفة بقيادة بديلة عن قيادة الحسين في حال عدم استجابته لهم للنظام الجائر، وأبيدوا وطوردوا ولوحقوا وانهزموا، فان مسؤولية ذلك كانت ستقع بنظرهم ونظرنا نحن ايضاً على الامام عليه السلام.

هل سيكون جوابه: اني خفت الموت؟ وهل ستكون هذه حجة مقنعة لو اجاب بها؟

وهل ان من أقدموا على القتال مع الرسول صلى الله عليه وآله، ومع ابيه أمير المؤمنين عليه السلام ومنهم هو عليه السلام، قد ضمنت لهم حياتهم؟ الم يكن احتمال الموت قائماً؟ الم تحفل الساحة من قبل بالكاذبين والمنافقين والخائفين، ولم يكن ذلك ذريعة لمن عداهم، للتقاعس أو التماهل أو التراجع؟

ما حجة الحسين عليه السلام لمن يقول له: أقدم وسأفديك بنفسي ودمي ومالي؟ هل سنقتنع نحن عندما يقول لنا، وهو قد يعلم ذلك حقاً، ان أهل الكوفة ليسوا أهل صدق، وانهم ليسوا في موقف يتيح لهم التماسك والاتحاد ورص الصفوف للسير على خطاه؟

وهل اننا سوف لن نقول له: ومن ادراك بذلك؟ أليس من المحتمل انهم قد تخلوا عن مواقفهم المتذبذبة مع ابيك أمير المؤمنين، واخيك الحسن عليه السلام، وانهم قد ندموا حقاً، وانهم صادقون هذه المرة بكل تأكيد؟ وقد يكونون صادقين حتى آخر

لحظة لهم مع مبعوثه مسلم بن عقيل، ثم تخلوا عنه بعد ذلك بفعل العوامل العديدة التي سنذكرها في حينها بعون الله.

كان الحسين عليه السلام يرى انه لو لم يستجب لدعوة أهل الكوفة، والتي سيكون ثمنها باهضاً جداً يكلفه حياته وحياة الصفوة من أهل بيته واصحابه، لكان بذلك قد اعطى الضوء الاخضر الدائم للانحراف، ولكان موقف الامة كلها منه غير موقفها الحالي، (رغم اننا لا نزال نجد من يؤاخذه على تصديه لدولة الانحراف والظلم الاموية، ويعتقد انه قد سبب بذلك فرقة الامة، وقضى على أمنها ووحدتها وسلامها وهدوئها)، ولو لم يستجب لكان قد ضحى بالاسلام في سبيل حفنة من السنين، سيقضيها على هذه الارض، وسيطوى سجله، وسيذكر اسمه مقروناً باسماء اولئك الذين كانوا مصدر شقاء الامة وانحرافها، وابتعادها عن الاسلام.

اما القضية الثانية التي عرضها الامام عليه السلام في معرض رده على ابن عباس، والتي تساءل فيها عندما عرضها عليه: ما حكمه في قوم اخرجوه من وطنه وداره وقراره وتركوه خائفاً مرعوباً، لا يستقر في قرار، ولا يأوي إلى جوار، يريدون بذلك قتله وسفك دمه، وهو لم يشرك بالله شيئاً ولا اتخذ من دونه ولياً، ولم يرتكب منكراً ولا اثماً.

لقد اخرج من المدينة مطارداً (او يستسلم ويتخلى عن موقفه برفض البيعة)، لقد كان خوفه على الاسلام لا على نفسه الشريفة، ويكاد يخرج ويطارد، ويلقى القبض عليه في مكة ايضاً.

أليس موقف أهل العراق الذي يلوح فيه بارقة أمل محتمل أفضل من موقف أهل الحجاز في ذلك الحين؟ الذين حكم عليهم ابن عباس وقد عرض عليه الامام موقفهم، بانهم قد كفروا بالله ورسوله صلى الله عليه وآله لما فعلوه به عليه السلام.

كان الموقف يبدو عصيباً في ظل الدولة المتجبرة، التي اخضعت الامة كلها لمشيئتها وحكمها وسلطانها، وكان الموت يلوح كشيء محتمل جداً امام التصدي لتلك الدولة، وهو ما لم يكن منه بد.

وقد يقول قائل: اذا كان الامام عليه السلام قد ترك خائفاً، فلماذا يحمل نفسه اكثر من طاقتها ولا يستسلم؟ وهذا اشتباه ناتج عن عدم فهم النص، وذلك لان خوف الامام الحسين عليه السلام كان تماماً مثل خوف موسى عليه السلام، لقد كان خوفه عليه السلام

على الاسلام، وعلى الامة الاسلامية، من الانحراف، ولم يكن خوفه على نفسه الشريفة، غير ان الخوف من السلطة الظالمة على الدين والمسلمين لا يبرر الاستسلام لها، والا لكان ذلك ذريعة لكل المستسلمين والمنهزمين، وكان ذلك سلاحا بيد كل الظالمين والجبارين.

ان افضل دليل على ان خوف الحسين عليه السلام لم يكن خوفاً على نفسه هو ترديده عندما خرج من المدينة للآية التي تتحدث عن خروج موسى عليه السلام خائفاً على الشريعة الالهية، ان الحسين عليه السلام بمواجهة الموقف كله، آثر ان يتعرض لكل ما يمكن ان يخيف الانسان العادي الذي لا يحمل قضية عادلة كبيرة، على ان لا يتخلى عن قضية تصحيح الانحراف المتمادي المتسارع، ولم تكن الفرصة امامه كافية الا للقيام بما قام به. اننا نؤكد هنا ان الامام عليه السلام انطلق من تصور ووعي اسلاميين خالصين، ولم يضع امامه الا مقياساً واحداً للشهادة والنصر والنجاح، هو مقياس الاسلام. وهكذا قرن الشهادة بالفتح أو النصر، كما جاء برسالته إلى اخيه محمد بن الحنفية (رض) ومن تخلف من بني هاشم بالمدينة، وهو امر يصعب فهمه من قبل اولئك الذين لا يفهمون الاسلام، والذين تخلوا عنه وابتعدوا عن طريقه.

فكيف ينتصر من يستشهد (او يموت بعبارة الجاهل والمنهزم)،

انه ينتصر عندما ينتصر الاسلام، ويجد من يحمله ويضحي من اجله،

وهكذا كانت سنة الهية، النصر فيها مرهون بمن ينصر الله ودينه،

وهل الله بحاجة إلى سيف ينتصر به، ام انه يريد ان يرى مدى الاستجابة الواعية الخلاقة الحقيقية لمفاهيمه واحكامه ودينه؟ ويري ملائكته ان من جعله خليفة في الارض جدير بهذه الخلافة، وجدير بحمل الامانة والمسؤولية. لم يقل الحسين عليه السلام ان التصدي للظالمين لم يكن محفوفاً بالمخاطر والمتاعب والمخاوف، وان الطريق معبدة دائما امام المصلحين والثائرين، وانما اراد افهام الامة انه طريق صعب وطويل ومتعب، وعلى الذي يريد سلوكه ان يوطن نفسه على كل شيء.

النصيحة الثالثة : لا تسر بأهلك ونسائك

وظل أمل اخير لدى ابن عباس، ان يترك الامام عائلته ويذهب بدونهم إلى الكوفة ليجنبهم رؤية المنظر المؤلم لقتله وقتل اصحابه، وهو ما بدا امراً مؤكداً لابن عباس ايضاً، قال له ابن عباس:

(ان كان لا بد من المسير إلى الكوفة، فلا تسر بأهلك ونسائك، وصبيتك، فوالله اني لخائف ان تقتل وهم ينظرون اليك).

ولم يستجب الامام عليه السلام لطلب ابن عباس هذا ايضاً، واعلمه انه انما يأخذهم معه بأمر الهي، مثلما كان خروجه بأمر الهي:

(شاء الله ان يراني قتيلًا، وشاء الله ان يراهن سبايا).

وسنجد في الحديث عن نتائج الثورة بعون الله ان أخذ الأمام عياله معه.

أفاد قضية الثورة كثيراً وشكل صوتاً اعلامياً مؤثراً على كل طبقات الامة، خلال مسير العودة الطويل من كربلاء إلى الكوفة، ثم الشام ثم المدينة، والذي لا بد ان يكون قد استغرق وقتاً طويلًا.

وكانت الكثير من صور الثورة ومشاهدها واحداثها ستشوه وتزور، لو لم ترافق نسوة آل البيت الحسين عليه السلام ليشهدن كل ما حدث، ويروين للامة المشاهد الخارقة التي لا تتاح لها مشاهدتها دائماً، والتي دلت على صدق توجه الثورة وقائدها عليه السلام، وقرب الثوار من مبادىء الاسلام الحقيقية التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله، وعزمهم إلى آخر لحظة على المضي بمهمتهم الكبيرة لانقاذ الامة وتعريفها على واقعها المؤلم.

وقد روي ان محمد بن الحنفية لم يستطع الصبر على البقاء في المدينة، وقد علم بعزم الامام على المسير إلى العراق، فالتحق به في مكة[١].

وقد بلغ من شدة حزنه انه كان يبكي بكاء حاراً، حتى سمع وكف دموعه مثل المطر في طست كان بين يديه فيه ماء وهو يتوضأ[٢].

وقد توجه اليه يرجوه ان يبقى في مكة ولا يذهب إلى الكوفة:

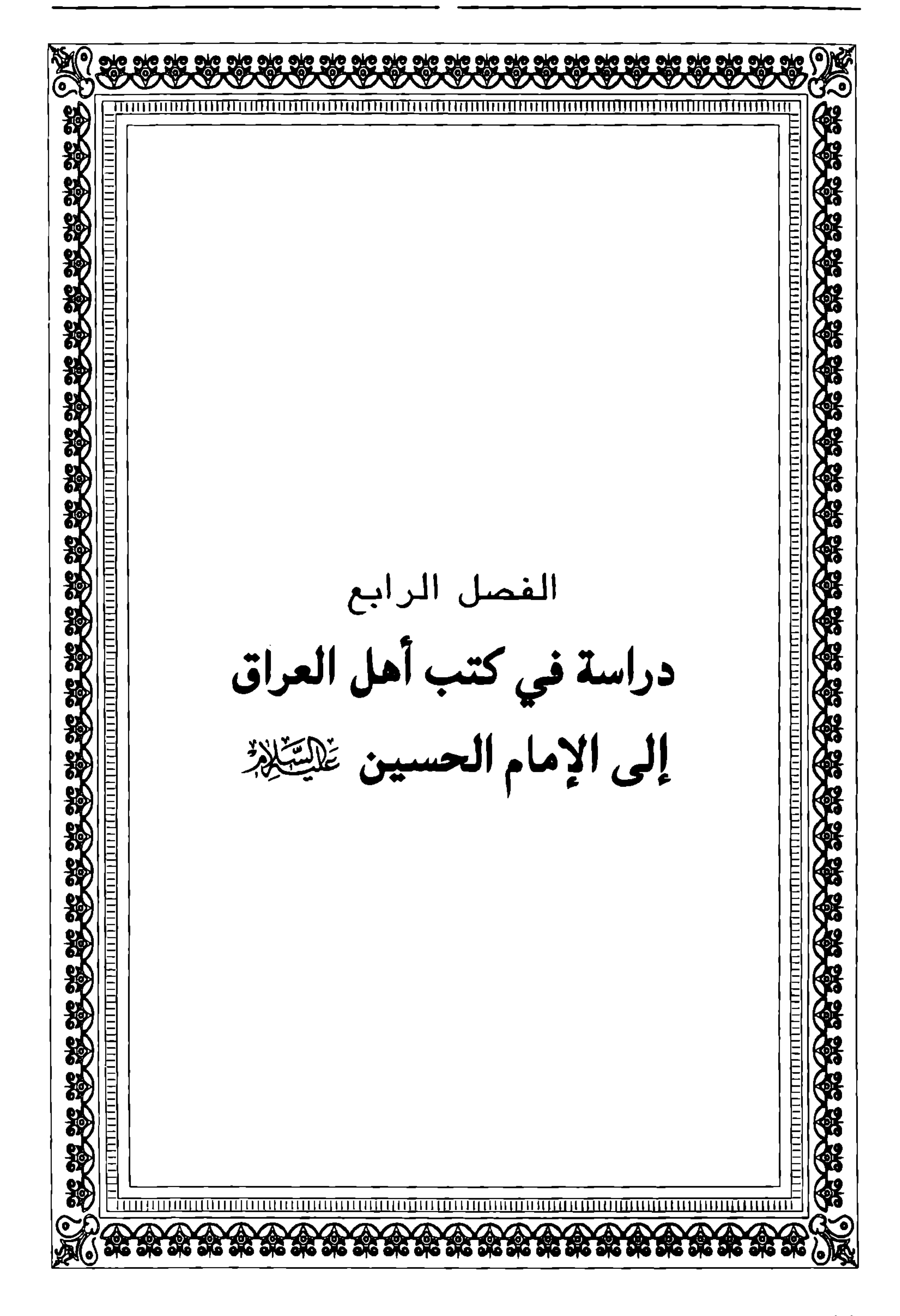
(يا اخي، ان أهل الكوفة من قد عرفت غدرهم بأبيك واخيك، وقد خفت ان يكون حالك كحال من مضى، فان رأيت ان تقيم، فانك اعز من في الحرم وامنعه)[٣].

غير ان الحسين عليه السلام لم يقره على رأيه هذا، وابدى خشيته من ان يغتاله اعوان يزيد في الحرم، فيكون هو الذي تستباح به حرمة هذا البيت، فاقترح عليه ابن

(١) كما روى الخوارزمي في مقتله.

(٢) و(٣) تاريخ الاسلام للذهبي ١/ ٣٤٣.

الحنفية كما اقترح عليه من قبل أن يتوجه إلى اليمن، فوعده الامام ان ينظر في اقتراحه، ويبدو انه لم يكن يرغب ان يطيل الحديث الذي كان فيما يبدو يسبب اذى بالغاً لاخيه، اذ ان تصميمه على الذهاب إلى العراق كان تصميماً نهائياً، وقد ارتحل وقت السحر بعيد تلك المحاولة، وقد لحق به ابن الحنفية متسائلاً عن سبب ذلك، بعد ان وعده الحسين عليه السلام بدراسة اقتراحه، ثم لما راى ان كل شيء قد اعد، وان الحسين عليه السلام كان بسبيله إلى الانطلاق نحو الكوفة، طلب منه عدم اخذ النساء معه، غير ان الحسين عليه السلام لم يستجب لذلك أيضاً، ربما للاسباب التي ذكرناها من قبل والتي سنفصل الكلام عنها فيما بعد بعون الله.



الفصل الرابع

دراسة في كتب أهل العراق إلى الإمام الحسين عليه السلام

كتب أهل العراق إلى الامام الحسين عليه السلام وأثرها على قرار الحسين عليه السلام بالثورة ضد يزيد

في البداية لا بد لنا ان نذكر ان موقف الامام الحسين عليه السلام من الدولة الاموية، ومن بيعة يزيد على الخصوص، منذ ان مهد لها معاوية، وحشد لها كل امكانات الدولة، كانت حافزاً لاهل العراق للتطلع اليه كأمل وحيد يخلص الامة من تلك الدولة الطفيلية، التي استأثرت بمقدرات الامة ومكاسبها التي تحققت في ظل الإسلام.

وربما اراد عليه السلام لموقفه المناهض للدولة ذاك، انِ يكون حافزاً لكل أبناء الأمة، لا لأهل الكوفة وحدهم، والذين يمثلون ثقل العراق كله، لكي يرفضوا تلك الدولة.

وربما اشارت بعض حوادث التاريخ إلى انه عليه السلام لم يكن يعول كثيراً على موقف أهل الكوفة ولم ينف ما قاله (ناصحوه) له عنهم، ولعل الفئة الوحيدة التي كان يعول عليها ويدرك انها ستبقى معه إلى النهاية، هي الفئة التي خرجت معه منذ البداية، والتحق بها نفر محدود عبر مسيرته الملحمية من مكة إلى العراق.

ولعله كان سيخرج بها وحدها حتى ولو لم يكاتبه أهل الكوفة، وهو ما فعله بالضبط، وخاض بها تلك المعركة الباسلة الفاصلة.

غير ان كتب أهل الكوفة ومهما تكن نوايا اصحابها وصلابتهم حملته في النهاية المسؤولية امام الامة، واصبح لزاماً عليه الاستجابة لها كما اشرنا إلى ذلك وكما سنوضحه بمزيد من التفصيل ان شاء الله، كما حمل هو بدوره الامة كلها مسؤولية التقاعس والقعود والتخاذل، وخصوصاً اولئك الذين كتبوا اليه، وكانت كتبهم شاهدة عليهم إلى يومنا هذا.

كما لا بد لنا ان نذكر ان أهل العراق، واهل الكوفة منهم على وجه الخصوص، لم يكتبوا له للمرة الأولى بعد وفاة معاوية واستخلاف يزيد فقط، بل انهم كتبوا اليه خلال حكم معاوية، بعد ان دس السم للامام الحسن عليه السلام وقتله، لجس نبضه ومعرفة مدى استعداده للثورة عليه والإطاحة بدولته.

فقد ذكر ان المسيب بن عتبة الفزاري (قدم في عدة معه إلى الحسين بعد وفاة الحسن، فدعوه إلى خلع معاوية، وقالوا: قد علمنا رأيك ورأي اخيك فقال: اني لأرجو ان يعطي الله أخي على نيته في حبه الكف، وان يعطيني على نيتي في جهاد الظالمين)[1].

فلم يكونوا اعرف منه بأخيه، ولم يكونوا اعلم منه بدوافع الامام الحسن من الصلح مع معاوية وموقفه منه، ذلك الموقف الذي ادى في النهاية إلى حقن دماء آل الرسول صلى الله عليه وآله واصحابهم، بعد ان كادت تضيع هدراً وتضيع معها قضية الاسلام كله، كما أدى إلى ان تتهيأ الامة نفسياً لنقد الحكم الاموي بقيادة معاوية بعد ان انفرد بالسلطة، وكشف القناع عن وجهه، ولم يعد يكلف نفسه حتى التظاهر بالشعارات الاسلامية التي رفعها في السابق، وادعى فيها حرصه على وحدة المسلمين ومصالحهم، وألحق بالاسلام اكبر دمار يمكن ان يلحق به.

واذا ما صح ما رواه ابن كثير، فان الامام الحسين عليه السلام لم يحاول هنا شجب ما قام به الامام الحسن عليه السلام، بل لعله كان شريكه في قرار الصلح، اذ انه كان الاجراء الوحيد الممكن في ظل اوضاع كانت الامة فيها مهزومة ومتعبة من المشاكل التي جرها اليها معاوية، الذي جعل قسماً كبيراً من ابنائها ينحاز اليه بفعل الاساليب والامكانات التي سخرها لذلك الغرض، والذي لم تستطع كشفه على حقيقته الا بعد ان كانت محصلة حكمه الاتيان بيزيد خليفة له على الامة، والا بعد ان تمادى في انحرافه ذلك التمادي المرعب الذي لا زلنا نعاني منه لحد الآن.

كتب شيعة آل البيت إلى الحسين عليه السلام بعد وفاة الحسن عليه السلام

وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه ان شيعة آل البيت اجتمعوا في الكوفة بعد وفاة الامام الحسن عليه السلام، في دار سليمان بن صرد وكتبوا إلى الحسين عليه السلام يعزونه:

(بسم الله الرحمن الرحيم. للحسين بن علي من شيعته وشيعة ابيه أمير المؤمنين.

سلام عليك فانا نحمد اليك الله الذي لا اله الا هو.

---

(١) ابن كثير ٨/ ١٦٤.

اما بعد: فقد بلغنا وفاة الحسن بن علي عليهما السلام يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً، وغفر الله ذنبه وتقبل حسناته وألحقه بنبيه، وضاعف لك الاجر في المصاب وجبر بك المصيبة من بعده، فعند الله نحتسبه، وانا لله وانا اليه راجعون. ما اعظم ما اصيب به هذه الامة عامة، وانت وهذه الشيعة خاصة بهلاك ابن الوحي وابن بنت النبي، علم الهدى ونور البلاد المرجو لاقامة الدين واعادة سير الصالحين، فاصبر رحمك الله على ما اصابك، ان ذلك لمن عزم الامور، فان فيك خلفاً عمن كان قبل، وان الله يؤتي رشده من يهدي بهديك، ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك المحزونة بحزنك المسرورة بسرورك، السائرة بسيرتك، المنتظرة لامرك، شرح الله صدرك، ورفع ذكرك، واعظم اجرك، وغفر ذنبك ورد عليك حقك)[1].

ويبدو ان هذه الرسالة ان صح انها قد وردت بهذه الصيغة، حاولت، بشكل رفيق حذر، جس نبض الامام عليه السلام ومعرفة موقفه من معاوية، بعد ان خلت الساحة من الامام الحسن عليه السلام وتحمل هو مسؤولية الامامة.

كما يبدو انهم أو بعضهم كانوا لا يرون ما رآه الامام الحسن عليه السلام من الصلح مع معاوية، وانهم ينتظرون موقفاً مغايراً من الامام الحسين عليه السلام.

فما الذي تغير، حتى يغير الامام موقفه، ويخالف اخيه عليه السلام بعد موته، ومعاوية لا يزال يحكم وبرفع نفس الشعارات الكاذبة التي رفعها في السابق، ويضلل الامة بادعاءآته واباطيله، ولا يمتنع عن خوض حرب ابادة ضد كل من يتعرض له ولسلطانه، وقد امعن باستدراج فئات كبيرة من الامة للاقتناع باهميته كصحابي مقرب من الرسول صلى الله عليه وآله، وردت فيه احاديث لفقها له بعض مأجوريه ومرتزقته.

ولعل الموقف المناسب هو كشفه وكشف مخططاته ونواياه، حتى لا يعود عند احد شك بشأنها، وهو ما قام به عليه السلام، اذ تصدى بحزم لاستخلاف يزيد بعيد وفاة الامام الحسن عليه السلام، وكشف تبعات هذا الامر على الامة، كما كشف عن غدر معاوية، واخلاله بوعوده التي قطعها على نفسه في وثيقة الصلح مع الامام الحسن عليه السلام، وتراجعه عن تنفيذ كل بنودها، بما فيها البند الخاص بان يكون الحسن عليه السلام خليفة من بعده اذا حل به حادث الموت، ثم من بعده الحسين عليه السلام.

(١) تاريخ اليعقوبي، م ٢ ص ٢٥٨.

واذ عمد معاوية إلى الغدر بالحسن عليه السلام وسمه، فلا شك ان نواياه كانت مشابهة بالنسبة للحسين عليه السلام، لكي يخلو الجو امام يزيد في نهاية الامر، ويستأثر بكل شيء.

وهذه أول نية سيئة واضحة كشفتها الامة رغم محاولات معاوية للتستر والتعتيم عليها.

ولعل ما فعله بالامام الحسن عليه السلام، هو الذي دفع أهل الكوفة للكتابة إلى الحسين عليه السلام، للنهوض بهم ضد دولة معاوية.

وكتب اليه جعدة بن هبيرة رسالة مماثلة، الا انها كانت اوضح من مثيلاتها، وقد عبر فيها عن رغبة شيعة آل البيت بثورة الحسين عليه السلام على معاوية. وقد جاء فيها:

(اما بعد: فان من قبلنا من شيعتك متطلعة انفسهم اليك لا يعدلون بك احداً، وقد كانوا عرفوا رأي الحسن اخيك في دفع الحرب، وعرفوك باللين لاوليائك والغلظة على اعدائك والشدة في أمر الله. فان كنت تحب ان تطلب هذا الامر فأقدم علينا، فقد وطنا انفسنا على الموت معك)(١).

ولأن موقفه كان كموقف اخيه، ولأن معاوية لا يزال يضلل الامة بأكاذيبه والاعيبه، فان الحسين عليه السلام لم ير ان يقوم بموقف مغاير لموقفه السابق، ونصح من كاتبوه بالتريث، ريثما تكشف اوراق معاوية وربما يكون ذلك بعد هلاكه، وقد كتب اليهم الرسالة التالية:

(اما اخي، فارجو ان يكون الله وفقه وسدده فيما يأتي. واما انا فليس رأي اليوم ذاك. فالصقوا رحمكم الله بالارض، واكمنوا في البيوت واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حياً، فان يحدث الله به حدثاً وانا حي كتبت اليكم برأيي)(٢).

والملاحظ في رسالته عليه السلام انه لم يدع أهل الكوفة إلى صرف النظر نهائياً عن الثورة على الدولة الاموية، بل اقرهم عليها، وطلب منهم الاستعداد لها ريثما يهلك معاوية، وكان برسالته كمن يطلب منهم تنظيم صفوفهم وعدم فسح المجال لاي دخيل بينهم، قد يكشف امرهم ويجعل الدولة تستريب بنواياهم، وتكشف خططهم، فهو يقر الثورة مبدئياً، غير انه لم ير ان الوقت كان مناسباً لها في ذلك الحين.

---

(١) و(٢) أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال ص ٢٠٣.

الاتصالات المستمرة بين أهل الكوفة والامام الحسين عليه السلام

وتكشف الاخبار التاريخية العديدة ان الامام عليه السلام كان على اتصال مستمر بأهل الكوفة وإنهم كانوا يفدون عليه في المدينة لمعرفة موقفه من بعض الاحداث، واخذ رأيه بشأنها، وذلك يدلل على انهم كانوا يتطلعون اليه كقائد فعلي واجب الطاعة، كما حدث عندما زاره وفد منهم اثر اقدام معاوية على قتل حجر بن عدي واصحابه، مما اثار انتباه مروان عامل معاوية على المدينة وحفيظته، فحاول ان يحرض معاوية عليه.

(اتى نفر من الشيعة حسيناً في المدينة، فأخبروه ما حدث لحجر واصحابه من قتل وسجن وتشريد، فشق ذلك عليه، وأقام ذلك النفر في المدينة يختلفون اليه، ونمى الخير إلى والي المدينة مروان بن الحكم، فكتب إلى معاوية:

ان رجالًا من أهل العراق قدموا على الحسين بن علي (رض)، وهم مقيمون عنده يختلفون اليه فاكتب الي بالذي ترى)[١].

فلا يستفزنك السفهاء

محاولة من معاوية لتصوير الامام الحسين عليه السلام كشخص انفعالي

وقد اوصى معاوية مروان بعدم التعرض للامام عليه السلام، لانه رأى ان الاسباب التي ذكرها غير كافية للعدوان عليه بحجة مناهضة دولته، وكتب اليه:

(لا تعرض للحسين بشيء، فقد بايعنا، وليس بناقض بيعتنا، ولا مخفر ذمتنا)[٢].

ولعله اراد بذلك تشجيع الامام على الاقتراب من نظام حكمه القائم، وربما علم ان الحسين عليه السلام لم يكن ليتخذ خطوة مغايرة لخطوة اخيه الحسن والاوضاع لا تزال كما هي، غير انه كتب اليه بنفس الوقت يعلمه بان خبر اتصاله باهل العراق معروف لديه، وقد لجأ إلى التهديد والوعيد حاسباً ان ذلك وحده الكفيل بمنع الامام من التحرك ضده،

(اما بعد، فقد انتهت الي امور عنك لست بها حرياً، لأن من اعطى صفقة بيمينه

---

(١) و(٢) المصدر السابق ص ٢٠٥/٢٠٦.

جدير بالوفاء، فاعلم رحمك الله اني متى انكرك تستنكرني، ومتى تكدني اكدك، فلا يستفزنك السفهاء الذين يحبون الفتنة والسلام)[١].

وقد اجابه الامام عليه السلام قائلاً:

(ما اريد حربك ولا الخلاف عليك)[٢].

وقد روى ابن كثير ان معاوية كتب إلى الحسين عليه السلام قائلاً:

(وقد انبئت ان قوماً من أهل الكوفة قد دعوك إلى الشقاق. واهل العراق من قد جربت، قد افسدوا على ابيك واخيك، فاتق الله، واذكر الميثاق، فانك متى تكدني اكدك، فرد عليه الحسين عليه السلام: اتاني كتابك وانا بغير الذي بلغك عني جدير، والحسنات لا يهدي لها الا الله. وما اردت لك محاربة ولا عليك خلافاً، وما اظن لي عند الله عذراً في ترك جهادك، وما اعلم فتنة اعظم من ولايتك امر هذه الامة)[٣].

وعبارة معاوية:

(فلا يستفزنك السفهاء الذين يحبون الفتنة).

عبارة تتكرر دائماً وبصيغ متعددة، وقد دست في بعض اقوال معاوية وكتبه وكذلك في بعض اقوال رجال الدولة الأموية، وأريد منها كما أوضحنا، اظهار الامام عليه السلام كشخص منفعل مت أثر بتصرفات الاخرين، وانه قام بما قام به دون دراسة أو تمحيص أو حتى مجرد الاستماع لاراء الآخرين (العقلاء) والاخذ (بنصائحهم)، وليس شيء دل على بطلان تلك المزاعم من موقف الامام عليه السلام من أهل العراق ايام معاوية، ورفضه القيام بالثورة عليه في ذلك الحين.

ولو كانت للحسين عليه السلام تلك الاندفاعة العاطفية المزعومة، وعدم التبصر، كما حاول معاوية الايحاء بذلك، وكما اشار اليه بعض المتعلمين والكتاب والنقاد، لكان قد استجاب من اول وهلة لمطاليب أهل العراق، وسار معهم لمقارعة معاوية، غير انه علم كما علم اخوه عليه السلام من قبل، ان الظروف الموضوعية لم تكن مهيئة في عهد معاوية لاعلان الثورة، مع انه بيت نية الجهاد منذ البداية.

لم يعلن لزائريه انه سيتخلى نهائيا عن فكرة جهاد الظالمين، ولكنه ابلغهم عزمه

(١) و(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن كثير: ٨/ ١٦٤.

على استئنافه في الوقت المناسب، مع انه لم يتخل عن دوره الجهادي الكبير في تربية الامة واعدادها، وتزويدها بما يؤهلها للبقاء على قيد الحياة، بمواجهة الحملة الشرسة التي واجهتها لسلب كيانها وتحويلها إلى جثة هامدة.

ولم يكن هناك انسب من الوقت الذي خلت فيه الساحة من معاوية، وذهب معه بريقه وسلطانه، واصبح يزيد الخليفة والقائد الفعلي للامة، ولا بد هنا من لفت نظر الامة بشكل سريع إلى ما تتعرض له من مخاطر اذا ما استسلمت ليزيد وقبلته اماماً لها، وهو ما فعلته في عهد معاوية من قبل.

عدم خروج الامام الحسين عليه السلام على معاوية خطوة حكيمة

ولم يكن سكوت الامام الحسين عليه السلام عن معاوية، الا لنفس السبب الذي سكت فيه الامام الحسن عليه السلام عنه، لقد كان لمعاوية رصيده الكبير بين اوساط واسعة من الامة، ضللها واستغفلها، وكانت مقومات النفوذ والجاه والقوة كلها رهن يديه، يتلاعب بها كيفما شاء، وقد استدرج الامة لتقبل يزيد، اميرا للمؤمنين، وحاكماً باسم الاسلام، وكان يبسط سلطانه بشكل تمكن فيه من ابراز لمساته التي تميزت بالمكر والدهاء والتلاعب بالمشاعر والعواطف والنفوس، ولم يكن هيناً تحديه بشكل سافر ومعلن، وهذا ما دعى الحسين عليه السلام إلى ان يجيبه بما اجابه به عندما عاتبه على لقاءه ببعض مناوئيه، وربما على بعض نشاطاته الاخرى التي كان يقوم بها لتربية الامة وتوعيتها.

فقد اعلن عليه السلام، انه لا يعد للثورة على معاوية، مع انه اعلمه ان ذلك ما كان ينبغي له ان يقوم به فعلاً، وانه لا يرى في تركه عذراً امام الله، وهو يواجهه هذه المواجهة الواعية الصريحة، لا يخاف كيده، ولا بأسه ولا مكره.

فان معاوية ربما استغل ثورة الحسين عليه السلام عليه، ليستأصل كل من له علاقة حميمة بآل البيت عليهم السلام، وربما اسفر عن وجهه بشكل نهائي، عندما تتعرض مصالحه وحكومته للخطر الفعلي، فيعمد إلى ارتكاب مجازر كبيرة بحق فئات عديدة من المسلمين، بحجة الحفاظ على وحدة الامة وألفتها ومصالحها، إلى غير ذلك من الحجج والتبريرات التي اعتادها لتبرير لجوئه إلى القوة، وهو ما فعله (خلفاؤه) الامويون من بعده، عندما اعتمدوا اسلوب القوة والقمع والارهاب والتلاعب بمقدرات الامة وارواح ابنائها واموالهم.

لقد واجه الحسين عليه السلام تهديد معاوية بتهديد مماثل، واثبت قوله بفعل حاسم، فهو لم يبايع ليزيد، واعلن رفضه له على رؤوس الاشهاد، وبعلم الامة كلها.

فهل كان معاوية ممن يسكتون عن ذلك، ولا يعد للامر عدته؟

وهل كان من سيأتي بعد معاوية، سيسكت عن ذلك ويجعل منه نقطة ضعف وشرخاً في جدار الحكم الاموي، قد يتسع ويطول، ولا يمكن سده وعلاجه بعد ذلك؟

وهل كان معاوية لا يدرك (وربما يزيد من بعده ايضاً) ان اللحظة المناسبة لثورة الحسين عليه السلام، هي لحظة هلاكه واختفائه من الساحة؟

ولذلك: كان لا بد من تعويض نفوذ معاوية وبريقه وابهته وقوته بقوة بديلة، تتيح للامويين التصدي للحسين عليه السلام دون مخاطر حقيقية، ودون استفزاز الامة التي ألانها معاوية، وجعلها طوع يمينه تستجيب لطلباته ونزواته ومخططاته لتنفيذ اغراضه دون مناقشة أو اعتراض.

ان (الدهاء) والمكر والحيلة التي تمتع بها معاوية، والتي بلغت حداً جعلته جديراً باسم الشيطان الذي اطلقه عليه أمير المؤمنين عليه السلام، حلت محلها القسوة المعلنة التي اشهرها يزيد بوجوه اعدائه كما رأينا، في اهم حدث تاريخي وقع في تاريخ الدولة الأموية، بل في تاريخ الاسلام كله وهو: ثورة الطف.

ومع ذلك، لو تساءلنا: هل نجحت هذه القسوة المعلنة التي فاقت كل حد، واعتماد اسلوب القمع والتقتيل لجعل الامة تسكت في النهاية؟

هل نجح التهديد والوعيد لرد الامام عليه السلام عن عزمه على اعلان الثورة وعدم الاستجابة باي شكل من الاشكال ليزيد وحكمه وسلطانه؟

بالتأكيد لم تنجح. وخرج الامام الحسين عليه السلام من مكة إلى الكوفة مع انه كان يعلم ان الامة ربما لم تعد نفسها بعد للتصدي الحقيقي للحكم الاموي.

لقد وردت كتب أهل العراق ورسلهم إلى الامام قبل وبعد حكم يزيد، فلم تكن الامة لتنس وجوده عليه السلام فيها، وموقعه منها ومن قائدها الاول صلى الله عليه وآله، وكانت تتوقع ان تكون صحوتها ويقظتها على يديه. ومع انه كان يعلم انها ربما ستتخاذل على

الاغلب امام بطش الدولة وسلطانها وجبروتها، الا انه كان بنهضته يعد لنهضة دائمية للامة، قد لا تتم في الجيل المعاصر له، وقد تتم بعد سنين عديدة، وقد تمر الامة بحالة سبات وخمود مماثلة، وقد تكون لها نهضات وصحوات دائمية، تشمل الامة كلها في جميع اقطارها، فتسعى لتطبيق الاسلام واعتماده في كل شؤون الحياة، كما كان الامر في ايام الدولة الاسلامية الاولى، وتنبذ كل اشكال وصيغ الدول الطاغوتية الفرعونية المتسلطة.

لم يكن مقياس الربح والخسارة في هذه الثورة خاضعاً للمواصفات الجاهلية التي اخذت تشيع، وانما كان مقياساً يأخذ بالحسبان دائماً ما يمكن ان يعود على الاسلام من نفع وخير.

ان الرغبة بتحقيق هدف معين، والنية الصادقة للوصول اليه، قد لا تضمن لصاحبها الوصول اليه بالسرعة التي يتمناها، وربما اعتبر في مقاييس الاسلام واصلًا اليه حتى ولو لم يكمل المشوار بانقطاع حياته واختفائه من المسرح.

ولو ان احد المشاركين بمعركة احد وليكن حمزة مثلًا، قد قتل قبل ان يتاح له ان يشهد الانتصارات اللاحقة للمسلمين على المشركين، أكان قتاله يعد عبثاً في تلك المعركة، وانه لم يكن سوى احد الخاسرين، ما دام لم ير بعينيه سيادة الاسلام وانتشاره وانتصاره فيما بعد؟ وهل كان استشهاد المسلمين الاوائل عبثاً، ما داموا لم يتمتعوا هم شخصياً بالمكاسب التي تحققت في ظل الاسلام؟

قد يكون الجواب نعم، في مفهوم الدولة الطاغوتية والمطلقة والتي يحكمها افراد حكماً استبدادياً غير مقيد، اما في مفهوم الاسلام، فلا يعد ذلك عبثاً، ما دام من قاتل قد أدى دوره، سواء استشهد ام لم يستشهد، شهد بعينيه النصر أو لحق به الموت، ان المهمة التي اوكلت له مهما كانت صعبة أو قاسية، اوكلت للجميع وقد اداها هو بنجاح، وبذل في سبيلها اعز ما يمكن ان يقدمه، وهو حياته، فماذا يمكن ان يقدم بعد ذلك، اما الجزاء، فلا ينتظره الا من الذي اوكل اليه تلك المهمة، وهو الله سبحانه، وهو على يقين من حسن هذا الجزاء، ما دام قد آمن به، وقدم كل ما قدم في سبيله،

(لماذا كان الانبياء على مر التاريخ اصلب الثوار على الساحة التاريخية؟

لماذا كانوا على الساحة التاريخية فوق كل مساومة، فوق كل مهادنة، فوق كل تململ يمنة أو يسرة؟ لماذا كانوا هكذا؟

لماذا انهار كثير من الثوار على مر التاريخ، ولم يسمع ان نبياً من أنبياء التوحيد انهار أو تململ أو انحرف يمنة أو يسرة عن الرسالة التي بيده، وعن الكتاب الذي يحمله من السماء؟

لان المثل الاعلى المنفصل عنه، الذي هو فوقه، الذى اعطاه نفحة موضوعية من الشعور بالمسؤولية، وهذا الشعور بالمسؤولية تجسد في كل كيانه، في كل مشاعره وافكاره وعواطفه.

الشعور الموضوعي بالمسؤولية لا يكلفه الا المثل الاعلى الذي يكون جهة عليا، يحس الانسان من خلالها بأنه بين يدي رب قادر سميع بصير محاسب مجاز على الظلم، مجاز على العدل)[1].

فقد علمنا اذاً ان الحسين عليه السلام لم يبايع يزيد في حياة معاوية، وقد رفضه منذ اليوم الاول الذي استخلفه فيه، وان الكتب كانت تترى عليه ايام معاوية للخروج على النظام الاموي، وانه لم يستجب لذلك، لانه رأى ان الظروف غير مواتية لذلك، وانه بخروجه سيلحق الضرر بنفسه وبالامة على السواء، وسيكون خروجه عملًا انتحارياً لا طائل تحته، ولم يكن عليه السلام ممن يفرط بحياته أو بحياة الامة أو مستقبلها أو أمنها ووحدتها دون سبب، مع انه وجد حياته رخيصة امام الهدف الكبير، وهو لفت نظر الامة إلى واقعها، ثم انقاذها عندما تتغلب على هذا الواقع، حتى ولو تم ذلك بعد عشرات أو مئات من السنين. كان عليه السلام يريد ان توجد صلة مستمرة حية بين الامة ورسالتها، ولم يرد لهذه الصلة ان تضعف أو تنقطع أو تضمحل تحت اي ظرف من الظروف.

(لما بايع الناس معاوية ليزيد، كان الحسين ممن لم يبايع له، وكان أهل الكوفة يكتبون اليه يدعونه إلى الخروج اليهم في خلافة معاوية، كل ذلك يأبى عليهم.

(١) المدرسة القرآنية ١٨٧/ ١٨٩.

فقدم قوم منهم إلى محمد بن الحنفية يطلبون اليه ان يخرج معهم، فأبى وجاء إلى الحسين يعرض عليه امرهم فقال له الحسين: ان القوم انما يريدون ان يأكلوا بنا ويستطيلوا بنا ويستنبطوا دماء الناس ودماءنا، فاقام الحسين على ما هو عليه من الهموم، مرة يريد ان يسير اليهم، ومرة يجمع الاقامة عنهم)[1].

واذا صح هذا الخبر، فان الحسين عليه السلام هنا يرى اختلاف الدوافع والفهم لدى أهل الكوفة، ففي الوقت الذي لا يستجيب لهم هو عليه السلام، نراهم يتجهون إلى محمد بن الحنفية، ويبدو من هذا انه سواء عندهم من يدعونه لقيادتهم الحسين عليه السلام امام الامة وخليفة رسول الله أو احد إخوته حتى ولو لم يكن اماماً، مع ان الامام لا يزال بين اظهرهم، وربما ظهر من واقع حالهم وبما عرفه الامام عنهم من قبل، لانه عاش بين ظهرانيهم ايام خلافة ابيه أمير المؤمنين عليه السلام فترة حافلة بالاحداث، انهم يختلفون فعلًا وانهم ليسوا نمطاً واحداً من الناس يحمل نفس الدوافع والفهم والتصورات والقوة، ومن هنا جاء جوابه لابن الحنفية، مفسراً دوافع القوم، مع انه كان يرى بصورة عامة حسن نوايا أغلبهم وصدقهم، وذلك ما رجح لديه الاستجابة لهم في بعض الاحيان.

ومهما يكن من امر، فقد كان هم الامام كبيراً، وكانت المهمة صعبة، غير ان الامر الاكيد انه لم يستجب للدعوات التي وردت عليه للخروج، ولم تستخفه كما ادعى بعض المغرضين والمناوئين، وفي مقدمتهم معاوية كما اسلفنا وبعض من لم يفهموا العقلية التي حملها الامام عليه السلام، عقلية التغيير، تلك التي قامت على الاسلام وتصوراته وقيمه ومثله فقط، فلم تشبها شوائب المصلحة والنظرات الجاهلية المحدودة التي تعتمد مقاييس ومفاهيم مختلفة، للربح والخسارة والحق والباطل والصحة والخطأ، وانطلت عليهم حيل معاوية وتبريراته عندما استدرجهم إلى تبني تفسيره، ذلك التفسير الذي يتيح له ولخلفائه من بعده ان يقولوا: ان قرار الحسين عليه السلام كان عاطفياً ولم يكن موزوناً أو قائماً على فهم صحيح لواقع أهل الكوفة، أو واقع الامة بشكل عام، وانه كان انفعالياً. إلى غير ذلك من الاكاذيب

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ٨/ ١٦٣، وقد ذكر السيوطي فى تاريخ الخلفاء ص ١٩٢: (واما الحسين فكان أهل الكوفة يكتبون إليه يدعونه إلى الخروج إليهم زمن معاوية، وهو يأبى فلما بويع يزيد اقام على ما هو مهموماً يجمع الاقامة مرة ويريد المسير اليهم أخرى).

والافتراءات التي يدحضها واقع الامام وافعاله، وما قام به فعلًا مما ذكرته لنا كتب التواريخ المعتمدة لدى جميع المسلمين.

الأضاليل الأموية الجديدة

١ - اجتهاد الحسين عليه السلام السياسي لم يكن على مستوى الحماس الديني

وهكذا راحوا في غمرة اضطراب المفاهيم وتصارع القيم والمصالح، وغياب التصور الاسلامي الصحيح، يأخذون على الحسين عليه السلام رفضه المعلن ليزيد وخروجه في الوقت والمكان الذي خرج فيه، وتطالعنا مقولات غريبة من اناس تصدوا لبحث هذه المسألة الشائكة دون استعداد لها، ودون فهم واقعي لمجريات الاحداث والوقائع التي ادت اليها، وجعلت منها امراً حتمي الوقوع.

يقول احد هؤلاء الكتاب:

(اجتهد الحسين في الخروج وظن انه لا يسعه الا ذلك للامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن اجتهاده السياسي لم يكن على مستوى الحماس الديني والعاطفة الايمانية المتأججة.

ان اتخاذ القرار في هذا الخروج كان عاطفياً، ولم يبن على دراسة وافية للمكان والاشخاص.

كان اختيار الحسين لاهل الكوفة اختياراً في غير موضعه، ان الحسين لم يستمع للشورى، اعتقد ان الحسين كان مصدقاً تماماً لكلام أهل الكوفة في نصرته، وقد استحوذت عليه قضية الخروج على يزيد، وتملكته العاطفة البشرية في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر)[١].

هكذا تصور هذا الكاتب وقد ذكرنا قوله مثالًا على اقوال العديدين ممن يرون رأيه وقد حاول ان يخوض غمار مناقشة الاحداث التاريخية المصيرية والمهمة كقضية ثورة الحسين عليه السلام، ويدلي بدلوه، وحسم المسألة بان رأى ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كان مجرد نزعة أو عاطفة ذاتية، تملكت الامام الحسين عليه السلام

(١) محمد سليمان العبدة، حركة النفس الزكية، دار الارقم/ الكويت ط ١، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٣م.

وتغلبت على شعوره حتى راح تحت وطأة الشعور بها يمارسها وكأنها امر عبثي نابع عن حماس ديني غير واعٍ، وعاطفة ايمانية متأججة غير منضبطة، وان اجتهاده (السياسي) لم يصل إلى مستوى عاطفته الدينية وحماسه، وكان اجتهاداً غير موفق بدليل الخروج في الموعد غير المناسب، (ولم يوضح الكاتب الموعد المناسب) وان اختياره لاهل الكوفة كان غير موفق وغير مناسب، وكان يصدقهم بفعل حماسه للخروج على يزيد، فهل رأينا نحن، وبعد ان استعرضنا الاحداث والوقائع، وبعد ان رأينا من هو الحسين عليه السلام، وكيف كان يعيش ويتصرف، ما رأي الكاتب هنا.

وما رأيه بموقفه وقد دعاه أهل الكوفة للثورة ضد معاوية، لم يستجب لو كانت مجرد الرغبة في الثورة هي التي تملكته، وكان حسه السياسي اقل مستوى من عاطفته الدينية، وقد كان في ذلك الوقت اكثر شباباً واشد حيوية وقوة؟

هل كان الحماس الديني وحده، هو الدافع الوحيد على هذا الخروج؟ هل كان يريد ان يقول ان حماسه كان كحماس احد الخوارج الذين لا يفهمون الا الظاهر من الفاظ القرآن والرسول صلى الله عليه وآله، وانه بثورته على يزيد، ربما كان كأحدهم، الا يشبه هذا القول قول معاوية والدولة الاموية التي حاولت ان تضلل الامة بدوافع أهل البيت من العمل ضدهم، وحاولت ان تشوه كل عمل قام به أمير المؤمنين ومن بعده الحسن والحسين عليهما السلام؟

الم يكن الدافع للثورة هو الحفاظ على مصالح الامة التي ابتزها الامويون واحتكروها لأنفسهم، وادعوا انهم الامناء عليها حقاً؟ وهل عاد الاسلام في عهد يزيد كما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، ليظل الامام عليه السلام على صمته فلا يحرك ساكناً في وجه الانحراف المعلن؟

وربما، لو لم يجد الامام عليه السلام من يخرج معه، لخرج وحده، ولكان خروجه يمثل صفعة قوية للنظام الاموي، كما كان فعلًا بعد ذلك، وكما احس به اركان ذلك النظام نفسه فيما بعد، وكانت صرخته مدوية ومستمرة في اذان الامة تعلن ضرورة قيامها برفض كل انحراف، وكل خروج متعمد عن الاسلام وقيمه وتشريعاته، وخصوصاً من قبل اولئك الذين نصبوا انفسهم قيمين وخلفاء وقادة للامة المسلمة.

اننا نلمس ان هذا الكاتب قد حكم على هذه الثورة بالفشل والموت، ما دام الحسين عليه السلام قائدها ومفجرها قد قتل جراءها وبسببها.

ولو كان هذا الكاتب قد اقترب من التصور الاسلامي الصحيح، الذي حمله الامام الحسين عليه السلام عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله وابيه أمير المؤمنين عليه السلام، كما فعل كثيرون غيره ومنهم مسلمون واعون ينتمون إلى مختلف المذاهب الاسلامية، لرأى ما رآه الامام عليه السلام، ولاكتشف الدوافع الحقيقية التي دعته إلى ان يثور ضد السلطة الجائرة المتمادية في انحرافها وابتعادها المفرط والمعلن عن الاسلام، ذلك الابتعاد الذي اوشك لو استمر على نفس الوتائر المتسارعة ان يكون نهائياً وتاماً، ولعلم اننا لا نناقش في مسألة ثورة الحسين عليه السلام نزاع قيصر مع قيصر آخر، أو فرعون مع فرعون، أو فتى قرشي مترف مع فتى قرشي مترف آخر (كما حاول معاوية الايحاء بذلك، وقد ذكرناه في الفصول السابقة)، بل اننا نناقش قضية موسى مع فرعون، وقضايا الانبياء والرسالات كلها ضد الطواغيت الذين عاصروهم، وقضية محمد صلى الله عليه وآله مع ابي سفيان وابي جهل وابي لهب والملأ من قريش، ومع المتنفذين والمتسلطين وطواغيت الامة، وننظر بالعقلية التي نظروا بها عند حساب الربح والخسارة والنجاح والفشل.

هل كان يزيد كالحسين، أو بمستوى اقل مسلم عادي، حتى نأخذ عليه قيامه بوجهه ورفض مبايعته؟

وهل يحسب الكاتب الاسلامي، ان الحكام المسلمين وجدوا هكذا غرار يزيد، وان على كل ابناء الامة ان يقبلوهم ويستسلموا لهم؟ وهل كان هو نفسه يقبل ان يستجيب ليزيد ويبايعه لو انه عاش في عهده؟

لا شك انه بهذا الفهم وبهذه المقاييس الضيقة التي لا تنسجم ومقاييس الاسلام وفهمه، وبالآراء والافكار المسبقة التي تلقاها من غيره قد يفعل ذلك. ولو انه كان يحمل تصور احد اولئك الذين ساروا مع الحسين عليه السلام واستشهدوا بين يديه، أو احد الذين قاتلوا خلف الرسول صلى الله عليه وآله في بدر، أو أحد أو حنين أو غيرها من معارك الاسلام الخالدة، ووقفوا وقفتهم، لرفض ذلك في كل الاحوال.

٢ - سبب الثورة الحسينية هو عدم تبصر الحسين عليه السلام

ويطالعنا كاتب آخر له سمعته وقراؤه العديدون في العالم العربي، برأي اراد له ان يتبنى من قبل قرائه هؤلاء، فيبدو لنا في مظهر العاقل الحصيف الذي لا تهمه سوى وحدة المسلمين ومصلحتهم، فطلع بتحليل غريب ونقد أغرب منه، آخذاً على الثورة

عدم قدرتها على ازاحة يزيد حالًا، ولعلها لو نجحت بالمقاييس العسكرية المألوفة، لما كان له عليها اي مأخذ، ولاختفى النقد والتجريح كله، ولم تعد للنظرة القاصرة الضيقة تأثيرها الذي حاول ان يبثه هذا الكاتب الخطير.

يقول الشيخ محمد الخضري في كتابه (تاريخ الشعوب الاسلامية) ١/ ٥١٧ :

(بذلك الشكل المحزن، انتهت هذه الحادثة التي اثارها عدم الاناة والتبصر في العواقب، فإن الحسين بن علي رمى بقول مشيريه جميعاً عرض الحائط، وظن بأهل العراق خيراً، وهم أصحاب أبيه، فقد كان أبوه خيراً منه، وأكثر عند الناس وجاهة، وكانت له بيعة في الأعناق، ومع ذلك لم ينفعوه، حتى تمنى في آخر حياته الخلاص منهم. أما الحسين، فلم تكن له بيعة، وكان في العراق عماله وأمراؤه، فاغتر ببعض كتب كتبها دعاة الفتن ومحبو الشر، فحمل أهله وأولاده، وسار إلى قوم لهم عهد. وانظر كيف تألف الجيش الذي حاربه، هل كان إلا من أهل العراق وحدهم الذين يرفعون عقيرتهم بأنهم شيعة علي بن أبي طالب؟

وعلى الجملة فإن الحسين أخطأ خطأ عظيماً في خروجه الذي جر على الأمة وبال الفرقة والاختلاف، وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا. وقد أكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة، لا يريدون بذلك إلا أن تشتعل النيران في القلوب ويشتد تباعدها.

وغاية ما في الأمر أن الرجل طلب أمراً لم يتهيأ له، ولم يعد له عدته، فحيل بينه وبين ما يشتهي وقتل دونه، وقبل ذلك قتل أبوه، فلم نجد في أقلام الكاتبين من يبشع أمر قتله ويزيد به نار العداوة تأجيجاً، وقد ذهب الجميع إلى ربهم يحاسبهم على ما فعلوا، والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة، وهي أنه لا ينبغي لمن يريد عظام الأمور أن يسير إليها بغير عدتها الطبيعية، فلا يرفع سيفه إلا إذا كان معه من القوة ما يكفل له النجاح أو يقرب من لك، كما أنه لا بد أن تكون هناك أسباب حقيقية لمصلحة الأمة، بأن يكون هناك جور ظاهر لا يحتمل وعسف شديد ينوء الناس بحمله، أما الحسين فإنه خالف على يزيد، وقد بايعه الناس، ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند إظهار هذا الخلاف).

انتهى كلام الكاتب الذي نفهم منه : أن الحسين لم يكن متأنياً متبصراً في العواقب، وأنه لم يستجب لمشورة أحد، وأن ظنه بأهل العراق خيراً هو الذي دفعه

إلى الخروج إليهم، وأنه أغتر بكتب دعاة الفتنة ومحبي الشر، وأنه قد أخطأ بخروجه الذي جر على الأمة وبال الفرقة والاختلاف، وزعزع عماد الفتها إلى يومنا هذا، وغاية ما في الأمر أنه طلب أمراً لم يتهيأ له، وأن المسألة يجب أن تطوى بعد أن ذهب الجميع إلى ربهم، وكان ينبغي للحسين أن تكون له قوة كافية لمقارعة يزيد، وأسباب حقيقية كجور ظاهر أو عسف شديد لا يحتمل، وأنه كان مجرد مخالف على يزيد الذي لم يظهر منه جو أو عسف عند إظهار الخلاف، أليس هذا ما قاله الكاتب الذي تصدى للحديث عن تاريخ الشعوب الاسلامية؟ وكان يرأس أكبر مؤسسة إسلامية في مصر، وهي جامعة الأزهر؟

إن ما سنعرضه من ملابسات هذه القضية الحساسة التي جعلت الكثيرين يتخبطون بشأنها وخصوصاً أولئك المتأثرين ببعض النظرات والاراء المسبقة ستبين أن أراء هذين الكاتبين اللذين ذكرناهما هنا، كنموذج لغيرهما من الكتاب الآخرين الذين لم يفهموا من الثورة إلا بعض جوانبها الظاهرية، هي أراء لا تستند إلى واقعة تاريخية صادقة، أو سند وثيق يتيح لهم قول ما قالوه دون دراسة واعية لاهداف هذه الثورة ومراميها، وما حققته من نتائج ايجابية كبيرة، اهمها تأجيج الوعي المستمر لدى المسلمين بضرورة التصدي للانحراف والظلم، وكل حملة ظالمة على عقيدتهم ودينهم[1].

---

(١) ومن هؤلاء محمد النجار الذي قال في كتابه (الدولة الأموية في الشرق ١٠٢/ ١٠٣) (أما احقية الحسين بالخلافة فهي فكرة تنطوي عليها قلوب الغالبية العظمى من الناس، ولكن ما قيمة هذه القلوب اذا لم تؤيدها السيوف، وهي مع ذلك لا تقتضي الخروج، لأن إمامة المفضول مع وجود الافضل جائزة، وقد كان علي بن ابي طالب يعتقد احقيته بالخلافة ولم يخرج على أحد).

ومنهم الشيخ محمد الغزالي الذي ندد بنهضة الامام في كتابه (من معالم الحق ١٣١) ووصفها بأنها مجازفة لا اثر فيها لحسن السياسة، وقد كان من المتعين عليه، حسبما يراه الغزالي أن يبايع ليزيد.

ومنهم احمد شبلي الذي قال في كتابه (التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ٢/ ٢٠١).

(نجيء إلى الحسين لنقر مع الاسف ان تصرفاته كانت فى بعض نواحي هذه المشلكة غير مقبولة، فهو اولاً: لا يقبل نصح الناصحين، وخاصة عبد الله بن عباس واستبد برأيه. وثانياً : نسي أو تجاهل حق أهل الكوفة وما فعلوه مع ابيه واخيه، وهو، ثالثاً: يخرج ابنائه=

ومن المؤسف ان الكثيرين يرون رأي هؤلاء الكتاب، رغم كل ما فيه من تجن وخروج عن الحقيقة مما سنبينه بالتفصيل بعون الله في بحوث الكتاب القادمة، فهل ثورة الحسين هي التي جرت على الامة وبال الفرقة والاختلاف وزعزعت عماد ألفتها إلى يومنا هذا؟ على من كانت الامة ستجتمع لو لم يجر عليها الحسين بزعمهم وبال الفرقة؟ اليس على من اراد ان يكون خليفة واماماً عليها بالاكراه، وبكل الطرق المحرفة والمزورة، وبكل أساليب الرشوة والاغراء والتهديد، وهو يزيد؟ وقد رأينا كيف تمت مهزلة استخلافه على المسلمين من قبل أبيه معاوية؟

على اي قيم اسلامية يحملها يزيد ستجتمع الامة؟

والى اي امر كان سيجرها لو قدر له ان يجلس على العرش تلك المدة الطويلة التي جلسها ابوه من قبل؟ انه قام باكثر الاعمال المثيرة للقرف والاشمئزاز في نفوس المسلمين خلال مدة حكمه القصير الذي تجاوز ثلاثة سنين بقليل في سبيل تثبيت هذا الحكم، ولو انه استمر لاكثر من عشرين سنة، وقامت في وجهه قوى معارضة هنا وهناك، اما كان قد استباح كل منطقة أو مدينة تظهر فيها تلك القوى، كما فعل بالمدينة تماماً؟ هل هذا امر غير وارد؟ ان الاحتمال الآخر هو ان الامة ستسكت عنه وتستسلم، وسيكون فعله وقوله هو القانون البديل للاسلام.

=واطفاله كأنه ذاهب إلى نزهة خلوية، أو زيارة قريب، ويعرف في الطريق غدر أهل الكوفة، ومع هذا يواصل السير إليهم، وينقاد لرأي بني عقيل، ويذهب بجماعة من الاطفال والنساء وقليل من الرجال ليأخذ بثأر مسلم. بالله، قد تكون ولاية يزيد للعهد عملاً خاطئاً، ولكن هل هذا الطريق لمحاربة الخطأ والعودة إلى الصواب؟) ويبدو أن المؤاخذة الكبيرة على الامام، بنظر هؤلاء ان ثورته قد ادت إلى أستشهاده واستشهاد أصحابه عليهم السلام، ولو انه اتبع الاساليب الاموية التي اصبحت فيما بعد مألوفة وصحيحة بنظر فئات عديدة من الأمة، وتغلب على يزيد، لما وجه هؤلاء هذا النقد المرير اليه، حاسبين بذلك انه عليه السلام عكر الجو الهادىء الذي كان تعيشه الامة بزعمهم. وسنتعرض عند الحديث عن نتائج الثورة بعون الله إلى أراء بعض الكتاب المنصفين وجلهم من ابناء المذاطب الاسلامية المختلفة من غير الشيعة، وكيف أنهم وصلوا إلى قناعة تامة بضرورة الثورة التي قام بها الحسين عليه السلام ضد الحكم الاموي المنحرف، والأدلة التي بثوا عليها قناعاتهم الواعية، وهو امر ينبغي الالتفات اليه خصوصاً وأنهم من الكتاب المعروفين الواعين وغير المنحازين.

ولو ان الامام الحسين عليه السلام وضع يده في يده منذ البداية واستسلم له وأقر افعاله، ماذا سيكون موقف الامة منه في النهاية؟

فاذا كان من اشاد به رسول الله صلى الله عليه وآله، وشهد له بالجنة والامامة، والقائد الحقيقي للامة قد تخلى عن مهمته وترك كل شيء بيد يزيد ليحكم على هواه ووفق تصوره ورغباته ومصالحه، كيف سيكون موقف الناس الآخرين الذين لا يتمتعون باي مركز قيادي أو علمي، وليس لهم اي نفوذ روحي أو اجتماعي كذلك الذي كان للامام عليه السلام، اذا ما تنازل عن كل شيء واكتفى بضمان السلامة لنفسه وعائلته؟

ان الدولة نفسها ستعمد عند ذاك إلى نشر ما حاولت طمسه من فضائل الامام عليه السلام وستشيد به، لكي تقول بالتالي: كيف رأى ان يكون يزيد هو قائد الأمة وزعيمها والمتصرف بأمورها وشؤونها؟ ولا شك انه اجدر منه واكثر كفاءة في مجال السياسة والحكم ليتخلى له عن كل شيء، ولا بأس بأن يترك له شيئاً من السلطة الروحية، تقتصر على توضيح احكام بعض العبادات وغيرها، ضمن حدود بعض المساجد وحسب. وعندها سيقول للناس: دعوا الدين لا يخرج من المسجد، ولا يتدخل في شؤؤن السياسة والدولة، وأعطوا ما لله وما لقيصر لقيصر، وسيكون لذلك مبرر مشروع ودعاة سوف يتكفلون بوضع (الاحاديث) اللازمة لتحقيق هذه الخطوة، لابعاد الاسلام نهائياً عن الحياة.

الا يدرك المطبلون لمعاوية ويزيد ذلك؟

الم تتخذ بعض الخطوات للعمل بهذا الاتجاه؟ الم يقل بعض بسطاء الناس وعوامهم لاولادهم في الكوفة وغيرها بعد ان رأوا تخلي بعض (علمائهم) و (فقهائهم) واشرافهم عن كل شيء لسلطان الدولة، ما شأننا نحن بما يجري بين الحكام والناس الكبار؟ دعونا نترك امثال هذه الامور لهم ونهتم بشؤوننا اليومية الخاصة؟

اليس هذا ما يحصل اليوم ايضاً، مع اننا نعيش في ظل (حكومات اسلامية) تعلن ان الاسلام هو الدين الرسمي للدولة، وما عدا ذلك فالدين لا وجود له في الحياة والتشريعات والقوانين والاحكام؟

اليس كتاب هذه الدول انفسهم الذين يطبلون ويزمرون ويلهثون لتبرير شرعيتها وقداستها وتنزهها عن الخطأ والزلل، وحكمة قادتها، هم نفسهم الذين اشادوا بدولة سابقة نموذج لهذه الدول، هي دولة معاوية ويزيد؟

ان معرفة دوافع كل كاتب وناقد والجو الذي يعيش فيه والعقلية التي يحملها، جديرة بان تجعلنا ندرك عدم موضوعية وجدية واصالة العديد من البحوث والدراسات المطروحة التي تتناول قضايانا الاساسية المهمة، ومنها قضية الحكم الاموي وثورة الحسين عليه السلام.

ولا شك ان كتاباً آخرين من الذين تحرروا من قيود الدولة ومواضعاتها والتزاماتها، قد نظروا إلى ثورة الحسين عليه السلام من زاوية نظر موضوعية، اخذت بنظر الاعتبار كل ملابسات الاحداث التي وقعت لتمرير استخلاف يزيد على الامة، وجعله يبدو كأمر واقعي مفيد للامة، ضروري لوحدتها ومصالحها. وهو ما لم ينطل على هؤلاء الكتاب الذين لم يكونوا متحيزين أو حاملين لنظرات مسبقة متحيزة إلى الشيعة وقد كتبوا عن الموضوع وتناولوه بدافع الحرص على الاسلام ومصلحة المسلمين وحسب.

وسنتعرض بعون الله إلى اراء مجموعة منهم عند الحديث عن نتائج الثورة (في كتاب قادم)، لندرك انهم قد لمسوا ضرورتها لضمان مستقبل الاسلام، الاسلام الواسع الكبير الذي لا يختص بفئة أو طائفة من ابنائه، وانما الذي يتسع لكل ابنائه في ظل خيمته الواسعة.

فهل من كتب عن هذه الثورة يريد حقاً لنار الفرقة ان تشتعل؟

اليس كلام الكتاب الذين لا يقيمون احكامهم على قواعد ثابتة، وحوادث تاريخية معلومة وحقائق واضحة عن كل من لعب دوراً في تلك الاحداث الخطيرة، سواء أكان الحسين أو يزيد أو اتباعهما أو اشياعهما، هو الذي يثير العداوة والبغضاء ويشعل النيران، حينما يصدرون مثل هذه الاحكام المقررة، والتي لم تقم على اساس الوقائع والحقائق والتحليل المنطقي السليم؟

وهل نكتفي بالسطحية عن التعرض لهذه الثورة الكبيرة، لنقول عنها وعن قائدها ببساطة متناهية..

(ان الرجل طلب امراً لم يتهيأ له ولم يعد له عدته، فحيل بينه وبين ما يشتهي وقتل دونه).

هكذا بهذه البساطة المتناهية المحزنة نفسر حوادث تاريخنا المهمة، وننساها

بعد ذلك باعتبارها احداثاً مؤسفة لم تتمخض الا عن موت اصحابها وحسب، بل ونروح نحرم روايتها(١).

ونروح في النهاية نستمطر شآبيب الرحمة والغفران على الجميع، القاتل الخارج عن الاسلام، والمقتول السائر على خط الاسلام، ونروح نؤاخذ من استشهد خلال هذه الثورة العظيمة، لانه لم يعد لها عدة كافية كفيلة بالاطاحة بيزيد، وكأن كل ما في الامر، انه لم يحسن النزال وقواعد اللعبة، وما دام لم يستعد، فانه استحق الموت الذي نزل به، فلماذا اذاً رفع سيفه وهو لا يضمن قتل عدوه؟

وامام عدم الاستعداد المزعوم هذا نسى هؤلاء الاسباب الحقيقية التي دعت الحسين عليه السلام للثورة، وكأنه لم يقم بما قام به دون سبب معقول، هذا ما قاله لنا احد هؤلاء، وذكر لنا ان يزيد:

(لم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند اظهار هذا الخلاف).

وكأن الحسين لم يعرف يزيداً، وكأن الامة لم تكن تعرفه، وكأن يزيد لم يكن خلاصة الخطأ والانحراف الذي اعده ومهد له معاوية، والذي ينبغي وقفه والقضاء عليه باسرع وقت ممكن، والا انتشر في جسم الامة كما تنتشر الخلايا السرطانية.

وكأن المسألة كلها مسألة خلاف شخصي على الحكم والسلطان، وان الحسين طالب من طلاب الدنيا كيزيد تماماً(٢).

فلو ان الحسين عليه السلام قتل اصحاب يزيد في تلك المعركة، وسيطر على الكوفة، هل كان الخضري وزملاؤه يقولون عنه ما قالوا؟ وهل كلفوا انفسهم عناء ايجاد التبريرات ليزيد كما حاول ذلك آخرون قبله، بأدلة (فقهية، عقلية ونقلية)

---

(١) قال الغزالي وغيره: ويحرم على الواعظ وغيره رواية مقتل الحسين وحكاياته وما جر بين الصحابة من التشاجر والتخاصم، فانه يهيج بغض الصحابة والطعن فيهم وهم اعلام الدين، تلقى الائمة الدين عنهم رواية، ونحن تلقيناه من الائمة دراية، فالطاعن مطعون طاعن في دينه ونفسه) الصواعق المحرقة/ الهيثمي ٢٢٣.

(٢) وقد لفقوا رواية جاء فيها ان ابن عمر قال له بالحرف الواحد الا تخرج، فان رسول الله عليه الصلاة والسلام خيره الله بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، وانك بضعة منه، ولا تنالها يعني الدنيا) تاريخ الخلفاء السيوطي ١٩٢ وفي هذا ايحاء بان الامر امر منافسة على السلطان، وذلك ما نفاه الامام عليه السلام، كما سنرى بعد ذلك بعون الله.

واستناداً إلى روايات واحاديث موثوقة مسندة من قبل فقهاء الدولة ووعاظها ومرتزقتها؟ ترى صحة انعقاد البيعة، ولو تمت بشخص واحد أو شخصين، ولا ترى مبرراً للخروج على المفضول أو الفاسق، ويزيد لم يكن سوى فاسق معروف ومشهود عليه بذلك. وقد تطرقنا إلى هذه النقطة الدقيقة التي توصل (علماء الاسلام) بموجبها إلى عدم جواز الخروج على الامام الفاسق، وكأن النقاش يجري حول رئيس دولة اوروبية حديثة، لا دولة اسلامية لا تزال ثياب نبيها ﷺ وادواته لم تبل بعد، فطلعوا علينا بهذه الاطروحة المدمرة، لكي يتيحوا ليزيد وامثاله السيطرة على مقدرات المسلمين.

واذ يجمع حتى هؤلاء المؤيدون ليزيد وخلافته على فسقه، اذ لم يتمكنوا من انكار ذلك، يذهب آخرون بوقاحة ودون سند تاريخي واحد إلى انه (كان من خيرة شباب قريش)، كما قال عنه محب الدين الخطيب في كتابه (العواصم من القواصم)[1].

ولا ندري كيف توصل الخطيب إلى معرفة ما لم يعرفه معاصرو يزيد وكل من كتب عنه وأرخ له، ولا ندري المقاييس التي اعتمدها ليكون يزيد في نهاية الامر من خيرة شباب قريش.

ان الخضري يريد ان ينتظر الحسين عليه السلام، حتى يستمر يزيد في سلوكه الفاضح، ويعلن عن العديد من جوانبه، مما لم يعلنه قبلًا، لكي يثور عليه، وقد يريد ان يقول: صحيح ان سلوك يزيد كان فاضحاً خلال عهد ابيه، ولكنه عندما اصبح خليفة قد يغير سلوكه، وهذا ما ينبغي انتظاره، اي إلى ان يسفر يزيد عن نفسه ثانية.

ولعل هذا الكاتب يريد ان يتمادى يزيد في سلوكه إلى ابعد حد، ويعلن المزيد من انحرافه في ظل دولته المتسلطة، التي جاءت خطأ، وتسلل مؤسسها إلى صف الاسلام لكي يقيمها بعد ذلك على قواعد غير اسلامية، وعندما يتسلط يزيد ويمتلك المزيد من مقومات النفوذ والارهاب والقوة، ويتفرعن إلى ابعد الحدود، حينذاك يقوم الحسين بثورته، اما في البداية، فلا بد له من مبايعته والاقرار بشرعية وجوده، وكأن المسألة برمتها هنا مسألة مزاج شخصي، أو رغبة خاصة، وكأن الحسين وجد

(١) العواصم من القواصم: ٢١٥.

طريقاً آخر امامه سوى الثورة، وانه كان يحتمل ان تعود الامور إلى حالة اعتيادية بوجود يزيد، وان املًا ما كان يساوره بانه سيستقيم ويعود بشراً سوياً كالآخرين على الاقل.

ان التظاهر بما تظاهر به فقهاء الدولة الاموية ووعاظها وقصاصوها ومرتزقتها من حرص على وحدة المسلمين وألفتهم، والتستر بثوب التعقل والرشد وادعاء الموضوعية والنزاهة في البحث والنظر ينبغي ان لا تقف عائقاً امام اعلان الحقيقة على الناس، اذ ان في تبني هذا الموقف المتحيز المسبق وغير الجديد، تجنياً على الحقيقة والموضوعية والنزاهة.

الدافع الأول لهؤلاء الكتاب : إنهم يعيشون في ظل دول وأنظمة معادة مكرورة للدولة الأموية

لماذا يتبنى العديدون موقف يزيد، ويزيد قد مضى؟ ولماذا يرفضون موقف الحسين عليه السلام من دولته؟ الا يجنون بذلك على انفسهم، وهم يرون انهم في ظل انظمة لا تزال تتبنى نفس خط انحراف الدولة الأموية، وترفع نفس شعاراتها، ومنها ابعاد الدين عن الحياة العامة، فيروحون في غمرة الترويج لخط هذه الانظمة، يخطئون كل رافض لتلك الدولة البائدة الاولى، وكل ثائر عليها.

انهم يتبنون الموقف الرسمي الذي يجد له دائماً اعواناً وانصاراً ومرتزقة يؤيدونه و (يثبتون) صحة توجهاته (بالبرهان القاطع والدليل الناصع)، ويخطئون مناوئيه واعدائه حتى وان اقتضى الامر اللجوء إلى الارهاب والقوة، كما فعل العديدون منهم بالفعل، ابتلي بهم زماننا وابتلينا نحن بهم.

ولوانهم اعلنوا ما اعتقدوا بصحته حقاً بشأن ثورة الحسين عليه السلام ، ولا بد ان يكون ما يعتقدونه حقاً في قرارة انفسهم، هو صحة توجه هذه الثورة وسلامتها ووضوح اهدافها ونجاحها في تحقيق تلك الاهداف، لكانوا قد اغضبوا بذلك السلطات التي عاشوا في ظلها، والتي ارادت ان تكون نسخاً مكرورة معادة من النظام الاموي البائد، والذي وجدت فيه من (الواقعية) التي تضمن مصالحها وبقاءها في الحكم اطول فترة ممكنة، ولكانوا قد جروا بذلك على انفسهم الويلات والسخط.

---

(١) الطبري ٣/ ٢٧٤/ ٢٧٥، وتذكره الخواص لابن الجوزي ص ٢٤٣.

ولو كانوا في ظل نظام للحكم، لا يتبنى امثال هذه المواقف، ولا يتستر بنفس الشعارات والذرائع التي تسترت بها ورفعتها الدولة الاموية الغابرة، لكانت اقوالهم وتحليلاتهم مغايرة لتلك التي سمعناها وقرأناها، ولا نزال نسمع المزيد والمزيد منها.

ثورة الامام الحسين عليه السلام على يزيد لم تكن بوحي من كتب أهل الكوفة

ولننظر إلى تسلسل الاحداث بالشكل الذي اوجزه الطبري لكي نتأكد ان طلب أهل الكوفة من الحسين عليه السلام للقدوم عليهم تم بعد رفضه بيعة يزيد، وهو يدل على ان موقفه من حكومة يزيد لم يكن بوحي من أهل الكوفة، مع ان أهل الكوفة هم المسؤولون تاريخياً عن تخاذلهم وعدم استمرارهم بموقفهم الاول الذي ابدوه للامام عليه السلام، بعيد سماعهم باستمرار امتناعه عن البيعة:

(مات معاوية والوليد بن عتبة بن ابي سفيان على المدينة، فارسل إلى الحسين بن علي ليأخذ بيعته، فقال له: أخرني وارفق، فأخره فخرج إلى مكة فأتاه أهل الكوفة ورسلهم، انا قد حبسنا انفسنا عليك، ولسنا نحضرالجمعة مع الوالي، فأقدم علينا، فبعث الحسين إلى مسلم بن عقيل بن ابي طالب ابن عمه فقال له: سر إلى الكوفة، فانظر ما كتبوا به الي، فان كان حقاً خرجنا إليهم)[1].

الاجتماع الأول لشيعة أهل البيت عليهم السلام في الكوفة بعد وفاة معاوية

ولنستمع إلى احد الذين شاركوا باحد الاجتماعات الكبيرة في الكوفة عندما بلغهم هلاك معاوية، وهو محمد بن بشر الهمداني، قال:

(اجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صرد، فذكرنا هلاك معاوية، فحمدنا الله عليه، فقال لنا سليمان بن صرد: إن معاوية قد هلك، وإن حسيناً قد تقبض على القوم ببيعته، وقد خرج إلى مكة، وانتم شيعته وشيعة ابيه، فان كنتم تعلمون انكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا اليه، وان خفتم الوهن والفشل فلا تغروا الرجل من نفسه، قالوا: لا، بل نقاتل عدوه ونقتل انفسنا دونه، قال: فاكتبوا اليه...)[2].

(١) المصدر السابق ٢٧٧، والارشاد للمفيد ط ايران ص ٢١٠، ومقتل الحسين ج ١ ف ١٠، واللهوف لابن طاوس ص ١٤، مع اختلاف يسير في النص.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٧٧، وابن الاثير ٣/ ٣٨٥، والامامة والسياسة لابن قتيبة ٢/ ٤، وانساب الافراف للبلاذري ٣/ ١٥٨، مع اختلاف يسير في النص أيضاً.

فكتبوا اليه، وكانوا عازمين حتى ذلك الحين فيما يبدو على نصرته والسير في ركابه حتى يطيحوا بعدو الاسلام وعدوه.

ولا شك ان سليمان بن صرد، وهو منهم، قد ادرك انهم قد يتخاذلون ويتراجعون تحت وطأة السيف الاموي، وبتأثير مختلف الاغراءات والتهديدات، الا انهم عندما اكدوا عزمهم على نصرته وقتل انفسهم دونه، اشار عليهم بالكتابة اليه، ووضع اسمه واسماء رجال معروفين من زعماء الشيعة في صدر رسالتهم، ولا شك انهم كانوا معروفين جداً لدى الامام، وكانوا ممن يوثق بهم، ولا شك ايضاً ان خبر اجتماعهم وعزمهم على نصرته حتى النهاية قد وصل اليه عن طريق من اوصلوا اليه الرسالة، وتحدثوا عن الجو العام في الكوفة، ويستطرد محمد بن بشر الهمداني قائلًا:

نص الرسالة الأولى

(فكتبوا اليه: بسم الله الرحمن الرحيم. لحسين بن علي، من سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة. سلام عليك،

فانا نحمد اليك الله الذي لا اله الا هو، اما بعد: فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي انتزى على هذه الامة، فابتزها أمرها، وغصبها فيئها، وتأمر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها، واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها واغنيائها، فبعداً له كما بعدت ثمود؛ وانه ليس علينا امام، فاقبل لعل الله يجمعنا بك على الحق، والنعمان بن البشير في قصر الامارة، لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت الينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام إن شاء الله، والسلام ورحمة الله عليك)[1].

ويبدو من مضمون الرسالة، ان السبب الذي دعا أهل الكوفة لعدم إخراج النعمان بن بشير، عامل يزيد عليهم، هو عدم يقينهم من استجابة الامام عليه السلام

(١) نفس المصادر ٣/ ٢٧٧، وابن الاثير ٣/ ٣٨٥، وقد ذكر.. (فكتب الناس معه نحواً: من مائة وخمسين صفحة)، واللهوف لابن طاوس ص ١٥، والمناقب لابن شهراشرب ٤/ ٩٠، والارشاد للمفيد ٢٠٩، وتذكرة الخواص ٢٤٤، في اختلافات بسيطة وقد ذكرت اسماء بعض الرسل باشكال اخر في بعض المصادر.

لدعوتهم، لانه يعلم واقعهم، ولأن تجربة والده أمير المؤمنين واخيه الحسن عليه السلام معهم لم تكن مشجعة على الاطلاق، وهم يعلمون ذلك، واذا ما اقدموا على اخراج النعمان، ولم يوافق الحسين عليه السلام على القدوم اليهم، فربما كانوا بذلك يقدمون على مغامرة كبيرة فيها هلاكهم.

ولا شك ان الامام عليه السلام علم ذلك واعرض عن بعض النصائح المقدمة له، والتي اشارت إلى ان أهل الكوفة لم يخرجوا عامل الدولة بعد، وعليه فلا سبيل إلى الاطمئنان لوعودهم كما اشرنا إلى ذلك من قبل، لانه ادرك دقة موقفهم امام عدم اتخاذه الموقف النهائي بعد.

رسل ورسائل أهل الكوفة تترى على الحسين عليه السلام

ويستطرد محمد بن بشر الهمداني:

(ثم سرحنا بالكتاب مع عبد الله بن سبع الهمداني وعبد الله بن وال، وامرناهما بالنجاء، فخرج الرجلان مسرعين حتى قدما على حسين لعشر مضين من شهر رمضان بمكة، ثم لبثنا يومين، ثم سرحنا اليه قيس بن مسهر الصيداوي وعبد الرحمن بن عبد الله بن الكون الارجحي، وعمارة بن عبيد السلولي، فحملوا معهم نحواً من ثلاث وخمسين صحيفة، الصحيفة من الرجل والاثنين والاربعة.

قال: ثم لبثنا يومين آخرين، ثم سرحنا اليه هانىء بن هاني السبيعي وسعيد بن عبد الله الحنفي، وكتبنا معهما:

بسم الله الرحمن الرحيم. لحسين بن علي من شيعته من المؤمنين والمسلمين.
أما بعد: فحيهلا، فان الناس ينتظرونك، ولا رأي لهم في غيرك، فالعجل العجل والسلام عليك)[١].

ان حماس بعض الرسل وصدقهم (استشهد بعضهم مع الحسين) ربما اعطى الانطباع لمن حضروا اجتماعهم مع الامام عليه السلام بصدق توجه أهل الكوفة وعزمهم على المضي مع الامام عليه السلام إلى النهاية، وذلك ما يلقي عليه المزيد من المسؤولية بنظرهم بضرورة الاستجابة لكتب أهل الكوفة المتواترة والكثيرة، وهو ما قد رآه في

(١) مقتل الحسين، السيد محمد تقي آل بحر العلوم نقلًا عن اللهوف لابن طاوس ص ١٥.

النهاية، عندما اكد له مبعوثه اليهم فيما بعد مسلم بن عقيل وهو ممن كان يعتمد عليهم، وكان اهلًا لثقته، كما سنرى بشكل مؤكد، ان أهل الكوفة كانوا مزمعين حقاً على نصرة قضيته بمواجهة الحكم الاموي المنحرف.

(وتوافدت عليه بعد ذلك كتب أهل الكوفة، وتكاثرت، حتى ورد عليه في يوم ـ واحد ـ ستمائة كتاب)، واجتمع عنده في نوب متفرقة (اثنا عشر الف كتاب)، وهو مع ذلك يتأنى ولا يجيبهم)[١].

وقد وردت الرسالة السابقة التي بعثها أهل الكوفة مع هانىء بن هاني السبيعي وسعيد بن عبد الله الحنفي بصيغة اخرى، ذكرتها بعض المصادر، وذكرت فيها انهما قالا للحسين عليه السلام ان من جملة الموقعين على هذا الكتاب، أو من اجتمعوا أو وافقوا عليه هم شبث بن ربعي، وحجار بن ابجر، ويزيد بن الحارث، ويزيد بن رويم، وعروة بن قيس وعمرو بن الحجاج ومحمد بن عطارد، وهم من زعماء الكوفة واشرافها، وقد لعب بعضهم دوراً كبيراً في حربه بعد ذلك، وانكروا الرسالة التي وجهوها إليه، والتي جاء فيها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، إلى الحسين بن علي من شيعته وشيعة ابيه أمير المؤمنين.

اما بعد: فان الناس ينتظرونك ولا رأي لهم في غيرك، فالعجل العجل يا ابن رسول الله فقد اخضر الجناب، واينعت الثمار، واعشبت الارض، واورقت الاشجار، فاقدم إذا شئت فانما تقدم على جند لك مجند، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى ابيك من قبل. فقال الحسين لهاني وسعيد: من اجتمع على هذا الكتاب؟ فقالا يا ابن رسول الله، اجتمع عليه شبت بن ربعي، وحجار بن ابجر، ويزيد بن الحارث، ويزيد بن رويم، وعروة بن قيس، وعمرو بن الحجاج ومحمد بن عطارد)[٢].

غير ان الطبري ذكر في تاريخه ٣/ ٢٧٨ ان (شبث بن ربعي وحجار بن ابجر ويزيد بن الحارث ويزيد بن رويم وعزرة بن قيس وعمرو بن الحجاج الزبيدي ومحمد

---

(١) اللهوف، ابن طاووس، ١٥/ ١٦.

(٢) وقد اورد ابن كثير في البداية والنهاية ٨/ ٢٠٤ ان (اكثرهم كانوا قد كاتبوه ليتوصلوا إلى اغراضهم ومقاصدهم الفاسدة).

بن عمير التميمي . . (كتبوا اليه): اما بعد، فقد اخضر الجناب، واينعت الثمار وطمت الجمام، فاذا شئت فأقدم على جند لك مجند)[1].

ويدل اختلاف بعض النصوص ربما على كثرة الرسائل التي ارسلت مع الرسولين الاخيرين، فالتبس الامر على البعض فذكروها على تلك الاشكال المختلفة، ومهما يكن فان الثابت ان شبث بن ربعي وجماعته قد ادلوا بدلوهم وشاركوا أهل الكوفة دعوتهم الحسين عليه السلام للقدوم اليها.

وقد ذكر ان

(من بين تلك الرسائل «انا قد حبسنا انفسنا عليك، ولسنا نحضر الصلاة مع الولاة، فاقدم علينا، فنحن في مائة الف سيف، فقد فشا فينا الجور وعمل فينا بغير كتاب الله وسنة نبيه، ونرجو ان يجمعنا الله بك على الحق، وينفي عنا بك الظلم، فأنت احق بهذا الامر من يزيد وابيه الذي غصب الامة، وشرب الخمور ولعب بالقرود والطنابير وتلاعب بالدين»)[2].

وجاء في رسائل متفرقة اخرى:

(« . . اما بعد فان الناس ينتظرونك ولا رأي لهم في غيرك، العجل العجل يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، لعل الله ان يجمعنا بك على الحق ويؤيد بك المسلمين والاسلام».

«انا معك ومعنا مائة الف سيف» «عجل القدوم يا بن رسول الله، فان لك بالكوفة مائة الف سيف فلا تتأخر» وقد تتابعت عليه الرسائل ما ملأ منها خرجين، ووردت اليه قائمة فيها مائة واربعون الف اسم يعربون عن نصرتهم له حالما يصل إلى الكوفة)[3].

ومهما يكن، ومهما يقال عن احتمال المبالغة في كثرة عدد الاسماء الموقعة

---

(١) و(٢) الطبري ٦/ ٢٢١، وحياة الامام الحسين للقرشي، نقلًا عن تذكرة الخواص ص (٢٤٨)، والصراط السوي في مناقب آل النبي، للسيد محمود القادري من مصورات مكتبة الامام أمير المؤمنين عليه السلام ورواه المسعودي بصورة موجزة في مروج الذهب ٤/ ٣، ووسيلة المآل ص ١٨٥، والفصول المهمة لابن الصباغ ص ١٧، وانساب الاشراف ق ١ ج ١، وبحار الانوار ١٠/ ١٨٠، واللهوف ص ١٩.

(٣) الطبري ٣/ ٢٧٨.

على بعض الرسائل، فان زخمها وعددها وورودها في فترة قصيرة بعد وصوله إلى مكة، وتتابعها ومضمونها الواحد تقريباً، والذي وجهت فيه الدعوة للقدوم باسرع وقت، يؤكد على ان أهل الكوفة كانوا جادين في طلبهم، خصوصاً وان بوادر الثورة كانت تلوح في المدينة ومكة والبصرة.

فقد ذكر الطبري عن ابي المخارق الراسبي قال:

(اجتمع ناس من الشيعة بالبصرة في منزل امرأة من عبد القيس يقال لها مارية ابنة سعد أو منقذ اياماً وكانت تتشيع، وكان منزلها لهم مألفاً يتحدثون فيه..)[1].

وقد عزم كثيرون كما ذكرنا وكما فصلت بعض كتب التاريخ ذلك على الخروج مع الامام عليه السلام، وقاموا بحملة لتحشيد أهل البصرة خلفه، الا ان حركة ابن زياد السريعة والمحمومة لمحاصرته عليه السلام، وشن الحرب عليه وقتله مع اصحابه عليهم السلام في كربلاء، فوتت عليهم فرصة اللحاق به ولم تكن حركتهم غير المنظمة بمستوى سعي الدولة المنظم والمدعم بالقوة والنفوذ للقضاء على الثورة، وهكذا لم يتسن الا لافراد معدودين فرصة اللحاق به والاستشهاد معه.

لقد كانت هذه التحركات تشكل خطراً حقيقياً على الدولة، وتلقي على الامام مسؤولية تاريخية بالاستجابة لمطلب الأمة، الذي افصح عنه أهل الكوفة، وان تراجعوا عنه فيما بعد كما سنذكر بعون الله امام الارهاب الاموي وانتهازية الوجهاء والاشراف الذين لا يرون الا مصالحهم ومراكزهم ونفوذهم، ويجعل من العسير عليه غض النظر عنه، اذ ربما يحمل وحده مسؤولية التراجع وخذلان الامة في النهاية.

هذا هو مجمل فحوى رسائل أهل الكوفة إلى الحسين عليه السلام، وفدت به رسلهم اليه، وقد اوضحوا له حالهم بعد وفاة معاوية، واستعدادهم للمضي معه للقضاء على دولة يزيد، وألحوا عليه بالقدوم السريع.

وكانت الرسالة الاولى كما ذكر المؤرخون لعشر مضين من شهر رمضان، وقد تتابعت الرسائل خلال ايام قصيرة، وكان مسيره اليهم لثمان مضين من ذي الحجة، اي انه انتظر حوالي شهرين، ارسل فيهما وفي بدايتهما ابن عمه مسلم بن عقيل لاستطلاع اوضاعهم وتنظيم صفوفهم، ريثما يتم اعدادهم لاستقباله، لكي ينجز مهمته الكبيرة،

---

(١) الفتوح ٥/ ٤٢.

وكان هذا ما وجب عليه القيام به أمام الحاحهم الكبير عليه وتعاقب رسائلهم ورسلهم.

الكوفة وأهلها أفضل الخيارات المطروحة أمام الحسين عليه السلام وثورته مع علمه بواقعهم المتردي

وهنا لا بد لنا من العودة إلى بعض الاسئلة المثارة، والتي سبق ان تطرقنا إلى بعضها: ماذا سيكون موقف الحسين لو انه لم يستجب للعراقيين في الكوفة ولم يخرج اليهم؟

والى اين كان سيذهب، حتى ولو لم تكن دعوة أهل الكوفة بذلك الزخم والتتابع والالحاح؟ ونستبق الاجابة عن السؤال الثاني: انه كان سيذهب إلى الكوفة، حتى ولو لم تكن دعوتهم له بتلك الحرارة وذلك الالحاح، لان قضية تعرضه للخطر والموت ـ المؤكد في المدينة أو مكة دون عرض قضيته بشكل واضح، ورفعها امام الامة كقضية يعتمد عليها مصيرها ووجودها ـ امر محتم، وحينذاك لن يجن هو أو الامة اي شيء جراء ذلك الموت، وستزور القضية برمتها، وتعرض بالشكل الذي يريده الاعلام الاموي، ثم يضيع كل شيء، وقد يذكر هنا وهناك في زوايا التاريخ شيء عن رفض ما قام به الامام عليه السلام ضد السلطة الاموية، وربما سيأسف لذلك البعض، وسيضيع كل شيء بعد ذلك، وتضيع الامة وتنهار إلى الابد، اذ ان موقف الحسين كان هو رفض البيعة وحسب فكيف سيكون الامر بعد ان رأينا ان الذي حصل فعلاً هو قيام أهل الكوفة بدعوته اليهم بالشكل الذي رأيناه؟

هل سيكون مجرد امتناعه عن البيعة فعلاً ايجابياً كافياً لتحصين الامة نهائياً من الاستسلام لحكم يزيد؟

وهل سيكون ذلك كخروجه المعلن امام انظار الامة كلها، مع احتمال اسوأ العواقب، والذي يعني قيامه بفعل ارادي واضح يستنهض به الامة باكملها ويحاول تحشيدها للاطاحة بالحكم الفاسد، وحثها على تبني موقفه الذي هو موقف الاسلام الصحيح؟

ان موقفاً حاسماً سيسجل هنا، موقفاً هجوميا بناء قائماً على الارادة الواعية والفهم الصحيح للاسلام، موقفاً يدعو لايقاف المنكر والجور والظلم والانحراف حالًا، بثورة تقوم بها الامة كلها ولا ينفرد بها شخص أو جماعة بعينها.

ولو ان من قام بذلك وقتل في سبيل موقفه هذا لسجلت الامة حتماً هذا الموقف، ولتفكرت وتدبرت المعاني والدلالات القائمة خلفه، وربما دفعها ذلك إلى نبذ الاستسلام والخنوع ولو بعد حين من الزمن، ولو بعد عشرات أو مئات من السنين، فمكاسب الحدث بمنظور الانسان الرسالي ينبغي ان لا تشمل ابناء جيل واحد وحسب، وانما تمتد لعشرات الاجيال بل لكل الاجيال المسلمة، وهذا ما اراده الحسين عليه السلام ، فهو لم يقتل هكذا مظلوماً، لا لشيء الا لأنه لم ير ان يبايع وحسب، بل قتل وهو يعلم انه بتحديه السلطة الجائرة وشنه هجوماً عليها، سيكون معرضا لهذا القتل، فهو لم يكن يتوهم انه يسير على طريق مفروشة بالورود، ولم يكن يحسب انه ذاهب في نزهة خلوية آخذ فيها نساءه واطفاله، كما اشار لذلك احد الكتاب، الذين ذكرنا ملاحظاتهم في هذا الفصل، وهو يعرف شراسة عدوه واستماتته في المحافظة على ملكه وسلطانه ونفوذه، وما كان هذا العدو سيتساهل ويسكت امام هذا الامر الذي قد يفقده كل شيء إلى الابد.

وقد كان الحسين عليه السلام يعلم ان في العراق طليعة تتنازعها الرغبة في النهوض، وقد تتردد، وقد تروح ضحية الاختلاف والفرقة والنزاعات والاطماع الشخصية، الا انها تميل اليه، وقد راسلته واوفدت اليه وفودها، حتى قبل ان يتوفى معاوية، ودعته إلى تزعمها للثورة ضده. غير انه لم يشأ ان يستجيب لها حينذاك لغياب الظروف الموضوعية التي تستلزمها الثورة.

واذ تعيد الكوفة دعوتها له بهذا الشكل، وربما اذا ما ذهب اليها شخصياً فانه سيجد فيها نفس تلك العزيمة المتوقدة التي لمسها منها، رغم التجارب المريرة السابقة التي لقيها منها والده أمير المؤمنين واخوه الحسن عليهما السلام .

ان معطيات الحوادث وتعاقبها جعل من العراق والكوفة على وجه الخصوص، افضل مكان يمكن ان ينطلق منه لمواجهة الحكم الاموي وشن الحرب عليه، للاسباب التي ذكرناها،

فكيف سيكون موقفه امام الامة اذا ما رفض الذهاب اليهم، وما الذي سوف يسجل عليه بعد ذلك تاريخياً، اذ سيكون قعوده حجة لكل مستسلم ومتقاعس وخانع.

ثم ماذا سيكون موقفه امام الله (عز وجل شأنه)، وهو وارث الرسالة وامام الأمة

وشاهدها؟ هذا اذا خلص من المصير المحتوم الذي يتعرض له ببقائه في مكة ولم يقتل ليستحل به البلد الحرام.

ماذا لو لم يستجب الإمام الحسين عليه السلام لأهل الكوفة

اما اذا ذهب إلى مكان ناء بعيد كشعاب اليمن أو الهند أو غيرهما، فلن يكون ذلك سوى هزيمة اراد بها حفظ حياته التي لن تمتد على الاغلب الا لبضع سنوات، فهو في منتصف العقد السادس من عمره الشريف، وسينتهي بموته كل شيء بعد ان يقضي تلك السنوات القليلة معزولًا وبعيداً عن الامة، وستضيع قضيته وينتهي كل شيء، وكأنه لم يحدث شيء.

ان الامة ستسجل في تاريخها: ان الحسين قد اكتفى برفض بيعة يزيد وحسب، وقد تهيأت له الظروف الموضوعية للثورة بعد ان دعاه أهل العراق، ولم يذهب اليهم، ولو كان قد استجاب لدعوتهم لكانوا قد ساروا خلفه واستجابوا له باخلاص وواجه معهم الدولة الاموية، وربما أطاح بها، وانه قد اخطأ بقعوده في مكة، أو بهربه إلى اليمن، لو كان ذلك قد تم فعلًا.

وسيتزايد غضب الامة وحنقها عليه، كلما تمادى يزيد ومن سيأتي بعده في جرائمهم وممارساتهم البعيدة عن الاسلام، وستجعل من قعوده سبباً لهذا التمادي، وستحمله مسؤولية هذه الجرائم، وتجعله السبب المباشر لها، كما تباكى القاعدون انفسهم من موقف الامام الحسن عليه السلام من معاوية من قبل، واخذوا عليه صلحه معه، مع انه كان الموقف الوحيد الصحيح، الذي كان عليه ان يقفه بعد ان تخلى الجميع عنه بفعل السياسة الاموية ومكر معاوية.

ولو ان الحسين عليه السلام وقف موقفاً مماثلًا من حكومة يزيد، (مع ملاحظة الفرق بين معاوية ويزيد ورصيد كل منهما لدى فئات عديدة من الامة) لراح اولئك القاعدون المتباكون انفسهم يحملونه وحده مسؤولية تقاعس كل فرد من ابناء هذه الامة على مر الزمن، ويجدون موقفه حجة (شرعية) وامراً مبرراً للاستسلام والخنوع، ما دام شخص بمركز الامام الحسين عليه السلام واهميته قد استسلم وخضع وبايع، ولم يقم باي فعل ايجابي لتغيير الاوضاع. وسيقول انصار الدولة الاموية لكل خارج عليها وثائر في وجهها فيما بعد: ان الحسين عليه السلام نفسه قد قعد واستجاب واستسلم ولم

يحارب، فلماذا تحاربون انتم، ولماذا تملأون الدنيا صراخاً وضجيجاً؟ وهل انتم افضل من الحسين واكثر ادراكاً لمسؤولياتكم منه؟

وسيترتب على ذلك ان تقعد الامة كلها عن مقاومة الانحراف ومكافحته، بعد ان قعد امامها عن ذلك، وستفقد كل ما سيتبقى من مقاومتها امام المد الاموي الجارف الذي يحاول التصدي للاسلام وايقاف مسيرته بكل السبل، ملقية مسؤولية ذلك على اولئك الذين عاصروا الانحراف وعاشوه ولم يتصدوا له في حينه، وسيتصدون بكلامهم للامام الحسين عليه السلام، لا بل سيشيرون اليه صراحة، وسيقولون انه لو كان قد فعل ذلك لربما نجح، وحتى اذا لم ينجح فانهم سيدعون حرصهم على اتمام مهمته.

اما كنا سنقف إلى جانب اولئك الذين خذلوه، أو بيتوا خذلانه منذ البداية، ونقول انهم كانوا صادقين وانهم أدوا ما عليهم، ولم يكن ينقصهم سوى القائد الذي ينظم صفوفهم ويرفع لواءهم؟

ولسنا نعتقد ان الحسين عليه السلام يبالي بما سوف نقوله أو يقوله الناس في جميع الازمان، اذا ما كان الامر متعلقاً به شخصياً، وان ضرر ذلك سيلحق به وحده، غير ان الضرر اذا مالحق بالامة كلها جراء ذلك، فان موقفه سيختلف في هذه الحال، اذ انه لم يضع في حسبانه سوى امر واحد هو مسؤوليته تجاه الله جل وعلا اذا ما قعد أو توانى في الخروج في الوقت المناسب الذي تحتمه عليه الظروف.

ولا شك انه عليه السلام كان من اكثر الناس شعوراً بمسؤوليته الجسيمة التي تمخضت عنها ثورته ضد الانحراف، واكثر الناس فهماً للواقع وتقديراً للعواقب، فهو قد امتلك تلك العقلية الرسالية التي تقيم الربح والخسارة والفوز والفشل بمقاييسها الربانية، التي لا ترى امامها الا شيئاً واحداً وهو الطاعة المطلقة لله جل وعلا، والسير في طريقه والعمل على تثبيت شريعته ودينه مهما كانت العقبات والصعاب.

ولو كان مقياس الحسين عليه السلام خاطئاً، لكانت مقاييس الرسل كلهم خاطئة، ولحكمنا عليهم بالفشل امام الفراعنة والطواغيت، لان معظمهم قد استشهد كما استشهد الامام الحسين عليه السلام، وقد عذبوا وطوردوا ولاقوا صنوفاً شتى من الصعوبات والمضايقات والعذاب، فلم يثنهم ذلك.

ومن هنا جاء جواب الامام عليه السلام لابن عمر حينما حاول منعه من الذهاب إلى العراق، وقوله:

(اما تعلم يا عبد الله ان من هوان الدنيا على الله تعالى أنه أتى برأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني اسرائيل، والرأس ينطق بالحجة عليهم؟ اما تعلم ان بني اسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً ثم يجلسون في اسواقهم يبيعون ويشترون كلهم كأنهم لم يصنعوا شيئاً، فلم يعجل الله عليهم ثم اخذهم بعد ذلك اخذ عزيز مقتدر)[1].

وفيه اشارة إلى موقف يحيى وبقية انبياء بني اسرائيل من الظلم والانحراف وعدم وقوفهم موقف المساوم مع قومهم، مع ان ذلك ادى إلى قتل العشرات منهم، فلم يمنع غيرهم بعد ذلك من اتخاذ نفس موقفهم.

ومع ان الحسين عليه السلام ليس نبياً، الا ان مسؤوليته وهو امام هذه الامة التي قدر لها ان لا ترى رسولًا يبعث فيها أو في غيرها من الامم بعد جده النبي المصطفى (محمد) صلى الله عليه وآله، والتي تحتم عليه ان يكمل شوط الرسالة الذي بدأه جده خاتم الانبياء والمرسلين، وسار عليه أبوه وأخوه عليهما السلام من قبل، حتمت عليه كذلك ان يستعد لكل الصعويات التي استعد لها الانبياء من قبل، ومن ورائهم كل اتباعهم والمؤمنين برسالاتهم، في سبيل تبليغ تلك الرسالات على اكمل وجه، واخرهم جده وامامه وقدوته رسول الله صلى الله عليه وآله.

(١) الطبري ٣/ ٢٧٨ وابن الاثير ٣/ ٣٨٥ وقد وردت الرسالة في الاخبار الطوال للدينوري ص ٢١٠ بالصيغة التالية: (من الحسين بن علي إلى من بلغه كتابي هذا من اوليائه وشيعته بالكوفة، سلام عليكم، اما بعد: فقد اتتني كتبكم، وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومي عليكم، وانا باعث اليكم بأخي وابن عمي، وثقتي من اهلي مسلم بن عقيل ليعلم لي كنه امركم، ويكتب الي بما تبين له من اجتماعكم، فان كان امركم على ما اتتني به كتبكم، واخبرتني به رسلكم اسرعت القدوم اليكم. ان شاء الله والسلام). كما وردت بصيغة مختصرة في وسيلة المآل.. (... اما بعد فقد وصلتني كتبكم، وفهمت ما اقتضته اراؤكم، وقد بعثت اليكم ثقتي وابن عمي مسلم بن عقيل، وسأقدم عليكم وشيكاً في اثره ان شاء الله). وسيلة المآل/ صفي الدين ص ١٨٦ من مصورات مكتبة الامام الحكيم، (عن كتاب حياة الامام الحسين/ القرشي ص ٣٣٩ ج ٢.

فهل كان رسول الله صلى الله عليه وآله مخطئاً وهو يتعرض لاحتمال الموت والاذى في سبيل الاسلام؟

وهل كان يزيد اكثر اهلية وكفاءة من الحسين عليه السلام، ليقوم هو بحمل مسؤوليات الرسالة ويقود الامة، لمجرد ان اباه قد مهد له العرش وذلل له الرقاب؟

وهل هناك وجه للمقارنة بينهما؟ بل: هل هناك وجه للمقارنة بين يزيد وبين اي فرد آخر من المسلمين يلتزم بالاسلام ويفهمه فهماً معقولاً؟

ان السؤال الذي ينبغي طرحه عند استعراض قضية الحسين عليه السلام وثورته هو: من خرج على من؟

الحسين على يزيد؟ ام يزيد على الحسين؟

ووفق منطق الإسلام ولغته وواقعه، من كان ينبغي ان يكون خليفة واماماً على المسلمين؟

واذا لم ينتصر الخليفة الحقيقي، للخلافة والامة وحكم الله، فمن ينتصر لها؟

أول جواب للامام الحسين عليه السلام رداً على رسائل أهل الكوفة

وهكذا اجاب الحسين عليه السلام أهل الكوفة في اول رد له على رسائلهم المتكررة العديدة، ورسلهم الذين اكدوا له استعداد الجميع للوقوف وراءه وخوض المعركة ضد انحراف الامويين، حاثاً اياهم على الثبات على موقفهم الذي ابدوه، وعدم التراجع، وجعل ذلك شرطاً لقدومه عليهم، وربما قصد برسالته تحشيد المزيد من العراقيين الذين لم يكتبوا اليه، لنصرته، وقد بين لهم في هذه الرسالة مهمات الخليفة أو الامام، وهي مهمات، ما كان يزيد ولا حتى معاوية أو غيره قادرين على تأديتها واعطاءها ما تستحق من اهتمام أو جهد.

(... اما بعد، فان هانئاً وسعيداً قدما علي بكتبكم، وكانا آخر من قدم علي من رسلكم، وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالة جلكم: إنه ليس علينا امام، فاقبل لعل الله ان يجمعنا بك على الهدى والحق، وقد بعثت اليكم اخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته ان يكتب الي بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب الي أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت علي به رسلكم، وقرأت في كتبكم، أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله، فلعمري ما الامام الا

العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله، والسلام)[1].

فهو هنا، في الوقت الذي يستجيب فيه لطلب أهل الكوفة، باعتبارهم شريحة كبيرة من الامة دعته إلى تزعمها لوقف الانحراف والقضاء عليه، فانه يحثهم على الثبات على موقفهم واشراك كبارهم وذوي الفضل والحجى والمكانة في هذا المسعى.

وفي الوقت الذي يعرفهم فيه بمسلم الذي قد لا تكون بعض جوانب شخصيته خافية عليهم، فانه يعلمهم بان مبعوثه وثقته، مسلم هذا، هو الذي سيحدد بالضبط فيما اذا كان ذلك رأيهم الاخير وانهم لن يتنازلوا أو يتراجعوا كما اعلموه من قبل، وعندها سيتخذ قراره الاخير بالقدوم اليهم، اذا ما تم ذلك وثبتوا ولم يتراجعوا، وعند ذلك سيكون من واجبه ان يكون في مقدمتهم، أليس هو امامهم العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله؟ وهل هذه الا مواصفات الامام الذي يستحق بجدارة خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ ومنصب قيادة المسلمين؟

انه في هذه الرسالة يضعهم امام مفترق طرق، سيرون عنده الطريق الذي يخلصهم من شرور الانحراف إلى الابد اذا ما لزموا امامهم وثبتوا على منهجه.

وتكاد الرسالة الثانية التي ذكرناها في الهامش تقترب على قصرها من مضمون هذه الرسالة، اما الثالثة، والتي ذكرناها في الهامش ايضاً، فهي تدل على استجابته لهم دون قيد أو شرط، وما نظن انها كاملة، اذ ان سياق الاحداث وارسال مسلم إلى الكوفة كان بهدف استطلاع موقف اهلها النهائي والكتابة عنه اليه، كما سنرى عند استعراض بقية احداث الثورة ووقائعها بعون الله، وهو ما يتناقض مع موقف الاستجابة دون قيد أو شرط، مما يستلزمه الموقف، ولمعرفة الامام عليه السلام بالاوضاع اكثر من غيره.

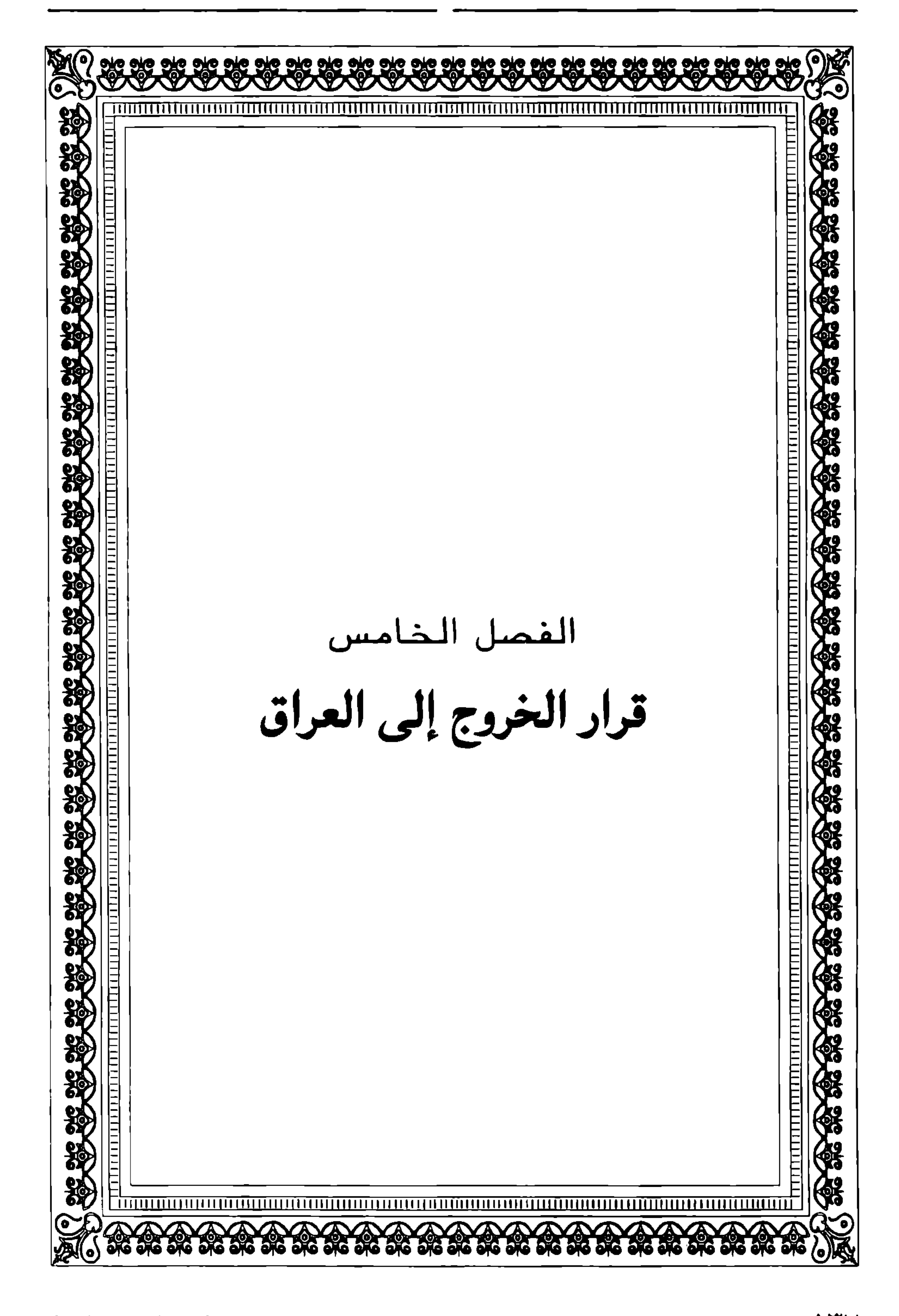
ونجد في كتبه وخطبه عليه السلام عموماً اتجاهاً قوياً لتوضيح مهمته ومسؤولياته تجاه الحدث الخطير الذي تمر به الامة، وهو قيام يزيد خليفة على رأسها، وهو موقف يتسم ببعد النظر السياسي، وفهم للواقع الاجتماعي لاهل الكوفة وغيرهم، ويدل على بصيرة نافذة ووعي كبير، كما انه بكتبه وخطبه اعلن ثباته وعدم تنازله أو تراجعه عن هدفه الكبير، وهو منع الانحراف وايقافه، وظل على موقفه حتى

اللحظات الاخيرة، التي كان اعداؤه فيها لا ينتظرون منه سوى كلمة واحدة بالموافقة أو الاستسلام، لكي يبقوا على حياته ويوفروا له العديد من الامتيازات والمكاسب الشخصية، ولكن على حساب مصالح الامة والمكاسب التي حصلت عليها في ظل الاسلام.

لقد كان في المدينة أو مكة مخيراً بين أمرين لا ثالث لهما، اما مبايعة يزيد أو التعرض للقتل والابادة، اما عندما اطلعه أهل الكوفة على عزمهم على التصدي للحكم الفاسد ومحاربته، فانه وجد ان امامه سبيلاً ثالثاً وهو تزعم المقاومة الاسلامية ضد الدولة الجائرة، وبدا هذا الامر هو الحل البديل للأمرين السابقين، اللذين كان احدهما مستبعداً منذ البداية وهو مبايعة يزيد.

وكما لم يجد منه اعداؤه تهاوناً وهوادة بشأن رفض البيعة منذ البداية، وقبل أن يحاصروه ويشددوا الرقابة عليه، فانهم وجدوا منه نفس هذا الموقف الصلب بعد ان احاطوا به وشددوا الرقابة عليه، وبعد ان اصبح عرضة لسيوفهم وسهامهم، بل وذهب إلى ابعد من ذلك، إلى حد الذهاب بنفسه لتزعم الحركة المناوئة للدولة الأموية اليزيدية، واعلان الحرب عليها.

ان استمرار الموقف المبدئي في كل الاوقات، وطيلة سبعة أعوام، وهي الاعوام التي كرس فيها معاوية جهده وامكانات دولته لبيعة يزيد، ومهد له الامور، وكفاه الرحلة والترحال، ووطأ له الاشياء، وذلل له اعناق العرب على حد تعبيره، وتصاعد هذا الموقف إلى المواجهة المسلحة ينبغي ان لا يمر دون دراسة دقيقة، وتحليل موضوعي واهتمام جاد من قبل المسلمين كافة، اذ ان هذه قضية اسلامية كبيرة، كادت الامة فيها ان تضيع إلى الابد، وتفقد صوابها أمام السلطة الاموية المتفرعنة المتجبرة، لو لم يقف الحسين عليه السلام وقفته المشهورة، رغم الاخطار واحتمالات الموت والاستئصال.



الفصل الخامس

قرار الخروج إلى العراق

قرار الخروج إلى العراق

تمهيد

كان موقف الحسين عليه السلام كما رأينا في مكة صعباً، فما كان ليسمح له بالبقاء حراً طليقاً وهو على موقفه الرافض المعلن ليزيد والحكم الاموي، وكان سيقتل حتما، حتى ولو كان عائذا بالبيت الحرام، وجرت الترتيبات فعلًا لقتله واغتياله هناك.

وقد أرتنا الاحداث بعد ذلك كيف ان الامويين لم يروا حرمة لهذا البيت، الذي حاصروه ايام يزيد ورموه بالمنجنيق، وفي زمن عبد الملك بن مروان ايضاً لما قتلوا فيه ابن الزبير.

ومن الطريف ان مروان (كما قيل، قد اشار على عمرو بن سعيد بحضور عمر بن الزبير احد اعوان الدولة الاموية ان لا يغزو مكة، وقال:

(لا تغز مكة واتق الله ولا تحل حرمة البيت، فقال عمرو بن الزبير، وكان عدواً لاخيه: والله لنقاتلنه ولنغزونه في جوف الكعبة على رغم انف من رغم)[1].

وقد غزوها فعلًا، وقد رماها يزيد بمسلم بن عقبة المري، الذي إستباح مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله، واستخلف بعد ذلك حصين بن نمير السكوني، وامره بحصار مكة،

(١) الطبري ٦/ ١٩٢ وقد حدث ابو العباس المبرد (عن عائشة عن حماد بن سلمة في إسناد ذكره، ان عبد الملك كان له صديق وكان من أهل الكتاب يقال له يوسف فأسلم، فقال له عبد الملك يوماً وهو في عنفوان نسكه، وقد مضت جيوش يزيد بن معاوية مع مسلم بن عقبة المري، من مرة غطفان يريد المدينة: الا ترى خيل عدو الله قاصدة لحرم رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال له يوسف: جيشك والله إلى حرم الله اعظم من جيشه، فنفض عبد الملك ثوبه ثم قال: معاذ الله. قال له يوسف: ما قلت شاكاً ولا مرتاباً واني لاجد بجميع اوصافك). الكامل للمبرد/ دار الفكر ٣/ ١٣٠/ ١٣١ وقد كان الامر فعلًا كذلك عندما غزى الحجاج الكعبة بأمر من عبد الملك بن مروان عام ٧٣، وارتكب هناك افعالًا وفظائع منكرة مما ذكرها التاريخ لنا بأسهاب. . . وراجع كذلك تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٠٢.

وقد خاصرها فعلًا قرابة ثلاثة اشهر، ورمى البيت بالمنجنيق، واحرق الكعبة عام اربع وستين، إلى ان جاءه خبر هلاك يزيد.

فليست لمكة اذاً حرمة عند الامويين، وكان بقاء الحسين عليه السلام فيها سيعرضه لخطر الموت الأكيد[1]، ولم يكن امامه سوى الخروج عنها. فاما إلى اين؟ فقد علمنا انه قصد العراق. وهذا ما يجب ان نعلم الدافع اليه، ونعلم لماذا كان هذا الامر هو القرار الصائب الذي كان لا بد ان يتخذه عليه السلام، رغم انه قد يتعرض هناك لما قد يتعرض له من خطر في المدينة أو مكة.

وإذا ما تابعنا تسلسل الحوادث، استبانت لنا نظرته الصائبة في عزمه المسير إلى العراق.

تجربة الامامين علي عليه السلام والحسن عليه السلام مع العراقيين

لقد كانت تجربة أمير المؤمنين، ومن بعده الإمام الحسن عليه السلام مع العراقيين مريرة وقاسية، وقد انتهت باغتيالهما بعد ذلك، وقد شهدا تخلي مجموعات كبيرة من المسلمين عنهما وعن خطهما في العمل والجهاد.

وكان غرض أمير المؤمنين عليه السلام عند انتقاله من المدينة إلى الكوفة، تكوين طليعة عقائدية تتبنى موقفه واراءه وتسير خلفه لتقويم عموم المجتمع الاسلامي، الذي كان قد بدأ ينحرف بشكل واضح قبل استلامه الخلافة، وقد كان عليه السلام يعلم ان له رصيداً عاطفياً كبيراً في مجتمع العراق، اراد ان يحوله إلى رصيد عقائدي، واراد ان يحول أهل العراق إلى طليعة مقاتلة تسير معه لاعادة تشييد ما تهدم من اركان الدولة الاسلامية، وابعاد كل القوى الطارئة التي ظهرت على الساحة، وتسترت بالاسلام، وخصوصاً القوة الاموية التي تزعمها معاوية في الشام، وكون منها جيشاً كبيراً، يرى ما يراه، ويسير وراءه بولاء مطلق وحماس كبير دون اي سؤال بحجة الثأر لعثمان في البداية.

---

(١) وفعلًا حاول اعوان عمرو بن سعيد عامل يزيد في مكة احتجاز الامام واجباره على البقاء فيها. يراجع الطبري ٦/ ٢١٨ والعقد الفريد ١١٨/ ٥. وكان الحسين عليه السلام يدرك حساسية موقفه في ايامه الاخيرة في مكة وقد اجاب الفرزدق عندما سأله: (ما اعجلك عن الحج؟ فقال: لو لم اعجل لأخذت) الطبري ٦/ ٢١٨، وا بن كثير ٨/ ١٦٧.

(وكان شعب العراق، وابناء العراق مرتبطين، روحياً وعاطفياً مع الامام عليه السلام، ولكن لم يكن شعب العراق ولا ابناء العراق يعون رسالة علي عليه السلام وعياً حقيقياً كاملاً، ولهذا كان الامام بحاجة إلى ان يبني تلك الطليعة العقائدية، ذلك الجيش العقائدي الذي يكون اميناً على الرسالة، واميناً على الاهداف، وساعداً له ومنطلقاً بالنسبة إلى ترسيخ هذه الاهداف في كل ارجاء العالم الاسلامي)[1].

فلم تكن مهمة أمير المؤمنين عليه السلام اذاً مهمة موقتة يمهد فيها لاستقرار حكمه وبسط سلطانه والتمهيد لحكم اجيال من بنيه، هكذا، بدون ضوابط كما يفعل معاوية وينتهي الامر، وانما كانت مهمته ان تراه الاجيال اللاحقة، ان تدرس اسلوبه في الحياة وفي الحكم، وتعيش دوره وتتفاعل معه، وتتحيز له بوعي كما تحيزت لرسول الله صلى الله عليه وآله، على اساس الاسلام.

كان أمير المؤمنين عليه السلام يشعر باستمرار ان المسألة بالنسبة اليه ليست مسألة حكمه هو، أو حكم احد غيره، بقدر ما هي حكم الاسلام، وقد اراد للاسلام ان يحكم من خلاله، لانه مؤهل لذلك وقادر عليه، ولأنه كان معداً اعداداً خاصاً على يدي الرسول صلى الله عليه وآله، وانه قادر على امتلاك التصور الاسلامي والنظرة الاسلامية الصحيحة، وكان يعد لكي ينتشر هذا التصور الاسلامي الصحيح لدى المسلمين من خلال طليعة مؤهلة لذلك في البداية يربيها وينشئها ويقومها بنفسه، على غرار الطليعة التي رباها رسول الله صلى الله عليه وآله واعدها لكي تتفانى في سبيل الاسلام.

وكان يشعر أنَّ الحكم ربما زوي عنه، وقد زوي عنه مدة طويلة بالفعل، مدة كانت كافية لبذر بذور الانحراف ونموها في تربة الاسلام، وربما زوي بعد ذلك عن اولاده من بعده، وقد ارادهم الا يتأثروا لذلك أو ينزعجوا، ولا يعتبروا المسألة مسألة شخصية، وان يكون تأثرهم وتصرفهم على اساس مصلحة الاسلام وحده. فاذا ما مس هذا الدين، أو حاول احد ان ينحرف به، فان مهمتهم هنا لا تكون مهمة المتفرج، بل المحافظ على هذا الدين، ولو اقتضى الامر بذل انفسهم ومصالحهم الشخصية في سبيل ذلك.

---

(١) أهل البيت ص ٩ الشهيد الصدر.

واراد أمير المؤمنين عليه السلام تأجيج التيارات العاطفية النفسية لصالح الاسلام، واستثمارها لتنمية الوعي والشعور بالمسؤولية، والانتماء الحقيقي للاسلام بعد ذلك. واذ لم تتح له الفرصة الكافية لانجاز هذه المهمة في حياته، واستشهد تاركا الناس يتخبطون في خضم التيارات المتصارعة العديدة، ومنها التيار الاموي القوي، الذي استقطب جماعات كبيرة من المسلمين بفعل عوامل وتأثيرات ومغريات عديدة، وجعل من القوة الخاصة التي اعدت وربيت منذ البداية على يد معاوية، وهم أهل الشام في الصدارة.

ان اعداء أمير المؤمنين عليه السلام لم يقفوا مكتوفي الايدي خلال كل فترات الصراع المفتعلة، وحتى بعد استشهاده، فحاولوا ان يثيروا الشكوك بوجهه وحوله وحول مواقفه من بعض الاشخاص مثل معاوية، الذي كان يبدو مقبولاً من قبل الخلفاء السابقين، والذي استمال قطاعات واسعة من الامة باساليبه الدنيوية الأرضية البحتة، التي لم تتطلع يوماً، إلى قيم السماء ورسالة الاسلام. وبالرغم من انه لم يكن يوجد اي مبرر موضوعي للشك.

(وبالرغم من ان المبرر الوحيد للشك كان مبرراً ذاتياً، وبالرغم من هذا، استفحل هذا الشك وقرر، وامتحن هذا الامام العظيم عليه السلام بهذا الشك، ومات واستشهد والامة شاكة، ثم استسلمت الامة بعد هذا وتحولت إلى كتلة هامدة بين يدي الإمام الحسن عليه السلام [1]).

وقد ظهرت بوادر هذا الشك بالتردد الذي اظهرته، وبالتكاسل عن الخروج معه وخصوصاً من قبل أهل العراق، الذين عاش بين ظهرانيهم وأراد ان تكون الطليعة العقائدية منهم، وقد تحدثنا فيما سبق عن بعض الاسباب التي أثرت عليهم وجعلتهم يسيرون بهذا الاتجاه، ومنها الحروب التي خاضوها مع الامام عليه السلام في اماكن بعيدة عن سكنهم، والخسائر التي منوا بها وظهور الخوارج بين اوساطهم بفعل بعض العناصر المعادية لامير المؤمنين عليه السلام، والتي تميل لاسلوب معاوية في الحياة، والتي عبثت بشكل خفي بمجتمع الكوفة، وارجفت وبثت الاشاعات، وساومت

(١) المصدر السابق ص ١١/ ١٢.

بشكل خفي رسل معاوية، والذين لم يلجأ معهم أمير المؤمنين عليه السلام إلى ما كان يلجأ اليه غيره عادة، اذا ما تعرض إلى نفس الموقف، وانما كان يتعامل بما كان تفرضه عليه احكام الشريعة الاسلامية، دون التعامل بالظن أو الشك، ولا شك ان تحرج الامام وعدالته كانت حافزاً لاعدائه بالتمادي، وقد ادرك معاوية ذلك فاستغله ابشع استغلال.

وكانت تبدو على اجواء المجتمع الاسلامي في الكوفة فترات صحو ويقظة، غير انها كانت قصيرة، ولم تتح لها قيادة مؤهلة بغيابه لكي تجمعها وتعدها كما اراد الامام عليه السلام من قبل، وكان يريد لتلك الفترات ان تطول، بل وتستمر لكي تثوب الامة إلى رشدها، وتعود بشكل نهائي وتام إلى الاسلام.

فهو (لم يكن يتعامل مع الفترة الزمنية القصيرة التي عاشها فقط، وانما كان يحمل هدفاً اكبر من ذلك، أمير المؤمنين عليه السلام كان يحس بانه قد ادرك المريض وهو في آخر مرضه، قد ادركه حيث لا ينفع العلاج، ولكنه كان يفكر في ابعاد اطول واوسع للمعركة)[١].

وقد كان من المتيقن ان يستمر الامام الحسن عليه السلام لتحقيق نفس هدف ابيه أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يكن تركه المنصب الرسمي للخلافة، وصلحه مع معاوية مع انه اراد به حقن دماء المسلمين ومنع استئصال الصفوة المقربة منه واستئصاله وآل بيته، الا محاولة جادة لكشف معاوية بعد ان ينفرد بالسلطة ويحكم باسم الاسلام بنمط غير اسلامي، والا احتجاج على الامة، التي تخلت عنه واستسلمت لمعاوية وتنازلت عن كرامتها ودينها بشكل مهين.

وقد رأينا الظروف التي تم فيها الصلح، وكيف انه جعل قطاعات واسعة من الامة تفكر بموقفها وتعيد النظر بتصرفاتها، وتندم على تخليها عن رسالتها وتعاود محاولاتها للنهوض بوجه معاوية، وقد رأينا كيف راسلت مجموعات من أهل العراق الامام الحسين عليه السلام في عهد معاوية داعية اياه للنهوض بهم، وانهم سينهضون خلفه، ويقاتلون تحت رايته.

---

(١) المصدر السابق.

الامام الحسين عليه السلام يريد السير بالأمة بسيرة أبيه وجده

ومن الطبيعي ان يتبنى الامام الحسين عليه السلام نفس نظرة والده واخيه في عمله التربوي مع الامة، وأن يسعى إلى ما سعيا اليه من قبل، لقد كان يريد لتلك الجذوة التي أججها أمير المؤمنين عليه السلام في نفس الطليعة المؤمنة ان لا تخبو، ومثلما لم يكن والده وأخوه عليه السلام من قبل متلهفين على استلام الحكم باعتباره مطمحاً شخصياً أو مغنماً خاصاً، فان الحسين عليه السلام لم يكن له بالتأكيد تلك اللهفة على الحكم والسلطان التي قد يتصورها البعض، بايحاء مضلل كما قلنا، ويعتقدون انها السبب الحقيقي وراء ذهابه عليه السلام إلى العراق.

وقد رأينا الملابسات التي ادت إلى هذا الخروج من المدينة اولًا، ثم من مكة بعد ذلك، اذ لم يترك له اعوان السلطة الفرصة، مما جعله يعلن هدفه بوضوح امام الامة كلها. لقد كان يرفض مبايعة يزيد بأي حال من الاحوال وتحت اي ظرف من الظروف، اذ انه لو فعل ذلك واستسلم وساوم، لكان بذلك قد خيب امل الامة كلها، تلك الامة التي كانت تنحدر وتستسلم وتتساقط أمام يزيد، ولم يكن ينقصها، لكي تتم مأساة سقوطها وانحدارها الا ان يتابعها من كان محط آمالها، لكي تظل في سقوطها إلى الابد، ولا تعود إلى ما كانت عليه ثانية، بل لا تفكر بالقيام اصلًا، وستحمله شخصياً مسؤولية سقوطها أمامها وامام الاجيال اللاحقة، انه بذلك يقضي نهائياً على كل امل لها بالاسلام.

هذا ما كان يراه، وعبر عنه بوضوح بعد ذلك، عندما حوصر وأيقن بالقتل والاستئصال.

لقد كان هذا امراً غير قابل للمساومة، وهو ما لم يفعله كما لم يفعله والده عليه السلام من قبل، اذ ماهي حجته امام الامة، ويزيد مكشوف، ظاهر، يعلن فسوقه وتهتكه على رؤوس الاشهاد، ولا يكلف نفسه عناء التستر والتخفي امامها كما كان يفعل ابوه وبعض اصحابه؟

وهنا لا بد لنا من القول:

لو كان الإمام الحسن عليه السلام في موقف الحسين عليه السلام امام يزيد، لفعل الذي فعله بالتأكيد، وما كان ليتنازل ويبايعه لنفس الاسباب التي عرفها الحسين عليه السلام وعرفتها الامة كلها، لكنه أمام معاوية الماهر الداهية الذي تظاهر بما لم يستطع يزيد

التظاهر به، والذي امتلك قدراً من المكر والقوة مكنه من الوقوف بوجه أمير المؤمنين عليه السلام، رغم الفارق الواضح بينهما والذي تعرفه الامة كلها، رأى ان يحقن دماء المسلمين ويحفظ الاسلام من اكبر نكسة قد يتعرض لها على الاطلاق في تاريخه.

كان الحسين عليه السلام يدرك أنَّ لرفضه البيعة ثمناً غالياً قد يكلفه حياته، وكان يدرك ان الامر لن يصير اليه على الاغلب، وانه لن يلي منصب الخلافة، وقد حذره كثيرون من التوجه إلى العراق، فماذا كان بوسعه ان يفعل بدلًا من ذلك؟

هل يظل في المدينة أو في مكة أو يذهب إلى مصر أو اليمن أو الهند؟ وكان في كل هذه الاماكن سيتعرض فيها إلى خطر الموت المحقق، أو النسيان المطبق، ولعل شعاب اليمن ستبدو بنظر الكثيرين اكثر امانا له، غير انه سيحاصر هناك، ولن يتمكن من اعلان رفضه للدولة اليزيدية، امام الامة وامام اسماعها وابصارها، ولن يتمكن من توضيح الغرض الرئيسي لرفضه مبايعة يزيد، وربما سيظل هناك سنوات طوال إلى ان يتوفاه الله وتنسى القضية كلها في ظل الاحداث والمتغيرات والدعايات الاموية، وربما اعتبر ذهابه إلى هناك مجرد هروب من السلطة سيفقد اهميته امام الامة بمرور الزمن.

إنَّه بسبيل تسجيل موقف واضح، موقف عظيم التأثير، يلوح امام ضمير الامة اثراً دائمياً وعلامة دائمة الاشراق، ان احتجاجه ينبغي ان يؤدي إلى ان تحتج الامة كلها في نهاية المطاف، وادراكه لخطورة ان يتولى امثال يزيد قيادة شؤون المسلمين، يجعل الجميع يدركون ان ممثل الاسلام الحقيقي، وممثل استقامته ووضوحه وقيادته الشرعية المؤهلة المعدة من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله، يقف مقابل ممثل الطاغوت وظلمه وانحرافه، إنّه يريد وضع حد لهذا الانحراف وضمان عدم استمراره أو تكراره في المستقبل.

وهي مهمة ضخمة لا تتم بمجرد اعلان عدم البيعة، أو الاحتجاج عليها، والهروب بعد ذلك إلى مكان بعيد، وانما بفعل ارادي حاسم يظل أثره واضحاً وقوياً ومؤثراً في ضمير الامة.

ولن نستبق الاحداث، غير اننا ينبغي ان لا نحكم عليها الا بالعقلية الاسلامية، ولا ننظر اليها إلَّا من خلال رؤية الاسلام، كما فعل الامام الحسين عليه السلام.

الاعتراضات التي واجهت الحسين عليه السلام بالخروج إلى العراق

لقد روت لنا كتب التاريخ اعتراضات العديدين على مسيرة الامام الحسين عليه السلام إلى العراق، ولم ترد هذه إعتراضات من قبل اناس عاديين، وإنما من قبل اناس ذوي مستوى رفيع مثل محمد بن الحنفية وابن عباس وغيرهما، وقد بنى بعض المحدثين اعتراضات مشابهة لتلك الاولى، واخذوا على الحسين خروجه إلى العراق. واعتبر بعضهم كما رأينا ان الحسين عليه السلام ما دام (لم ينجع بمهمته) بالقضاء على يزيد، ولم تحدد مقاييس النجاح هنا الا بالمفاهيم الغريبة عن الإسلام، ربما ارادوا انه ما دام لم يقم بازاحة يزيد عن السلطة حالاً، وقد قتل نتيجة مسيره إلى العراق، فان مهمته فاشلة، وما كان ينبغي له على الاطلاق القيام بها، وان الامر الصحيح الذي كان ينبغي له القيام به بنظرهم هو مبايعة يريد، أو الهرب إلى مكان ناء، على اقل الاحتمالات الخ.

ولو ان هذه الاعتراضات صدرت عن اناس عاديين غير مؤثرين على جماهير كبيرة من المتعلمين والمثقفين لهان الامر، غير انها عندما تصدر عن اناس مسموعي الكلمة، ولهم قراء عديدون في ارجاء العالم، فان هذا التصور الخاطىء والفهم الخاطىء لنهضة الحسين يعكسان مغالطة كبيرة في اذهان المسلمين، ويعملان على تضليلهم، وتشتيت شملهم بالتالي، ولذلك فانه ينبغي ان يصححا ليعرف هؤلاء المعنى الحقيقي للفشل والنجاح في تصور الإسلام، ويعرفون حقيقة انتصار الحسين عليه السلام في نهضته الكبيرة.

وبعد ان استعرضنا اراء بعض المحدثين، لا بد لنا من الاستماع إلى من اعترض على خروج الامام عليه السلام إلى العراق، و (نصحه) بتجنب ذلك، وهي (النصائح) التي بنى على اساسها المعترضون الجدد آراءهم وافكارهم الخاطئة. قال له محمد بن الحنفية في المدينة:

(تنح بتبعتك عن يزيد بن معاوية وعن الامصار ما استطعت..)[1].

وقال له، عندما لحقه إلى مكة وقد بلغه عزمه إلى المسير إلى العراق:

---

(١) ابن كثير ٨/ ١٦٦ والطبري ٦/ ١٩٠.

(فان رأيت ان تقيم، فانك أعز من في الحرم وامنعه)[1].

وقال له عبد الله بن مطيع وهو في طريقه من المدينة إلى مكة:

(فاياك أن تقرب الكوفة فانها بلدة مشؤومة، بها قتل ابوك وخذل اخوك، الزم الحرم..)[2].

وقال له ثانية بعد خروجه من مكة:

(فوالله لئن طلبت ما في ايدي بني امية ليقتلنك، فلا تفعل ولا تأت الكوفة، ولا تعرض نفسك لبني امية)[3].

وقال له عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي وهو بمكة:

(لا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره، ومن انت احب اليه ممن يقاتلك معه)[4].

وقال له عبد الله بن العباس لما عزم على المسير من مكة إلى الكوفة:

(لا آمن عليك ان يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك، وان يستنفروا اليك فيكرنوا اشد الناس عليك)[5].

وقال له ثانية قبيل خروجه من مكة:

---

(١) تاريخ الاسلام للذهبي ج ١ ص ٣٤٢.

(٢) الطبري ٦/ ١٩٦.

(٣) الطبري ٥/ ٣٩٦ ط دار المعارف، وابن الاثير ٣/ ٢٧٧، ووسيلة المآل ١٨٩، والارشاد للمفيد ٢٠٣، ونهاية الارب للنويري ط القاهرة ٢٠/ ٤١٤، وروى ابن عبد ربه في العقد الفريد انه قال له: الا تفعل يا ابا عبد الله، فوالله ما حفظوا اباك وكان خيراً منك فكيف يحفظونك؟) ٥/ ١١٨.

(٤) الطبري ٦/ ٢١٦، وابن الاثير ٣/ ٣٩٩، ومروج الذهب ٣/ ١٧٠ وابن كثير ٨/ ١٦٥، وجمهرة خطب العرب ٢/ ٣٧. وقد ورد النص بشكل آخر هو: (اني مشفق عليك من مسيرك، انك تأتي بلداً فيه عماله وامراؤه، ومعهم بيوت الاموال، وانما الناس عبيد الدينار والدرهم، فلا آمن عليك ان يقاتلك من وعدك نصره، ومن انت احب اليه ممن يقاتلك معه).

(٥) الطبري ٦/ ٢١٦ وا بن الاثير ٣/ ٤٠٠، وابن كثير ٨/ ١٦٥/ ١٦٦.

(إنَّ أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم، أقم بهذا البلد، وان ابيت الا ان تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصوناً وشعابا)(1).

وقال له الفرزدق وهو في طريقه من مكة إلى العراق:

(قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني امية)(2).

وكتب اليه عبد الله بن جعفر بن ابي طالب:

(فاني مشفق عليك من الوجه الذي توجه له ان يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك)(3).

وكتب اليه عمرو بن سعيد عامل يزيد على مكة بعد خروجه إلى العراق:

(بلغني أنَّك توجهت إلى العراق فاني أَخاف عليك ما فيه الهلاك)(4).

وقال له عبد الله بن سليم، والمذري بن المشمعل الاسديان (ننشدك الله في نفسك واهل بيتك إلَّا انصرفت من مكانك هذا، فانه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوف ان تكون عليك)(5).

وعندما نزل بطن العقبة قال له رجل من العرب:

(انشدك الله لما انصرفت، فوالله ما تقدم إلى على الاسنة وحد السيوف، ان

---

(1) الطبري ٦/ ٢١٧، ومروج الذهب ٣/ ٦٨، ووردت هذه النصيحة في بعض المصادر على الشكل التالي (فان ابيت الا ان تخرج، فوالي اليمن فان بها حصوناً وشعابا، وهي ارض عريضة طويلة، ولابيك بها شيعة فتكتب إلى الناس، وتبث دعاتك فاني لارجو ان ياتيك عند ذلك الذي تحب في عافية) ابن الاثير ٣/ ٢٧٦، وجمهرة خطب العرب ٢/ ٣٦، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٠٧.

(2) الطبري ٦/ ١٢١٨ وابن كثير ٨/ ١٦٩، والعقد الفريد ٥/ ١٢٦.

(3) نفس المصادر السابقة.

(4) و(5) نفس المصادر السابقة وقد سرح عمرو بن سعيد رسالته إلى الحسين عليه السلام مع اخيه يحيى وعبد الله بن جعفر وقد جاء فيه: (بلغني انك توجهت إلى العراق، واني اعيذك من الشقاق، فاني اخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت اليك عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد فاقبل الي معهما، فان لك عندنا الامان والصلة والبر وحسن الجوار) كما يراجع سير اعلام النبلاء ٢/ ١٢٤٢ ومقتل الخوارزمي ج ١ ف ١٠، ونهاية الارب في فنون الادب للنويري/ ط القاهرة ٢٠/ ٤١١/ ٤١٢.

هؤلاء الذين بعثوا اليك، لو كانوا كفوك مؤونة القتال ووطأوا لك الاشياء فقدمت عليهم لكان ذلك راياً، فاما على هذه الحال التي تذكرها فلا ارى لك ان تفعل)[١].

وقال له عبد الله بن عمر:

(... فارجع، فانت تعرف غدر أهل العراق وما كان يلقى ابوك منهم..، فأبى فاعتنقه وقال: استودعك الله من قتيل)[٢].

وقال له ايضاً:

(ابا عبد الله رحمك الله اتق الله الذي اليه معادك، فقد عرفت من عداوة أهل هذا البيت يعني بني امية لكم، وقد ولي الناس هذا الرجل يزيد بن معاوية، ولست آمن ان يميل الناس اليه لمكان هذه الصفراء والبيضاء فيقتلونك..،

وانا اشير عليك ان تدخل في صلح ما دخل فيه الناس، واصبر كما صبرت لمعاوية من قبل، فلعل الله ان يحكم بينك وبين القوم الظالمين..،

وارجع من هنا إلى المدينة، وادخل في صلح القوم، ولا تغب عن وطنك، وحرم جدك رسول الله ﷺ، ولا تجعل لهؤلاء الذين لا خلاق لهم على نفسك حجة وسبيلا، وان احببت أن لا تبايع، فانت متروك حتى ترى رأيك، وإن لم تحب ان تبايع فلا تبايع ابداً واقعد في منزلك)[٣].

وقال له مروان بن الحكم:

(اني لك ناصح، فأطعني ترشد، اني آمرك ببيعة يزيد فانه خير لك في دينك ودنياك)[٤].

وقال له عمر الاطرف اخوه وهو شقيق العباس الاصغر، وامهما الصهباء من بني تغلب:

(جعلت فداك فلولا ناوأت وبايعت)[٥].

---

(١) ابن الاثير ٣/ ٤٠٤ وابن كثير ٨/ ١٧٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) حياة الامام الحسين بن علي، القرشي ٢/ ٣١٨/ ٣٢٠، نقلًا عن الفتوح ٥/ ٣٨/ ٤٢.
(٤) اللهوف لابن طاووس ط النجف ص ١١.
(٥) المصدر السابق ص ١٢.

وكتب اليه المسور بن مخرمة القرشي كتاباً من المدينة جاء فيه:

(إيَّاك ان تغتر بكتب أهل العراق ويقول لك ابن الزبير: الحق بهم، فانهم ناصروك. اياك ان تبرح الحرم، فان أهل العراق ان كانت لهم بك حاجة فسيضربون آباط الابك حتى يوافوك، فتخرج اليهم في قوة وعدة)[١].

وكتبت اليه عمرة بنت عبد الرحمن (تعظم ما يريد ان يصنع وتأمره بالطاعة ولزوم الجماعة، وتخبره انه ان لم يفعل انما يساق إلى مصرعه، وتقول اشهد لسمعت عائشة تقول:

إنا سمعت وسول الله ﷺ يقول: «يقتل الحسين بأرض بابل»)[٢].

وقال له الحر:

(إني اذكرك الله في نفسك، فاني اشهد لئن قاتلت لتقتلن، فلئن قوتلت لتهلكن فيما ارى)[٣].

وقال له مجمع بن عبد الله العامري بينما كان يساير الحر:

(. . . اما اشراف الناس فقد اعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم فهم إلب واحد عليك، واما سائر الناس بعدهم فان قلوبهم تهوى اليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك)[٤].

وقال ابو واقد الليثي:

(بلغني خروج الحسين بن علي فادركته فناشدته بالله ان لايخرج في غير وجه خروج، إنما خرج ليقتل نفسه. فقال: لا ارجع)[٥].

(ولما استشعر الناس خروجه، اشفقوا عليه من ذلك، وحذروه منه واشار عليه

---

(١) ريحانة الرسول/ عن تاريخ دمشق لابن عساكر، ص ٢٠٢، وابن كثير ٨/ ١٦٥.

(٢) ابن كثير ٨/ ١٦٥.

(٣) الطبري ٣/ ٣٠٧، وابن الاثير ٣/ ٤٠٩. وابن كثير ٨/ ١٧٥.

(٤) ابن الاثير ٣/ ٤.٩، وروى الطبري انه قال له: (اما اشراف الناس فقد اعظمت رشوتهم وملئت غرائزهم يستمال ودهم ويستخلص به نصيحتهم فهم إلب واحد عليك، الخ) الطبري ٣/ ٣٠٨، وانساب الاشراف ق ١ ج ٩ ص ٢٤١.

(٥) ابن كثير ٨/ ١٦٥، وابو واقد الليثى من صنائع بني امية تاريخ ابن عساكر ١٣/ ٦٩.

ذوو الرأي منهم والمحبة له بعدم الخروج إلى العراق، وامروه بالمقام في مكة، وذكرّوه ما جرى لابيه واخيه معهم)[1].

عقلية المعترضين تختلف في دوافعها ومنطلقاتها عن عقلية الإمام الحسين عليه السلام

ماذا رأينا في كل ذلك؟

رأينا سعياً محموماً مختلف الدوافع لتحذير الامام الحسين عليه السلام من الخروج من مكة إلى العراق، والبقاء فيها والرجوع إلى المدينة، وكان مصدره من اشخاص يختلفون في مستوياتهم ودرجة قرابتهم أو علاقتهم به.

فهل لم يكن الحسين عليه السلام يستمع اليهم؟

وهل لم يدرك العواقب التي حذروه منها، حتى وهو في مرحلة من مسيره وقد علم بتخلي أهل الكوفة عن مسلم؟

وهل كان متشنجاً أو يتصرف برد فعل عصبي وهو يستمع اليهم، ثم وهو يرد عليهم بعد ذلك كما سنرى؟ (وسنرى العكس بالتأكيد). وهل كان في مرحلة من الصبا والشباب قد تمنعه من التروي وامعان الفكر في نصائح هؤلاء واقوالهم؟ ام أن إدراكه ومستواه لم يكونا يتيحان له معرفة واقع الكوفة، ومواقف اهلها من ابيه أمير المؤمنين واخيه الحسن عليه السلام؟

ألم يعش حياة حافلة امتدت اكثر من نصف قرن مع جده وابيه، وعاصر اكثر الاحداث اثارة في التاريخ الاسلامي، وكان في خضم تلك الاحداث، شاهداً عليها، ومع اناس ذوي كفاءة وتجربة وخبرة وعلم؟

وهل لمس احد وهو يستعرض تاريخه كله ما حاول الامويون الصاقه به وهو التصرف السريع وعدم التروي والحدة وغير ذلك، حتى في اشد المواقف مدعاة لذلك؟ ام ان ألمه لواقع الامة وسقوطها واستسلامها لمعاوية ويزيد من بعده، كان أشد مما يعانيه وما يتوقعه من آلام، حتى ولو كانت آلام الذبح والقتل؟ كان موت الامة اشد هولاً عليه من موته، ومصيرها المحزن الذي تنتظره في ظل يزيد وامثاله اشد هولاً عليه من المصير المحزن الذي ينتظره اذا ما اقدم في عملية كبيرة كعمليته التي قام بها

(١) المصدر السابق ٨/ ١٦١.

لانقاذ الامة كلها، وتنبيهها إلى ما سوف تتعرض له ان هي رضيت بواقعها، وتنازلت عن وجودها كأمة اسلامية.

ربما كان الحسين عليه السلام يتألم لجلاديه انفسهم، ولمن غرروا بهم، ويرى ان مصيراً اشد قتامة وسواداً ينتظرهم، وانهم قد خدعوا بما خدع به امثالهم من قبل، وانهم انما يعيدون صوراً سبق وان طلعت على الانسانية من قبل، وانهم لم يأتوا بجديد رغم نعمة الاسلام ووضوح حجته عليهم.

هل كان مقدراً لتراث خاتم الرسل صلى الله عليه وآله، ان ينتهي هذه النهاية المأساوية على يد يزيد، وتسكت الامة ببساطة هكذا، ويأتي (عقلاؤها) ليحذروه مغبة ايقاف هذا السقوط الرهيب، لئلا يموت كما مات غيره من النبيين والشهداء والصالحين في سبيل اديانهم ومعتقداتهم؟

وهل هذا الموت هو ما يخشى منه حقاً؟ هل خشي اولئك الموت الذي لاقوه، ام اقبلوا عليه بصدور رحبة طالما انه كان يحقق اهدافهم بايقاظ اممهم وشعوبهم ودفعها لكي تنتبه إلى واقعها وحياتها، التي ظلت رهينة بايدي الطغاة والجبابرة والمستغلين على مر التاريخ؟

ولا نحسب إنه كان يعتقد ان كل من تقدم اليه (بالنصيحة) كان يغشه؟ ولعله كان من اكثر الناس معرفة بالدوافع التي جعلت هؤلاء يتقدمون بالنصح والتحذير اليه.

ربما اعتقد بعضهم انه كان يقود معركة خاسرة منذ البداية، وإنَّ عمله كان انتحاريا لا طائل منه، وربما اعتقد بعضهم انه خرج بفعل تأثره بأقوال ابن الزبير أو أهل العراق، وربما اعتقد بعضهم انه انما كان يسعى إلى السلطة وكرسي الحكم، وان خروجه كان رد فعل سريع على موت معاوية.

ينبغي أن نعلم هنا وهو ما اكدته لنا كل تفصيلات سيرته ان شخصيته وتركيبه النفسي والاجتماعي، ومركزه من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن المسلمين، وسيرته المنزهة بشهادة الهية عليا، لم تدل في اي يوم من حياته انه كان يتصرف باندفاع عاطفي ورد فعل سريع، بل انه كان نسخة من ابيه أمير المؤمنين عليه السلام، بكل ما حمله من وعي وعلم واخلاص للرسالة التي آمن بها اول الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن هنا كان سر ذلك الانحياز المطلق للاسلام وعقيدته، وسر تلك الاستقامة التي لم تر اي مجال

للمساومة أو التراجع على حساب رسالة جده ﷺ، التي حملها آله عليهم السلام أوّل من حملوها وكانوا في مقدمة المضحين في سبيلها.

إنَّ العقلية التي خاطبت الحسين عليه السلام، لم تكن تدرك ما كان يحمله من هموم وهو يرى ان محصلة الاحداث التي استدرجت اليها الامة، كانت قعود يزيد في مركز رسل الله ﷺ، وهو امر بدا غير محتمل أو قابل للتصديق أو التحمل، ليس منه فحسب، بل حتى من اصحابه الذين لم يكونوا بمستواه ومستوى ما يحمله من علم ومعرفة وادراك.

لم تدرك تلك العقلية كل ما جال بباله، ولم تدرك صعوبة المهمة التي كان يتصدى لها.

لقد كانوا حريصين على حياتهم، ورأوا أنَّ من الحكمة ان يحرص الحسين عليه السلام مثلهم على حياته، ويكتفي بالسلامة، ولا ينازل دولة الانحراف والظلم، التي بدت قوية وقاهرة بنظرهم، اذ ان في ذلك موته المحقق، وهو ما بدا خسارة كبيرة بنظرهم، ما دامت الحياة غاية كبيرة بنظر العديدين منهم.

كان لا بد للعقلية التي تخاطبه ان تحمل نفس تصوراته، وان تدرك خطورة مهمته وتدرك ابعادها ومراميها، فهل الخوف من الموت وحده هو الذي كان سيقعده عن إداء هذه المهمة الخطيرة، مهمة ارجاع الامة عن خط الانحراف، وإنقاذها من المأزق الذي وقعت فيه بفعل تراكمات الاحداث والسلطة الغاشمة، التي تسللت إلى موقع قيادة المسلمين وحكمهم؟

ولو تساءل الحسين عليه السلام وهو يعرف من هو ويعرف أهميته وموقعه من المسلمين ترى لو استسلم وبايع وأقر هذا الحكم الجائر واعترف به، ما ستكون قيمة السنوات المتبقية من عمره، وهي سنوات شيخوخة وهرم، ان لم يفعل العكس ويستثمرها بعمل مربح ستكون نتيجته انقاذ حياة الامة كلها، بل كل اجيالها على امتداد التاريخ؟ وكيف كان سيحقق هذا الهدف الكبير، ان لم يدفع ذلك الثمن الكبير؟

لقد كان الثمن عظيماً: دون شك، غير أنَّ الهدف كان عظيماً ايضاً، وكانت صعوبة المهمة على مستوى صعوبة الموقف الذي وضع نفسه فيه، بوعي وادراك وبصيرة.

وكان لا بد لمن لم يفهموا طبيعة مهمته تلك، ولمن لم يريدوا ان يفهموها أَن يبرروا مواقفهم وعدم فهمهم امامه وامام الامة، فقد كان العديدون منهم يدركون انه كان شاهداً عليهم، وانه اقوى منهم وانه يملك ان يدينهم ويحاسبهم بمنطق الاسلام، لولا ان الحساب النهائي هو بيد الله، والحكم له والمصير اليه بعد ذلك دون شك.

بعض الاعتراضات المنطلقة من عقلية الانهزام والخنوع

لا بد أن يتقدم الضعيف العاجز، والذليل الخانع ومن لا يفهم موقف الامام عليه السلام، عدا الذين قد تكون لهم اعذارهم اذا افترضنا ذلك، ويقولوا للإمام الحسين عليه السلام: لقد اخطأت بخروجك، وما كان ينبغي لك ذلك، لإنك سترمي بنفسك إلى التهلكة. لم يكونوا يريدون ان يعترفوا بعجزهم وضعفهم وعدم قدرتهم على اللحاق به وعمل ما عمله، ولم يستطيعوا الوصول إلى مستواه، ومستوى تصوره وفهمه، بل حتى إلى مستوى اصحابه الذين لم تفتهم فرصة ادراك ما ادركه واللحاق به ومشاركته في هذه المهمة الكبيرة الصعبة، مع إنَّهم لم يكونوا مثله، وشعورهم بالمسؤولية لم يصل إلى ما وصل اليه شعوره هو.

وقد عزز إعتقاد هؤلاء الخاطىء فيما بعد صواب توقعاتهم (وهو ما توقعه الامام عليه السلام نفسه)، عندما رأوه يقتل مع اصحابه بتلك الطريقة الهمجية، التي كشفت عن بربرية ووحشية منفذي الجريمة، الذين لم يروا امامهم سوى قائد دولتهم الذي اعاد للاذهان صورة فرعون، ووهم فرعون بالوهيته المزيفة وبطش فرعون، وسوى ابتسامة التشفي اذ ما اطلع على صنعهم باعدائه واعداء ابائه التقليديين. ويرون الدولة الاموية لا تزال قائمة وقوية في ظاهر الامر، تمارس مخططاتها ضد الامة، وعند ذاك انطلقوا وقالوا، وكأن الحكمة حقا هي ما كان وراء تصرفهم واقواله: ألم نقل لكم ان الحسين سيقتل بذلك الشكل المريع؟ ألم نوجه اليه نصحنا وانذارنا؟

وإذ لم يستجب، فها انتم ترون كيف كانت عاقبة ذلك.

وإذ لم نستجب نحن له، فها نحن الان احياء اصحاء امامكم ننعم بما ينعم به الاحياء امثالنا؟

غير أنهم لو عاشوا فترة أطول، ورأوا ما رأيناه نحن والذين من قبلنا ايضاً، ونحن نشهد كيف إمتد اثر هذا الموقف القوي على اجيال عديدة من الامة خلال هذه السنين الطويلة كلها، وحتى يومنا هذا، لرأوا انهم قد فقدوا فرصتهم الوحيدة التي كان

عليهم اغتنامها، وهي اللحاق: بركب. الحسين عليه السلام، أو الكف على الاقل عن تقديم النصائح والانذارات بعدم الخروج وتخذيل الامة، وحثها على الاستسلام والهزيمة والتراجع بتخاذلهم هم، وعدم الاكتفاء بذلك وذهابهم إلى حد استنكار ذهاب الامام للقيام بمهمته الكبيرة، غير اننا نعيد ما ذكرناه من اختلاف دوافع وفهم هؤلاء، وقصور بعضها عن اللحاق بفهم وتصور صاحب النهضة، الامام الحسين عليه السلام.

ولو أنهم نظروا بعينيه، وادركوا المخاطر التي اشار اليها في اكثر من حديث ومناسبة كما اوضحنا ونوضح بعون الله لربما كان معظمهم من انصاره ولحملوا السلاح معه دفاعا عن الدين، الذي إستشهد في سبيله عن عمد وسبق اصرار، وبوعي وعزم ثابت لتحقيق الهدف العظيم الذي اخذ على عاتقه القيام به، وهو منع الامة من الانحراف النهائي والسقوط في الهاوية الاموية المظلمة.

وهكذا كان ابن عمر يقول بعد ذلك:

(لقد رأى في ابيه واخيه عبرة، فرأى من الفتنة وخذلان الناس لهما ما كان ينبغي له ان لا يتحرك ما عاش، وان يدخل في صالح ما دخل فيه الناس، فان الجماعة خير)[١].

وقال سعيد بن المسيب بعد ذلك:

(لو ان حسيناً لم يخرج، لكان خيراً له)[٢].

وقال سلمة بن عبد الرحمن:

(وقد كان ينبغي لحسين ان يعرف أهل العراق، ولا يخرج اليهم)[٣].

وقال ابن خلدون:

(وأمّا الحسين، فانه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره، بعثت شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين ان يأتيهم فيقوموا بأمره، فرأى الحسين أنَّ الخروج على يزيد متعين من اجل فسقه، لا سيما من له القدرة على ذلك، وظنها من نفسه بأهليته وشوكته، فأما الاهلية فكانت كما ظن وزيادة، واما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها.

---

(١) ابن كثير ٨/ ١٦٥.

(٢) نفس ا لمصدر السابق، وتاريخ ابن عساكر ١٣/ ٦٩، وتاريخ الاسلام للذهبي ٢/ ٣٤٣.

(٣) نفس المصدر السابق، نفس المكان.

فقد تبين لك غلط الحسين، إلا انه في امر دنيوي لا يضره الغلط فيه، واما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لانه منوط بظنه، وكان ظنه القدرة على ذلك، ولقد عذله ابن العباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية اخوه وغيره في مسيره إلى الكوفة، وعلموا غلطه في ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله لما اراده الله، واما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز، ومع يزيد بالشام والعراق ومن التابعين لهم، فرأوا ان الخروج على يزيد وإن كان فاسقاً لا يجوز لما ينشأ عنه من الهرج والدماء، فأقصروا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين، ولا أنكروا عليه ولا أثموه لانه مجتهد وهو اسوة المجتهدين)[1].

وقال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في كتاب العواصم والقواصم:

(إنَّ الحسين قتل بشرع جده، وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل)[2].

وقال محمد عزة دروزه:

(فاذا كان الحسين ابى ان يستسلم ليدخل فيما دخل فيه المسلمون، وقاوم بالقوة، فمقابلته وقتاله من الوجهة الشرعية والوجهة السياسية سائغاً)[3].

وقد إستعرضنا في هذا الفصل اقوال بعض الكتاب والمؤرخين الذين بنوا آراءهم على ما وصل إلى اسماعهم من امر (النصائح) والتحذيرات المقدمة للامام، قبل وبعد خروجه من مكة إلى الكوفة، منهم معاصرون له، وممن شارك بتقديم بعض هذه النصائح والانذارات، اخترناها على سبيل المثال ولم نتقص كل ما قيل بهذا الصدد، كما لم نذكر احاديث كل الشامتين والعاذلين والاعداء، فلم تكن مثل هذه الاقوال الا لتزيد شقة الخلاف والتباعد والشقاق بين المسلمين، ولن تكون جديرة بحوار حقيقي بينهم، أو بدراسات جادة تناقش تأريخ تلك الثورة على اسس موضوعية لا تستهدف الا الحقيقة التي يسعى اليها الجميع دون شك.

اننا لا بد أن نشير إلى مسألة مهمة وهي محاولة بعض هؤلاء الذين ارادوا منع الحسين عليه السلام من الخروج أو دفعه إلى الاستسلام والمبايعة، جعل المسألة تبدو

(١) ابن خلدون، المقدمة ٢٣٩/ ٢٤٠.

(٢) المصدر السابق ٢٤٠.

(٣) محمد عزة دروزة تاريخ الجنس العربي ٨/ ٣٨٣.

كأنها تصرف شخصي مجرد من الدوافع العامة، وفي مقدمتها إنقاذ المسلمين من الخطر الذي حل بهم فعلًا، وهو ما سعى اليه معاوية في السابق، وجعل المسألة برمتها تبدو على هذا الشكل المزيف، وكأنها صراع بين اجنحة متنافسة من عائلة مرموقة هي عائلة عبد مناف، وكأن هذا الصراع (التقليدي) قد تحدر من الاباء إلى الابناء، وكأن هؤلاء الابناء متساوون في الكفاءات والمستوى والقرب من الاسلام ومن رسول الله ﷺ، وهو ما رأيناه في غضون هذا الكتاب.

ومسألة اخرى: هي إعتبار بعض هؤلاء، خروج الحسين عليه السلام خرقاً لوحدة الامة وجماعتها، وخروجاً عن طاعة ولي الامر، الذي اوجب الله علينا طاعته.

وقد رأينا كيف راح فقهاء الدولة المأجورون والمحدثون والمفسرون والقصاصون ومفسروا الاحلام وواضعوها ايضاً، والشعراء يروجون لمسألة بدت هي السائدة فيما بعد، بل ومقبولة بحكم انتشارها بين قطاعات واسعة من المسلمين، وورودها عن لسان رسول الله ﷺ عن محدثين (ثقاة) وهي: عدم جواز الخروج على الخليفة ولو كان فاسقاً، لما ينشأ على ذلك من الهرج والدماء، كما في قضية يزيد.

وكانوا بذلك يمهدون لكي تتقبل الامة يزيد حاكماً وخليفة عليها، وتتقبل من هم على شاكلته بعد ذلك ليكون قبولها مبرراً ومشروعاً، ولا ترى لأحد وجهاً في الخروج على طاعته لاي سبب، ما دام هؤلاء قد (اخترعوا) بعض الاحاديث ونسبوها إلى الرسول الكريم ﷺ، وفيها يحث أُمته على عدم التعرض للحاكم الفاسق لما في ذلك من المهالك، ولما فيه من الفرقة، ولما يسببه من النزاعات والخصومات والحروب.

وقد ناقشنا هذا المورد بعد ان تعرضنا إلى بعض المبررات التي ساقها هؤلاء لتعزيز حجتهم ودعواهم.

إنّ منطق اولئك الذين حاولوا منع الحسين عليه السلام من الخروج، ومن شايعهم بعد ذلك عدا من كان عنده مبرر شرعي للقعود كمحمد بن الحنفية كما ذكر بعض المؤرخين[1]، وعبد الله بن عباس، وآخرين، كان لتبرير قعودهم واستسلامهم وتخاذلهم امام طغيان الدولة وعبثها.

---

(١) فقد قيل كما اوضحنا أنه كان مريضاً، وإن الامام عليه السلام كلفه بالبقاء في المدينة لكي يتابع ويراقب الاوضاع فيها، ويعلم الامام بحقيقتها.

ولا يزال هذا المنطق سلاحاً بيد كل مستسلم وخانع يبرر به قعوده عن مواجهة الظلم والتصدي له، ويستعمله (حجة) على اولئك الذين رأوا رأي الامام عليه السلام وتصرفوا وفق عقليته التي هي عقلية الاسلام، فليس من المعقول ان يكون هذا الدين والامة كلها رهنا بتصرفات وسلوك اولئك الخارجين عن الاسلام، والذين لا ينتمون اليه الا انتماء ظاهرياً، بل ويعادونه مع انهم يرفعون بعض شعاراته للمتاجرة بها والافادة منها في تثبيت حكمهم ومصالحهم.

لقد كان الذين حملوا منطق الحفاظ على الوحدة والجماعة بمفهومها الاموي هم رجال الدولة الاموية وموظفوها وخدمها، والسائرون بركابها، والخانعون الاذلاء الذين قنعوا بالسلامة، وانتظروا معجزة من السماء تغير الحال الذي ربما كان بعضهم لم يقتنع به في قرارة نفسه، غير انه لم يرفع يداً أو اصبعاً للاعتراض عليه.

قال ابن عمر للحسين عليه السلام وابن الزبير:

(إتقيا الله ولا تفرقا جماعة المسلمين)[1]،

(واما ابن عمر فقدم، فاقام اياماً فانتظر، حتى جاءت البيعة من البلدان فتقدم إلى الوليد بن عتبة فبايعه)[2].

وقد اعترض رسل عمرو بن سعيد الحسين عليه السلام عند خروجه من مكة، وقالوا له بعد ما حاولوا بالقوة منعه من الذهاب:

(الا تتقي الله تخرج من الجماعة وتفرق بين هذه الامة؟)[3].

كما كتب اليه عمرو بن سعيد هذا قائلًا:

(فاني أسأل الله ان يصرفك عما يوبقك، وان يهديك لما يرشدك. بلغني انك توجهت إلى العراق، واني اعيذك بالله من الشقاق)[4].

وقد رأينا كيف ان عمرة بنت عبد الرحمن كتبت اليه:

---

(١) و(٢) الطبري ٦/ ١٩١، وراجع المصدر السابقة التي ذكرناها في هذا الفصل وابن الاثير ٣/ ٣٨٠.

(٣) و(٤) الطبري ٦/ ٢١٨، وابن كثير ٨/ ١٦٧.

(تعظم عليه ما اراد ان يصنعه وتأمره بالطاعة ولزوم الجماعة، وتخبره ان لم يفعل انما يساق إلى مصرعه)[1].

كما ان يزيداً نفسه كتب إلى ابن عباس يحثه على منع الامام من الخروج قائلًا:

(فإنَّ كان قد فعل [خرج إلى العراق] فقد قطع راسخ القرابة، فاكففه عن السعي في الفرقة)[2].

وذكروا ابياتاً من الشعر نسبوها إلى يزيد، يحذر فيها من الخلاف والشقاق، وهي على نمط شعر زهير بن ابي سلمى، التي تحث على نبذ الحروب، وفيها يهدد ويتوعد كل رافض لدولته وحكمه، وهي ابيات لا شك موضوعة يبرر بها اعوان السلطة الاموية موقف يزيد، وانه قام بما كان ينبغي عليه ان يوديه من واجب النصيحة والتحذير، من منطلق حرصه على وحدة المسلمين وجماعتهم، وانه لم يبطش ويأمر بالقتل الا بعد ان اعيته الحيلة وبلغ النصيحة.

ردود الامام الحسين عليه السلام على المعترضين

أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله بأمر أنا ماض له

لقد كان الجميع يحذرون الحسين عليه السلام ويخوفونه من الموت والقتل، وكانت هذه النتيجة محتومة بنظرهم، فهل كانت تخفى على الحسين عليه السلام واصحابه؟ وهل كان يعتقد حقاً كما ذكر بعض الكتاب المحدثين انه كان ذاهباً حقاً إلى نزهة أو إلى عرش ممهد وسلطان مشيد؟

وكما كانت الإعتراضات على خروجه تصب في اتجاه واحد، كانت اجوبته عليه السلام واحد لا تتغير وان اختلفت صيغها، وكان يعلن عزمه في جميع هذه الاجوبة على رفض الدولة الاموية اليزيدية التي تريد ان تقوم على انقاض الاسلام، بل انها بدأت تسلك هذا الاتجاه منذ زمن بعيد، وبدأت الآن تجني (ثمار) سعيها الطويل الذي بدأه معاوية واحكمه ومهد له بجهود حثيثة متواصلة جند لها قوى وامكانات هائلة، واصبح يزيد بعد كل تلك المساعي رأس هذه الدولة وقائدها وامامها.

---

(١) و(٢) ابن كثير ٨/ ١٦٥/ ١٦٦.

ونلاحظ أنّ الامام الحسين عليه السلام لم يتهم احدا من المحذرين والناصحين بالغش، وقصور النظر أو عدم الفهم، بل انه شكرهم وبلغهم عزمه برفق ولين، ولم يكن منفعلًا أو متشنجاً أو عصبياً، وانما كان يفيض سماحة وحباً، ولعله كان يتألم اشد الالم لاولئك الذين لم يدركوا ما ادركه، وعلموا ما علمه، وكانوا يرفضون تحمل مسؤولياتهم وواجباتهم تجاه ما يحل بالامة من كارثة محققة.

ولعله ادرك العقليات التي يفكرون بها، وكان بعضها مقارباً لنظرته، الا انها تختلف معه في الاسلوب الذي رآه، وفي توقيت الخروج كابن عباس وابن الحنفية، مع ان توقيته كان هو التوقيت المناسب، واسلوبه هو الاسلوب الصحيح. قال عليه السلام لاخيه محمد بن الحنفية:

(يا أخي لقد نصحت فاشفقت، فارجو ان يكون رأيك سديداً موفقاً، لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية)[1].

وقال في وصيته التي عهد بها اليه:

(إني لم اخرج اشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالما، وانما خرجت لطلب الاصلاح في امة جدي صلى الله عليه وآله، اريد ان آمر بالمعروف وانهى عن المنكر، واسير بسيرة جدي وابي علي بن ابي طالب، فمن قبلني بقبول الحق، فالله اولى بالحق، ومن رد علي اصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين)[2].

وقال له قبيل خروجه من مكة:

(قد خفت ان يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم، فاكون الذي تستباح به حرمة هذا البيت)[3].

وقال لعبد الله بن عباس:

(إني استخير الله وانظر ما يكون)[4].

---

(١) الطبري ٦/ ١٩١، والفتوح ٥/ ٣٣.
(٢) مقتل الخوارزمي ١/ ١٨٨، والفتوح ٥/ ٣٣.
(٣) تاريخ الاسلام للذهبي ج ١ ص ٢٤٢.
(٤) الطبري ٦/ ٢١٦، وابن الاثير ٣/ ٤٠٠.

وقال له، عندما فاتحه مرة اخرى بعدم الذهاب إلى العراق:

(اني والله لأعلم انك ناصح مشفق، ولكني قد ازمعت واجمعت على المسير)[١].

وقال له ايضاً:

(فإني مستوطن هذا الحرم ومقيم به ما رأيت اهله يجيبونني وينصرونني، فأذا هم خذلوني إستبدلت بهم غيرهم واستعصمت بالكلمة التي قالها ابراهيم يوم ألقي في النار «حسبي الله ونعم الوكيل» فكانت النار عليه برداً وسلاماً)[٢].

وقال له عندما نصحه بالمسير إلى اليمن:

(يا ابن عم اني لأعلم انك ناصح مشفق، ولكن قد ازمعت واجمعت على المسير، وهذه كتب أهل الكوفة ورسلهم.وقد وجبت علي اجابتهم، وقام لهم العذر عند الله سبحانه)[٣].

وقال له:

(يا ابن عباس، ان القوم لم يتركوني، وإنَّهم يطلبونني اينما كنت حتى ابايعهم كرهاً اويقتلونني، والله لو كنت في ثقب هامة من هوام الارض لاستخرجوني منها وقتلوني، والله انهم ليعتدن علي كما اعتدت اليهود في السبت، واني ماض في امر رسول الله حيث امرني)[٤].

وقال لابن عمر:

(هيهات يا ابن عمر ان القوم لا يتركوني، فلا يزالون حتى ابايع وانا كاره أو يقتلوني.

---

(١) الطبري ٦/ ٢١٧، وابن الاثير ٣/ ٤٠٠، ومروج الذهب ٣/ ٦٨، وذخائر العقبى ١ ٦٥.
(٢) الخوارزمي ١/ ١٩٣.
(٣) الطبري ٦/ ٢١٧، وابن الاثير ٣/ ٢٧٦، وجمهرة خطب العرب ٢/ ٣٦، ومروج الذهب ٣/ ٦٥، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٠٧، وترجمة ريحانة الرسول من تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٠٤، ونهاية الارب للنويري ٢٠/ ٤٠٨، والخوارزمي ١/ ٢١٧.
(٤) المصادر السابقة.

وقال:

(أنا ابايع يزيد، وادخل ني صلحه، وقد قال النبي ﷺ فيه وفي ابيه ما قال)[1].

وقال لابن الزبير عندما دعاه إلى الاقامة بمكة (وكان يعلم انه كاذب):

(ان ابي حدثني ان بها كبشاً يستحل حرمتها فما احب ان اكون انا ذلك الكبش)[2].

وقال له ايضاً:

(لان اقتل في مكان كذا وكذا، احب الي من ان اقتل بمكة)[3].

وقال له، عندما طلب منه ابن الزبير ان يقوم ويوليه الامر:

(وما اريد هذا ايضاً)[4].

وقال لعمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي:

(جزاك الله خيراً يا ابن عم، فقد والله علمت انك مشيت بنصح وتكلمت بعقل ومهما يقض من امر يكن، اخذت برأيك أو تركته فانت عندي احمد مشير وانصح ناصح)[5].

وقال لجمع من الناس في المسجد الحرام:

(والله لان اقتل خارجاً منها [مكة] بشبر، احب الي من ان اقتل داخلًا فيها بشبر، وايم الله، لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا في حاجتهم. والله ليعتدن علي كما اعتدت اليهود في السبت)[6].

وقال للوليد بن عتبة:

(إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة ومحل الرحمة بنا فتح

---

(١) الفتوح ٣٨/ ٥/ ٤٢.
(٢) الطبري ٦/ ٢١٧، وابن الاثير ٣/ ٤,..
(٣) ابن كثير ٨/ ١٦١، وذخائر العقبى ص ١٥١.
(٤) الطبري ٦/ ٢١٧.
(٥) الطبري ٦/ ٢١٦، وابن الاثير ٣/ ٣٩٨، ومروج الذهب ٣/ ٧٠، وابن كثير ٨/ ١٦٥.
(٦) الطبري ٦/ ٢١٧، وابن الاثير ٣/ ٤٠٠.

الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب خمر، قاتل النفس المحرمة معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون اينا احق بالخلافة والبيعة)[١].

وقال لرسل عمرو بن سعيد حينما حاولوا منعه بالقوة من الخروج من مكة:

﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٢] [٣].

وأجابه حينما دعاه للرجوع إلى مكة:

(اما بعد، فانه لم يشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله عز وجل وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين، وقد دعوت إلى الامان والبر والصلة، فخير الامان امان الله، ولن يؤمن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا، فنسأل الله مخافة في الدنيا توجب لنا اماناً يوم القيامة)[٤].

وقال للفرزدق الشاعر:

(لله الامر، والله يفعل ما يشاء، وكل يوم ربنا في شأن، ان نزل القضاء بما نحب، فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على اداء الشكر، وان حال القضاء دون الرجاء، فلم يعتد من كان الحق نيته والتقوى سريرته)[٥].

وقال مخاطباً جيش ابن زياد الذي كان مع الحر عندما كان يسايره:

(ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا ينتهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله، فاني لا ارى الموت الا سعادة والحياة مع الظالمين الا ذلّاً وبرما)[٦].

وأَجاب عمرة بنت عبد الرحمن حين عظمت عليه الخروج:

(فلا بد لي اذاً من مصرعي)[٧].

---

(١) الفتوح ٥/ ١٨.

(٢) يونس ٤١.

(٣) الطبري ٦/ ٢١٨، وابن كثير ٨/ ١٦٧.

(٤) الطبري ٦/ ٢١٩/ ٢٢٠، وابن كثير ٨/ ١٦٥/ ١٦٦.

(٥) الطبري ٦/ ٢١٨، وابن الاثير ٣/ ٤٠٢.

(٦) العقد الفريد ٥/ ١٢٢، والطبري ٣/ ٣٠٧.

(٧) ابن كثير ٨/ ١٦٥.

وقال لام سلمة:

(يا اماه، ان لم اذهب اليوم ذهبت غداً، وان لم اذهب في غد ذهبت بعد غد، وما من الموت والله بد)(١).

واجاب عبد الله بن حعفر بن ابي طالب:

(«اني رأيت رؤيا فيها رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمرت فيها بأمر أنا ماض له، علي كان أو لي» وعندما قيل له: فما تلك الرؤيا؟ قال: ما حدثت احداً بها. واما انا محدث بها حتى القى ربي)(٢).

واجاب ابا واقد الليثي، وهو من اعوان الدولة عندما حذره من الخروج قائلًا:

(لا أرجع)(٣).

وقال:

(والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فاذا فعلوا سلط الله عليهم من يذلهم، حتى يكونوا اذل من فرم الامة)(٤).

وقال لرجل من العرب في بطن العقبة نصحه بالتراجع:

(لا يخفى علي ما ذكرت، ولكن الله عز وجل لا يغلب على امره)(٥).

الامام الحسين عليه السلام يلخص منهج الردود

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلما

قال عليه السلام للحر:

(أبالموت تخوفني، وهل يعدو بكم الخطب ان تقتلوني؟ وما أدري ما اقول لك، ولكني اقول كما قال اخو الاوس لابن عمه وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله: اين تذهب فانك مقتول؟ فقال:

---

(١) اللهوف لابن طاووس/ النجف ص ١٢.

(٢) مدينة المعاجز السيد هاشم البحراني ص ٢٤٤، ومقتل العوالم عبد الله البحراني ص ٤٧.

(٣) الطبري ٦/ ٢١٩، وابن الاثير ٣/ ٤٠٢، وا بن كثير ٨/ ١٦٥.

(٤) ابن كثير ٨/ ١٦٥.

(٥) الطبري ٦/ ٢٢٣، وابن الاثير ٣/ ٤٠١، والفصول المهمة ١٦٧، ونهاية الارب للنويري: ٤١٦/٢٠.

(٦) ابن الاثير ٣/ ٤٠٤، وابن كثير ٨/ ١٧٣.

سأمضي وما بالموت عار على الفتى   اذا ما نوى خيراً وجاهد مسلما
وواسى رجالًا صالحين بنفسه   وخالف مثبوراً وفارق مجرما)(١)

ماذا نرى في اجوبته عليه السلام لكل من تقدم اليه بالنصح والتحذير؟ هل نجد فيها تراجعاً عن عزمه الاول الذي اعلنه قبل بضع سنوات بعدم مبايعة يزيد والاعتراف به رأساً للدولة الاسلامية؟ ام نجد تصميماً على المضي فيما عقد عليه العزم منذ البداية؟

وكما أصبح معلوماً لدينا ان تلك البداية، لم تكن منذ وفاة معاوية وجلوس يزيد على كرسي الخلافة، وانما بدأت قبل اكثر من سبع سنوات، حينما عمل معاوية بجد ودأب على اخذ البيعة لولده، واجبر الامة على توقيع عقد الاستسلام والخضوع ليزيد.

فهل ترك معاوية الحسين عليه السلام طيلة تلك المدة؟ وهل لم يعرضه كإنسانٍ منافس ليزيد ومتلهف على السلطة، ومتميز باندفاعات وردود فعل سريعة وغاضبة ومتشنجة؟ لقد عمل الاعلام الاموي على توجيه اضوائه على الحسين عليه السلام مفتعلًا بعض الاحداث والاكاذيب والاقاصيص، وكانت تضع مقابل (اندفاعه وجرأته) (حلم معاوية)، (ونصائحه) بضرورة الكف عن مواقفه، والاستجابة لما استجابت الامة كلها له، ومخاوفه الوهمية عليه بانه لن يجد في حال وفاته ـ اي معاوية ـ من يمكن ان يتسع صدره لتصرفاته.

وكان ذلك بمجمله من معاوية إسلوباً تحريضياً مضللًا تعرف الأُمة بموجبه أَن معاوية قام بما يجب عليه من النصح والإرشاد، وانه حقاً يتخوف على حياة الحسين عليه السلام ، وقد ادى حقه. كما انه تمهيد لتوقع وقبول قتله من قبل من سيأتي بعده وهو يزيد، اذ ستعذره الامة اذا ما اقدم على ذلك، باعتبار انه لا يتمتع بالصبر والكفاءة والخبرة التي كان يتمتع بها ابوه، وانه ملك شاب، ومن الطبيعي ان يحافظ على عرشه وسلطانه من ان يتعرض له اي فرد، حتى ولو كان الحسين عليه السلام ثم الم يحذر معاوية الحسين عليه السلام مغبة الاستمرار و (التمادي) بهذا الموقف الرافض العنيف، وأليس ما توقعه معاوية قد حصل فعلًا؟

إن وساماً يعلق هنا على صدر معاوية، باعتباره قد أعذر وتنبأ بعد ذلك بالمصير

---

(١) ابن الاثير ٣/ ٤٠٩، وابن كثير ٨/ ١٧٥، والطبري ٣/ ٣٠٧.

الذي يمكن أن يلقاه الحسين عليه السلام ، اذا إستمر على موقفه، وهو وسام يشهد على براعته وسياسته وبعد نظره. كما انه بتبرئته ليزيد الذي فعل ما فعل بدافع من رد فعل طبيعي، أو غريزي للدفاع عن النفس، وهو امر متوقع منه ومن كل شخص آخر قد يكون في موقعه. أليس هذا ما حاولت الدعاية الاموية ترسيخه في الأذهان، وتقبلنا نحن ذلك وانطلت علينا الحيلة، ورحنا نكتب ونؤرخ ونحلل وكأننا اكتشفنا امراً جديداً لم يكن احد يفكر بوضعه في رؤوسنا، وكأن معاوية (الداهية) كان عاجزا عن القيام بما قام به يزيد بعد ذلك، لانه كان ذا حريجة في الدين، وكانت الرحمة والتسامح من طبائعه، وقد ترك المهمة ليزيد، قائلا فماذا افعل اذا ما جاء شخص مثل يزيد ولم يتحمل تصرفاته وقتله؟ من سيكون المخطىء منا:

إنا أم الحسين ام يزيد؟ اما هو فسيبرأ، وهذا ماقام به جماعة من المؤرخين ومن اعادوا كتابة التاريخ، واما يزيد، فقد كان ما قام به امراً طبيعياً يلجأ اليه كل من يتعرض من امثاله إلى معارض أو ثائر عليه، اما المخطىء هنا على حد الزعم الاموي فهو الحسين عليه السلام .

أما لماذا كان مخطئاً؟ هل لأن يزيد كان من ينبغي ان يكون في موقع خلافة المسلمين؟ واذ لا يستطيع احد ان يقول نعم، فان خطأ الحسين هنا اصبح خطأ سياسياً وليس خطأ عقائدياً بنظر هؤلاء، وكان ينبغي ان يعد للامر عدته ويتسلح بالقوة الكافية التي تتيح له القضاء على عدوه، واذا ما كان لا يملك مثل تلك القوة فعليه بالقعود والتخلي عن فكرة تنحية يزيد،

ومن هنا كانت تلك الكتابات الملتوبة التي اشارت إلى خطأ الحسين عليه السلام المزعوم لأنه لم يكن مسلحاً وقوياً بما فيه الكفاية للتصدي ليزيد، بعد ان لم تستطع ان تشير إلى انه كان مخطئاً برأيه حول ضرورة ابعاد يزيد، كما فعل ابن خلدون.

وإذ لا يمتلك الآخرون ذكاء وحصافة ابن خلدون، فانهم فهموا كلامه على غير الوجه الذي جاء به، وتخلوا عن بقية الحياء الذي كان يحيط به عند مناقشة هذه القضية الحساسة، فاعلنوا انحيازهم ليزيد وتخطئتهم للحسين جملة وتفصيلاً، وذهبوا إلى اتهامه بالخروج على الاسلام نفسه، كما فعل اعوان يزيد من المعاصرين له، وبعض المعاصرين لنا ايضاً.

ولو ان هؤلاء قد اتيحت لهم فرصة المشاركة بالحملة التي جردت لقتل الامام

الحسين عليه السلام وأصحابه في موقعة الطف، لكانوا قد تولوا هم مهمة ذبحه بدلًا عن الذين فعلوا ذلك.

إنّ المتمعن باجوبة الامام الحسين عليه السلام لمن حثه على عدم الخروج إلى العراق والبقاء في مكة أو الرجوع إلى المدينة أو الذهاب إلى مكان ناء كشعاب اليمن يجد انها تنص على جملة امور:

الاول: يدلل على انه لا يجد سبيلًا لمبايعة يزيد ووضع يده في يده، وأنّ هذا الامر مستحيل للاسباب التي ذكرها وتحدثنا عنها في السابق.

الثاني: يدلل على أن موقفه هذا يعرضه للخطر في كل الاحوال سواء بقي في مكة أو المدينة، أو ذهب إلى اليمن أو العراق أو غيرهما، بل لعل تعرضه للخطر في مكة والمدينة اكثر احتمالًا من تعرضه للخطر في غيرهما، وربما قتل في مكة قبل ان يعلن موقفه المناوىء للدولة الاموية امام الامة، وبهذا فان دمه سيضيع حقاً دون ان يتمكن من اشعار الامة بدوافعه الحقيقية من وراء الثورة، وستضيع القضية كلها بفعل الجهود الاموية، وقد لا يتاح للامة قائد آخر يقدم على ما اقدم عليه ويتمتع بنفس المنزلة والمكانة منها، ليعيدها إلى مستوى الرسالة التي قدر لها ان تحملها وتدين بها.

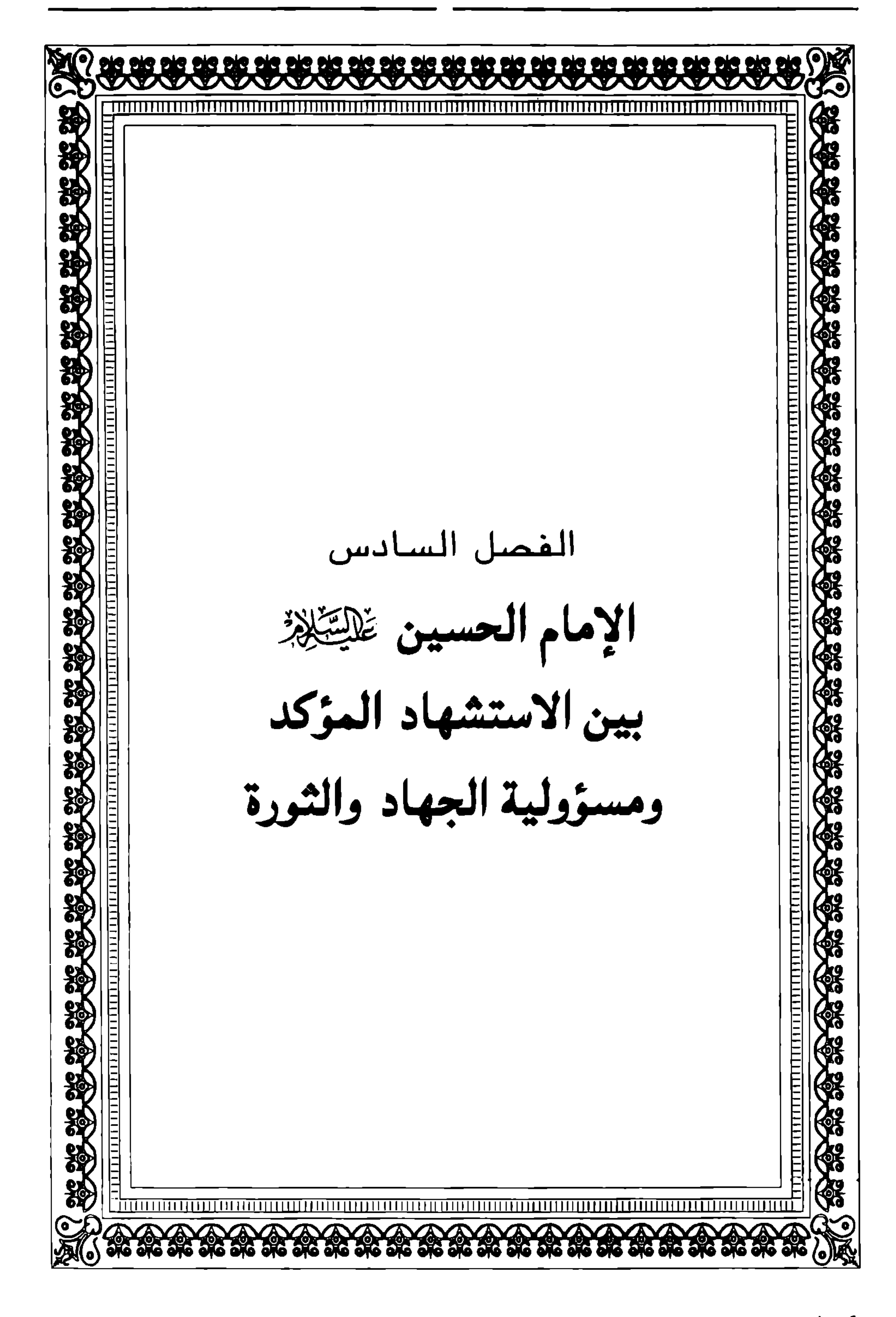
الثالث: وما دام يتعرض لخطر الموت في النهاية وهو امر وضعه في حساباته دائماً وهو يواجه السلطة المتجبرة، فلماذا لا يكون ذلك هو الثمن المناسب للمهمة الكبيرة التي كان مقدماً عليها، وهي انقاذ الامة من شرور النظام الفاسد ولفت نظرها إلى الواقع المتردي التي جرت اليه بفعل الحملات المنظمة المدروسة والدؤوبة من قبل معاوية، لكي تتخلص بالتالي من ذلك الواقع وتعود إلى مواقفها السابقة القوية.

ولعله لم ير في ذلك مجرد تضحية يعاني فيها ويتألم، بقدر ما رأى فيها سعادة بالغة، كما دلت عليه أقواله ومواقفه بعد ذلك وهو يعيش أيامه ولحظاته الأخيرة على هذه الأرض.

الرابع: إنّه واثق من النهج والاسلوب الذي اتبعه، ولم يساوره ادنى شك بوضوح وسلامة المهمة التي اخذ على عاتقه القيام لها، والنتائج العظيمة التي لا بد ان تتمخض عنها في النهاية، سواء على المدى القريب وبعد سنوات قليلة من استشهاده، أو على المدى البعيد، طوال السنوات التي ستلي تلك، وربما بعد مئات من السنين.

الخامس: إنّ اصراره المسبق لرفض الحكم الاموي، ربما جعله يضع نقطة البداية للثورة عليه، وربما حدد تلك النقطة عند موت معاوية، اذ سيكون ذلك هو الوقت المناسب للقيام بفعل مناسب، أو بعمل ما، وعدم الاكتفاء برفض البيعة أو السكوت والقعود والانزواء، وفي غمرة الذهول الذي يرافق موت معاوية وزوال سلطانه واضوائه وابهته وتأثيراته وسحره، قد يكون لثورته فعل ايجابي مؤثر يجعل الامة تنتبه بعد سباتها بتأثير الاسطورة الاموية والخطر الاموي تحت ظل معاوية، بعد ان لن يعود يزيد متمتعاً برعايته وحمايته وحزمه ومكره، وقد تكون تلك الفرصة هي انسب الفرص للاطاحة به.

وهكذا لم يشأ الحسين عليه السلام ان يعلن صراحة ما فكر فيه لاولئك الذين قد لا يفهمون دوافعه اذا ما اعلنها عليهم، غير ان الذي لمسوه منه هو قناعته باهمية المهمة التي كان يؤديها ودوره هو فيها، وتلهفه على انجازها في الوقت المناسب وفي ساعة الصفر التي حددها لها، وهذا ما سنرى مزيداً من الادلة عليه.



الفصل السادس

الإمام الحسين عليه السلام
بين الاستشهاد المؤكد
ومسؤولية الجهاد والثورة

الإمام الحسين عليه السلام بين الاستشهاد المؤكد ومسؤولية الجهاد والثورة

تمهيد

تؤكد نصوص عديدة، ومن بينها نصوص موثوقة ومسندة كما سنرى ان الحسين عليه السلام، كان يرى قتله محتماً على يد أعوان الطغمة الاموية، ما دام يتصدى لهم ويقف بوجه طموحاتهم غير المشروعة، ويعلن رفضه لدولتهم المزيفة على رؤوس الاشهاد دون خوف أو تردد[١].

ويبدو هذا من الامور المتوقعة في دولة الظلم والجور، إذ ان من الصعب عليها أن تسمع ولو همساً بشأن تصرف قادتها وانحرافهم، وتذهب إلى حد رصد انفاس الناس والاخذ بالظنة والشبهة، أي انها تستأصل مصادر الخطر المحتملة، قبل ان تواجه ذلك الخطر بشكل حقيقي.

وفي قضية كهذه، يلوح امامها الخطر واضحاً، ومن شخص ذي مكانة رفيعة، مؤهل لأن يستقطب جماهير المسلمين إلى صفه، يكون احتمال سقوطها وارداً جداً. وهنا ينبغي لنا أن لا نعتقد انها ستتقدم بغصن الزيتون لمن أراد الإطاحة بها، كما ينبغي ان نعتقد ان الامام الحسين عليه السلام لم يكن يعتقد ذلك ايضاً.

كم من العناصر الطفيلية التفت حول هذه الدولة وربطت مصيرها بمصيرها، فأثرت وأترفت وتنفذت.

ان الملاحظ هنا ان أبعد الناس عن الأسلام، اصبحوا هم المسيطرين على مقدرات الامة الاسلامية، وكان الترف والثراء الاسطوري الذي لم يحلم أباؤهم بمثله، والنعيم الذي وجدوا أنفسهم فيه فجأة، أحد دواعي بطرهم وغرورهم

---

(١) وقد وردت بعض الاشارات إلى ذلك في أجوبته لمن (نصحوه) وحذروه من الخروج إلى العراق كما رأينا في هذا الفصل.

وابتعادهم عن الاسلام بشكل واضح وقد تكلمنا عن مجتمع الترف في ظل الدولة الأموية الذي أعاد إلى الاذهان مجتمعات الترف السابقة، التي كانت هي نفسها مجتمعات الكفر والطغيان والتسلط والاستغلال.

وبحسبنا ان نذكر هنا ان حجم هذه الطبقة المترفة اصبح محسوساً، وذي ثقل وتأثير واضحين جعلته يسيطر بشكل كامل على المجتمع الاسلامي، بحيث بدا ان الخلاص منها لن يتم الا بمعجزة أو بثورة شبيهة بثورة الاسلام الاولى، التي فجرت بوجه الجاهلية والالحاد والاستغلال على يد رسول الاسلام ﷺ، فهل كان احد يحسب ان رسول الله ﷺ لم يأخذ بنظر الاعتبار المخاطر العديدة التي كان يمكن ان يتعرض لها وهو يواجه عتاة قريش ومشركيها ومترفيها؟

وهل لم يكن احتمال الموت والاذى وارداً أمامه في اي لحظة؟

وهل لم يتعرض لذلك عدة مرات فعلًا؟ فما الذي دفعه للاستمرار في مهمته الصعبة رغم المخاطر المحققة التي كان يمكن ان تنزل به ومنها خطر الموت؟

لا شك أنَّ اليقين بالرسالة التي اؤتمن عليها وهي الاسلام، هو الذي دعاه لذلك، ، وإلا فما الذي دفع رجالًا من صحابته للاقدام على الموت بتلك البسالة الفريدة، إن لم يكن ايمانهم بها ايضاً؟

وهل إذا قلت الحالات التي يقوم بها أحد كما قام به أولئك في ظل الاجواء التي أوجدها رسول الله ﷺ، ولم يقيض لها ان تستمر بتلك الكثافة وذلك الزخم، حكمنا عليها بانها حالات شاذة وان اصحابها أبعد ما يكونون عن الواقعية والتعقل، في ظل أوضاع أصبحت فيه الحياة أعز شيء، والتنعم فيها هدفاً مطلقاً؟ وفي ظل أوضاع أصبح فيها يزيد بديلًا عن رسول الله ﷺ، واصحابه بديلين عن صحابته، واصبح هدف الدولة وهاجسها الكبير هو تسليط الاضواء على قائدها والتركيز عليه كمتصرف وحيد مطلق بمملكته، يمتلك ذلك بموجب تخويل الهي ادعته تلك الدولة له، وهكذا فلم يكن ممكناً الاعتراض على كل ما كان يفعله، أو رفع الانظار اليه، واصبحت تلك حالة ممنوعة في عهد من جاء بعده من (الخلفاء) الامويين[١].

(١) ووصل الأمر إلى حد اعلان عبد الملك بن مروان بعد عدة سنوات ذلك صراحة: (...والله لا يأمرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا ألا ضربت عنقه..)، وهو (أول من نهى عن الأمر بالمعروف) تاريخ الخلفاء السيوطي ٢٠٣-٢٠٤.

وأصبح كل هم الحاشية والاتباع ان يزينوا (الخليفة) عمله، كما كان اعوان فرعون يزينون لفرعون عمله.

واذا لم يعلن معاوية ذلك صراحة[1] فانه كان يتم بشكل عملي، وكأن (الخليفة) غير مسؤول أو محاسب امام أية قوة اخرى، حتى ولو كان هو الله عز وجل، كما رأينا عند شهادة حوالي أربعين (فقيهاً) وواعظاً امام يزيد بن عبد الملك بان الخليفة غير محاسب امام الله.

هل لم تلفت حالات الانحراف الرهيبة التي حدثت أيام معاوية، والتي كانت تمهد لخروج معلن عن الإسلام نظر الإمام الحسين عليه السلام حقاً؟

وهل لم ينظر إلى القائمين بها عن عمد وتخطيط واصرار نظرته إلى اعداء الاسلام من المشركين والكفار الاخرين؟

وهل كان غير مسؤول عن تقويم الانحراف المتسارع المتزايد والذي كاد ان يودي بالأمة كلها ويقضي على كل ما حققته من مكاسب في ظل الاسلام؟

وهل ان التغيير يتم بمجرد رغبة أو اشارة منه فيستجيب (الخليفة) المنحرف، ويسارع بالعودة إلى الاسلوب الصحيح والمنهج الصحيح؟

وهل كانت الامة على استعداد للاستجابة بسهولة، والالتفاف حوله لانجاز مهمته الكبيرة للتصدي بحزم ليزيد واعوانه وحاشيته؟

فلو انه قعد ولم يواجه يزيد لقال الآخرون من المتكاسلين والخائفين والمساومين: ما بالنا نحن نقوم بالامر ونواجه يزيد، وهذا الحسين عليه السلام امام الامة وقائدها وسبط رسولها صلى الله عليه وآله، قد تخلى عن كل شيء وقبل بيزيد خليفة على المسلمين.

يجب ان ندرك ان الحسين عليه السلام قد حمل ما لم يحمله احد من المسلمين. انه امام مواجهة صعبة، وامام خيار صعب، واصعب ما فيه الاستجابة ليزيد ومبايعته والاقرار بصحة حكمه وخلافته.

والا فما الذي يمكن ان يفعله، غير ان يقوم باعلان رفض البيعة والاستجابة لمن دعوه للثورة، وقد رأى انه ملزم امام الامة بالاستجابة لهم، كما عبر هو عن ذلك بوضوح.

---

(١) مع أنه أشار عدد مرات أنه خليفة الله المتصرف بأمواله وعبادة كيف يشاء، كما اشرنا من قبل.

وهنا: نعود إلى سؤالنا: هل كان الحسين عليه السلام يرى ان مثل هذه المهمة يمكن انجازها بسهولة، وان الطريق من مكة إلى الكوفة سيكون مفروشاً بالورود؟ أم ان الدولة وهي ترى كل (انجازاتها ومكاسبها) عرضة للانهيار، بل ان حياة قادتها ستكون معرضة للتلف والموت امام ثورة محتملة كبرى ستزج بكل امكاناتها للقضاء على هذه الثورة ومحاصرتها واستئصال قائدها؟ حتى ولو كان هو الحسين عليه السلام سبط رسول الله صلى الله عليه وآله، بل حتى لو كان هو رسول الله صلى الله عليه وآله لو انه كان موجوداً وتصدى لدولتهم.

وهذا ما بدا بوضوح للامام الحسين عليه السلام.

ان الدولة لن تتنازل بسهولة امامه، وستواجهه بعنف وبأشد الاساليب دموية وبطشاً، وسيكون هو أول المستهدفين وفي رأس قائمة المطلوبين للقتل.

إني لم أخرج أشراً ولا بطراً

لقد كان الإنحراف، بل السقوط متوقعاً في ظل الأوضاع التي تتخلى فيها الأمة عن وجودها كأمة إسلامية، عليها أن تتمسك بكل ما أنزل عليها وأريد منها، لا ببعض الإشكال الطقوسية، الظاهرية المجردة وحسب، كالصلاة والصيام والحج التي يؤديها الجميع، ما دام الشكل الادائي الظاهري لا يضر الحاكم وطبقته المترفة، التي قد تكون أحياناً في مقدمة المشاركين وخصوصاً في المناسبات العامة، فذلك من شأنه أن يحسن صورتها بنظر الجماهير.

إن هذا الشكل الظاهري هو الذي أريد له أن يبقى (مع تجريده من محتواه الأساسي)، وقد رفض كل ما من شأنه تصحيح الانحراف مثل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي فريضة أساسية، أكد الاسلام على أن تركها سيكون بداية النهاية لهذه الأمة، وقد أريد لها أن تتناول الأمور الجوهرية الأساسية لا الشكلية وحسب، غير أن الذي حدث بعد ذلك كان عكس ذلك تماماً.

كان أداء هذه الفريضة الأساسية في صدر الاسلام، وعند حكم الرسول صلى الله عليه وآله يسيراً في وجوده وتحت غمرة الإحساس الجديد بالاسلام وروعته، عندما طبق بذلك الأداء العظيم من قبله صلى الله عليه وآله.

وإذا تركت بعض جوانبه التي حُسبت هيّنة في بداية الأمر، فإن جوانب أكثر خطورة قد برزت وتتابعت. وفاقم الأمر برمته أن الانحراف كان يبدأ من القيادة ما دام

يحقق طموحاتها وخططها ولا يتعارض معها. وبدا الأمر كأنه كان متعمداً من قبلها رغم قيام من يتصدى ذلك ويحاول تصحيح الانحراف والخطأ لقد ادى ذلك إلى كارثة محققة تمثلت باستلام معاوية الحكم كحق شخصي تم نتيجة نضاله وسعيه ومهارته وحسب، ولذلك فانه كان يحاول اشعار الجميع بان عليهم ان لا يقفوا حجر عثرة في سبيل تمتعه بنتائج سعيه ونضاله. !

لقد فسر المنكر في احدى آيات القرآن الكريم بانه اتباع خطوات الشيطان وقرن مع الفحشاء(1)، اذ ان من شأن الشيطان ان يأمر بهما.

وحتى الأعمال العبادية لم تكن مجرد أداءات طقوسية، ونأخذ الصلاة على سبيل المثال، فهذه الفريضة قرنت مع الزكاة والانفاق تارة، وقرنت مع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة اخرى، حتى ليكاد يكون ذلك امراً مكملًا لها، ومن هنا حرص الاسلام على استكمال مقومات الصلاة واعطائها حقها بما يضمن أداءها وقبولها بعد ذلك من قبل الله العلي القدير، كما ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قرن مع الايمان بالله، واذ انها اهملت، واراد من اهملها جعلها تقتصر على محاربة العدو الخارجي أو الدفاع عن الحدود والثغور فحسب، فما نحسب ان ذلك كان لعدم حاجة المسلمين إليها لتقويم انفسهم، أو انها قد نسخت بفريضة اخرى مماثلة، بل لأن ذلك كان بسعي دؤوب متعمد استدرجت اليه الامة، لتسكت عن الاخطاء الكبيرة التي كانت تصدر غالباً من رئيس الدولة واعوانه.

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾(2).

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(3).

﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾(4).

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(5).

---

(1) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ سورة النور.
(2) آل عمران ١١٠.
(3) التوبة ٧١.
(4) الحج ٤١.
(5) العنكبوت ٤٥.

فكما ان الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، فان الصلاة، ولعلها هنا التوجه الخالص لله بالعبادة واستكمال كل شروطها، تنهى عنهما، باعتبارها امراً من الله، وهل من خيار هنا للانسان بين الله والشيطان؟ انه لا بد ان يستجيب لخالقه المنعم عليه، والذي بيده امره واليه مآله وعنده حسابه.

لقد اهملت هذه الفريضة الرئيسية من فرائض الاسلام، وعزلت عن الفرائض الاخرى، ما دامت لم تلائم مزاج وذوق الطبقة الحاكمة، ولم تر ان تأخذ بها في غياب الاسلام، بل انها اوجدت مثلاً وقيماً جديدة تنسجم مع مصالحها جعلت من المعروف منكراً، ومن المنكر معروفاً، أي انها عبثت بالمفاهيم الاساسية وجعلت ما كان يبدو مقبولاً وسائغاً في ظل التصور والفهم الصحيح للاسلام غير مقبول وغير مفهوم وغير سائغ، لانه لا ينسجم مع الحياة التي أوجدها الجاهليون الجدد، كما جعلت ما انكره الاسلام ورفضه ونبذه امراً مقبولاً وسائغاً، ما دامت القيم السائدة لا تتعارض معه، وما دام من تسلط على الناس رأى انها كفيلة بتثبيت عرشه ومصالحه.

لقد كان ذلك امراً لا يمكن تصوره في عهد رسول الله ﷺ، غير أنه ﷺ أدرك ان أي ابتعاد عن مفاهيم الاسلام الصحيحة سيجعل الناس يتخبطون في وهدة العمى والجهل، وسيكون ذلك مدعاة للمزيد من البعد عن خط الاسلام ومنهجه ومبادئه وتشريعاته.

قال ﷺ لجماعة من أصحابه مرة:

(كيف بكم إذا فسد نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر؟ قيل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم، وشر من ذلك، وكيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ قيل: يا رسول الله ويكون ذلك؟ قال: نعم وشر من ذلك. وكيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً؟)[١].

وإذ لم يفهم أولئك الصحابة قصد الرسول ﷺ، اذ كيف سيرون المعروف منكراً والمنكر معروفاً، فربما فهمه من عاش منهم إلى أن رأى أن ذلك قد وقع فعلاً.

رأوا المعروف منكراً والمنكر معروفاً، عندما رأى ذلك امراؤهم وكبراؤهم وملوكهم، الذين اتخذوا الههم هواهم ومصالحهم وامتيازاتهم.

(١) الحسن الحرانى/ تحف العقول عن آل الرسول، ص ٣٥.

لم يطل العهد بهم، ورأوا ذلك بوضوح مع طلعة معاوية خليفة على الامة، ومع يزيد ومروان وعبد الملك وأولاده وأشباههم، ومع بروز كل حكم معاد مكرور يشبه الحكم الاموي المنحرف، الذي قلب كل مفاهيم الاسلام وقيمه، وجاء بقيم جاهلية لا ترى أمامها إلا امر فرعون وملك فرعون وهوى فرعون.

لقد كان الترف مقترناً مع الكفر والظلم والتصدي للانبياء واديانهم السماوية، ويبدأ الانحراف مجدداً مع الترف والمترفين، مع الاثرياء والمرابين الذين يتسلقون إلى القمة على اشلاء الفقراء والجياع، يدعي كل مترف جديد انه ذو فضل على الاسلام، أو ان اباءه قدموا خدمات جلى له، ومن حقه ان يتمتع بامتيازات نالها بجهده وعرقه ونصرته، مع انه غير جدير ان يحسب حقاً في صف أولئك الذين نصروا الاسلام وآزروا الرسول صلى الله عليه وآله.

كان التمييز البسيط في العطاء اولًا، ثم المتسع بعد ذلك إلى أبعد حد في عهد عثمان، ثم غير المقيد بقانون أو ضابط في عهد معاوية، هو الذي أوجد طبقات جديدة أكثر ثراءً وترفاً، طبقات تضامنت وتكاتفت ورصت صفوفها حتى لا تفقد مكاسبها، وأعلنت انها لن تتخلى عن امتيازاتها الا على رؤوس الحراب وبحد السيوف، ترى لنفسها ولآبائها فضلًا على الاسلام والمسلمين، ولا تتحرج من الذهاب إلى ابعد حد في لهوها واستهتارها وعبثها وابتزازها اموال الناس وجهودهم وعرقهم.

وهكذا خاطب رسول الله صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام قائلًا:

(يا علي، ان القرم سيفتنون بأموالهم، ويمنون بدينهم على ربهم، ويتمنون رحمته، ويأمنون سطوته، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة، والاهواء الساهية، فيستحلون الخمر بالنبيذ، والسحت بالهدية والربا بالبيع)[1].

لم يقل هؤلاء أننا نريد ديناً جديداً غير الاسلام، فلم تكن لهم طاقة بذلك، ولم تكن الأمة لتشايعهم على هذا الامر، غير انهم زوروا وتلاعبوا واولوا وافتروا، فحققوا اغراضهم وجاءوا بدين جديد ومنهج جديد للحياة لا يحمل من الاسلام إلا اسمه.

وإلا فهل كان الامر في عهد معاوية و(خلفاء) بني أمية غير ذلك؟

(١) نهج البلاغة دار الكتاب اللبناني ص ٢٢٠.

وتتكرر اشارات أمير المؤمنين عليه السلام بعد ذلك إلى مجتمعات الظلم والانحراف، ويبين أسباب ابتعادها عن الاسلام:

(لا يقتصون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفون عن عيب، يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات، والمعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما انكروا، مفزعهم في المعضلات إلى انفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم، كأن كل امرىء منهم امام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعرى ثقات، واسباب محكمات)[1].

ثم يصف نتائج ذلك، إذا ما ابتعدت الامة عن رسالتها وعن قيادتها الحقيقية المؤهلة للاخذ بيدها إلى بر الامان، كما كان الحال معه عليه السلام إذ اخذ العديدون ينحازون إلى معاوية ويراسلونه سراً ويعدونه بان يكونوا معه في نهاية المطاف، انه يرى بعين البصيرة دولة الظلم متمثلة بدولة معاوية الاموية، وما تقوم به ضد الأمة المسلمة:

(والله لا يزالون حتى لا يدعوا لله محرما الا استحلوه، ولا عقداً الا حلوه، وحتى لا يبقى بيت قدر ولا وبر الا دخله ظلمهم ونبا به سوء رعيهم، وحتى يقوم الباكيان يبكيان، باك يبكي لدينه، وباك يبكي لدنياه، وحتى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده، اذا شهد اطاعه، واذا غاب اغتابه، وحتى يكون اعظمكم فيها عناء احسنكم بالله ظنا، فان أتاكم الله بعافية فاقبلوا، وان ابتليتم فاصبروا، فان العاقبة للمتقين)[2].

إنَّ ممارسات دولة الظلم غير المشروعة لا بد ان تجد بيئتها الطبيعية في المجتمع البعيد عن الاسلام، لكي تكون بمنأى عن رقابته وقوانينه ومقاييسه، ولكي تحكم قوانينها ومقاييسها هي، وتتصرف بهواها وما تتطلبه مصالحها.

---

(١) المصدر السابق، ١٢١، انهم بكلمة واحدة يتخلون عن الإسلام عندما يفهموه خطأ، وكأنهم بذلك قد استبدلوه بدين آخر، وافرغوه من محتواه يكفأ كما يكفأ الاناء بما فيه، (سيأتي عليكم زمان، يكفأ فيه الاسلام كما يكفأ الاناء بما فيه . .) نفس المصدر ١٥٠ انهم لن يتركوا الاناء بطبيعة الحال وسيمتلىء بآراءهم وهواهم. . ، وعند ذان سيجنون هم نتيج عملهم.

(٢) نفس المصدر ٤٣ - ١٤٤.

إنَّك لا ترى مجتمعاً اسلامياً رباه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، وعلي بن ابي طالب عليه السلام، بل مجتمعاً تخلى عن مثله وقيمه، وعاد يعيش في ظل جاهليات قديمة، لبست ثوباً حديثاً (متطوراً)، ومزوداً بكل تجارب وخبرات تلك الجاهليات، فكأنه خلاصة لها جميعاً، وكأنه تركيبة غريبة ضمتها كلها، إن الانحدار المستمر عن قمة الاسلام لا بد ان يتسارع، ولا بد ان تكون نتيجته السقوط النهائي في احضان فرعون جديد، يملي على الامة رغباته.

إنَّ البديل عن الاسلام لا بد ان يكون هوى السلطان وكلمته ورغبته ونزوته، واذا ما استبعد الاسلام أو لبس بالمقلوب على حد تعبير الامام عليه السلام حلت الجاهلية بانجاسها ومدلهمات خطوبها[1].

وليس أمراً عسيراً ان يرى أمير المؤمنين عليه السلام مجتمعاً جاهلياً لم يعش حياته هو فينظر إليه بعين الاسلام التي لا تستريح إليه وتكشفه بوضوح لا يستطيعه أحد عاش تلك الحياة وتمرغ فيها، والتبس عليه باطلها، كما التبس عليه حق الاسلام،

(فعند ذلك أخذ الباطل مأخذه، وركب الجهل مراكبه، وعظمت الطاغية، وقلت الداعية وصال الدهر صيال السبع العقور، وهدر فنيق الباطل بعد كظوم، وتواخى الناس على الفجور، وتهاجروا على الدين، وتحابوا على الكذب وتباغضوا على الصدق، فاذا كان ذلك كان الولد غيضاً، والمطر قيظاً، وتفيض اللئام فيضاً، وتغيض الكرام غيضاً، وكان أهل ذلك الزمان ذئابا، وسلاطينه سباعا، واوساطه أكالا، وفقراؤه أمواتاً، وغار الصدق، وفاض الكذب، واستعملت المودة باللسان،

(١) وقد أوضح أمير المؤمنين عليه السلام نقطة دقيقة جديرة بالانتباه، بين فيها السبب الرئيسي للانحراف والفتن، وهو الأهواء والأحكام المبتدعة التي تتوافق ورغبات ومصالح الحكام الذين تسلقوا مراكز الصدارة، وجعلوا من الإسلام غطاء لانحرافهم وظلمهم، عندما زيفوا العديد من احكامه وقوانينه (إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجالاً على غير دين الله، فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق، لم يخف على المرتادين، ولو ان الحق خلص من لبس الباطل، انقطعت عنه السن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث، فيمزجان؛ فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو «الذين سبقت لهم من الله الحسنى». نفس المصدر ٨٨.

وتشاجر الناس بالقلوب، وصار الفسوق نسباً، والعفاف عجباً، ولبس الاسلام لبس الفرو مقلوبا)[١].

إنَّك تلمح حالة مأساوية، تلمحها، بل وتعيشها، وتعيش نتائجها، هل هذا هو الاسلام حقاً؟ وهل هذه هي نتيجة سعي وجهاد مائة واربعة وعشرين الف نبي، استشهدوا واوذوا وخوفوا وشرّدوا، هل هذا هو المجتمع الذي ارادوه؟

ان من لا يفهم السنن الربانية التي تحتم على كل فرد القيام بواجبه، وكأن الاسلام انزل عليه هو، لا يستطيع ان يفهم لماذا أصبح أمثال معاوية ويزيد في مركز الصدارة، ولماذا اوذي علي والحسن والحسين عليهم السلام كما لم يؤذ احد، ولماذا صار حال المسلمين إلى الحال التي وصفهم بها أمير المؤمنين عليه السلام.

هل ترى أثراً لمجتمع إسلامي من خلال هذا الوصف؟ أم ترى مجتمعاً متمرداً رفض الاسلام ولبسه بالمقلوب؟ فهل ولد الاسلام ليموت؟ وهل ولد ابناؤه ليقعوا فريسة بيد معاوية ويزيد، ومن سيأتي بعدهم من حكام الجور والانحراف والظلم؟

إنَّ الحل الوحيد للخروج من ذلك، هو العودة للاسلام، وليس الخروج من جاهلية والوقوع في جاهلية اخرى، أو التخلص من نير ظالم للوقوع في براثن ظالم آخر، لان السبب الوحيد للانحدار هو الابتعاد عن الاسلام، والحل الوحيد هو العودة إليه، والتمسك بكتابة وقادته الحقيقيين.

وقد أشار الرسول الكريم إلى ذلك اشارة صريحة في خطبة الوداع، ورأى انه الضمانة الوحيدة لسلامة الامة من الضلالة والشرك والانحراف.

(فلا ترجعن كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فاني قد تركت فيكم ما ان اخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي)[٢].

وقد جعلهم مقياساً صادقاً وائمة اخياراً لا بد من اتباعهم لكي تتجنب الامة الوقوع بيد اشرارها وطغاتها وعتاتها.

---

(١) نفس المصدر ١٥٨/ ١٥٩.

(٢) تحف العقول ص ٢٤- ٣٦.

(واذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر، ولم يتبعوا الاخيار من أهل بيتي، سلط عليهم اشرارهم، فيدعو عند ذلك خيارهم فلا يستحاب لهم)[1].

من أصدق شاهداً من رسول الله صلى الله عليه وآله، حينما شهد للاخيار من أهل بيته، وضمن ان السير وراءهم هو وحده الكفيل بالوصول إلى بر السلام وساحل الامان.

فلماذا اعد علياً لهذه المهمة ولماذا احتضنه ورباه، ان لم يكن لغير هذه المسؤولية الكبيرة،

ولماذا اعد علي اولاده عليه السلام، ونزل فيهم ما نزل من آيات كريمات لإشعار الامة بان هؤلاء هم قادتها الحقيقيون، الذين يحصنون الامة ويضمنون ابتعادها عن الضلالة والكفر وعدم الوقوع بيد الاشرار والكفار ثانية!

فهل كانت شهادة القرآن بحقهم شهادة للتاريخ وحسب؟

وهل شهد رسول الله صلى الله عليه وآله بحقهم منطلقاً بدافع محبة غريزية لا غير؟

أم أنه كان ينطق عن الله؟

ومن اولى من هؤلاء بتحمل المسؤولية، واعادة الامة إلى خط الاسلام إذا انحرفت.

هل أولى بذلك احد غير علي في زمن علي عليه السلام؟

وفي زمن الحسن غير الحسن عليه السلام؟

وفي زمن الحسين غير الحسين عليه السلام؟

هل هناك بعد كل ما نزل فيهم وعرفناه عنهم (شك لشاك أو مرتاب)؟

وهل انهم اختصوا باناس معينين يتولونهم، ليقوم الاخرون بالابتعاد عنهم.

هل كانت رسالة محمد صلى الله عليه وآله الا لكل المسلمين؟

فلماذا هذا الاعراض من البعض؟ اذا كان معاوية ومن جاء بعده لهم دوافعهم وغاياتهم من ذلك؟ فما هي دوافع وغايات من لم يجن ما جناه معاوية ويزيد، وحصل عليه معاوية ويزيد؟

---

(١) المصدر السابق.

وهكذا رأينا تصدي أمير المؤمنين عليه السلام لحمل اعباء المسؤولية إلى الحد الذي انساه كل شيء الا الله.

ورأينا تصدي الامام الحسن عليه السلام من بعده إلى الحد الذي انساه نفسه وكل شهوة قد ينساق اليها سواه.

ورأينا تصدي الامام الحسين عليه السلام إلى الحد الذي لم يعد ير أية أهمية لسنوات قليلة باقية من حياته امام المهمة الضخمة التي كان عازماً على القيام بها، وهي دعوة الامة للتخلي عن دولة الظلم الاموية بقيادة يزيد، والعودة إلى دولة الاسلام المحمدية بقيادته.

وكان قيام ائمة آل البيت عليهم السلام بمهمة الامر بالمعروف، والدعوة إلى الالتزام بالاسلام برمته نهجاً حياتياً متكاملاً، وعدم التخلي عن أي جانب منه، والنهي عن المنكر، الذي غالباً ما يزينه للناس أولوا المطامع والاهواء والاغراض الشخصية متبنين مهمة الشيطان، يبدو برنامجاً حياتياً يومياً لهم لم يتخلوا عنه في أصعب الظروف وادقها، وكان سعيهم لذلك يسير على نفس الوتائر العالية التي شهدها عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، وتكاد اقوالهم تطابق أقوال صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله وتنهج نهجه، غير انهم وهم يعيشون بعض جوانب الحياة التي توقعها صلى الله عليه وآله، ارادوا ارجاع الأمة إلى وعيها وانقاذها من السقوط النهائي، اذ ما مهمة الامام وهو يعيش بين ظهراني الامة، ويرى انحرافها وتسلط اعداء الاسلام عليها؟ هل مهمته كمهمة أي فرد عادي من ابناء المجتمع الاسلامي، أم انها بمستوى الوعي والعلم والمكانة التي يتمتع بها؟ لا شك انها كذلك بمفهوم الاسلام، وحتى بالمفاهيم الاخرى التي قد لا تتبنى الاسلام.

الامام الحسين عليه السلام يلقي الحجة على جمع من علماء المسلمين في مكة

وقد ألقى الامام الحسين عليه السلام خطبة في جموع من الناس ضمت جماعة من الصحابة، لعلها كانت في مكة كما يبدو من سياق حديثه فيها، جمع فيها جملة أمور، أشار إلى بعضها فيما بعد في خطبه وكلماته الاخرى، وأوضح فيها جانباً من جوانب الخلل التي المت بالمجتمع الاسلامي، بل بالفئة التي كان ينبغي ان تكون أكثر شعوراً بالمسؤولية، وهي فئة أهل العلم والخير والنصحية، وهو ما كادوا يتخلون عنه بفعل

العوامل العديدة التي ذكرها عليه السلام في خطبته، ونورد الخطبة[1] على طولها هنا لأهميتها في البحث الذي نحن بصدده.

(اعتبروا ايها الناس بما وعظ الله به أولياءه من سوء ثنائه على الاحبار، اذ يقول: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[2] وقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[3]. وانما عاب الله ذلك عليهم، لإنهم كانوا يرون الظلمة الذين بين أظهرهم يفعلون المنكر والفساد فلا ينهونهم عن ذلك، رغبة فيما كانوا ينالون منهم، ورهبة مما يحذرون والله يقول: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾[4] وقال ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[5] فبدأ الله بالإمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة منه، لعلمه بانها إذا أديت واقيمت استقامت الفرائض كلها هينها وصعبها ذلك ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء إلى الاسلام مع رد المظالم ومخالفة الظالم وقسمة الفيء والغنائم واخذ الصدقات من مواضعها ووضعها في حقها.

ثم أنتم ايتها العصابة، عصابة بالعلم مشهورة وبالخير مذكورة وبالنصحية معروفة، وبالله في أنفس الناس مهابة. يهابكم الشريف ويكرمكم الضعيف ويؤثركم من لا فضل لكم عليه ولا يد لكم عنده. تشفعون في الحوائج اذا امتنعت من طلابها. وتمشون في الطريق بهيئة الملوك وكرامة الأكابر. اليس كل ذلك انما نلتموه بما يرجى

---

(١) وقد رواها بعضهم عن امير المؤمنين عليه السلام لتشابه عبارات المقطع الاخير فيها، ولعل الحسين عليه السلام يعيد في المقطع الاخير بعض كلام ابيه ويستشهد به، وقد يكون التشابه جاء عفواً اتفقت عليه خواطرهما وافكارهما، وقد جاء في كلمة أمير المؤمنين: (اللهم انك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك ونظهر الاصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك..) نهج البلاغة.

(٢) المائدة: ٦٣.

(٣) المائدة: ٧٨/ ٧٩.

(٤) المائدة: ٤٤.

(٥) التوبة: ٧١.

عندكم من القيام بحق الله، وإن كنتم عن أكثر حقه تقصرون، فاستخففتم بحق الائمة، فاما حق الضعفاء فضيعتم، واما حقكم بزعمكم فطلبتم. فلا مالًا بذلتموه، ولا نفساً خاطرتم بها للذي خلقها، ولا عشيرة عاديتموها في ذات الله. انتم تتمنون على الله جنته ومجاورة رسله وأمانا من عذابه. لقد خشيت عليكم ايها المتمنون على الله ان تحل بكم نقمة من نقماته، لإنكم بلغتم من كرامة الله منزلة فضلتم بها ومن يعرف الله. لا تكرمون وانتم بالله في عباده تكرمون. وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تفزعون وانتم لذمم بعض آبائكم تفزعون، وذمة رسول الله ﷺ مخفورة، والعمي والبكم والزمن في المدائن مهملة لا ترحمون، ولا في منزلتكم تعلمون، ولا من عمل فيها تعنون وبالادهان والمصانعة عند الظلمة تأمنون، كل ذلك مما امركم الله به من النهي والتناهي، وأَنتم عنه غافلون.

وأنتم أعظم الناس مصيبة لما غلبتهم عليه من منازل العلماء لو كنتم تسعون، ذلك بان مجاري الامور والاحكام على أيدي العلماء بالله، الأُمناء على حلاله وحرامه، فانتم المسلوبون تلك المنزلة، وما سلبتم ذلك إلا بتفرقكم عن الحق واختلافكم في الالسنة، بعد البينة الواضحة. ولو صبرتم على الاذى وتحملتم المؤؤنة في ذات الله، لكانت أمور الله عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإليكم ترجع. ولكنكم مكنتم الظلمة من منزلتكم واسلمتم أمور الله في أيديهم، يعملون بالشبهات ويسيرون في الشهوات. سلطهم على ذلك فراركم من الموت واعجابكم بالحياة التي هي مفارقتكم، فاسلمتم الضعفاء في أيديهم، فمن بين مستعبد مقهور، وبين مستضعف على معيشته مغلوب. يتقلبون في الملك بارائهم، ويستشعرون الخزي بأهوائهم، اقتداء بالاشرار، وجرأة على الجبار، في كل بلد منهم على منبره خطيب مصقع. فالارض لهم شاغرة وأيديهم فيها مبسوطة، والنّاس لهم خول. لا يدفعون يد لامس، فمن بين جبار عنيد، وذي سطوة على الضعفة شديد، مطاع لا يعرف المبدىء المعيد، فيا عجبا، ومالي لا أعحب والارض من غاش غشوم، ومتصدق ظلوم، وعامل على المؤمنين بهم غير رحيم. فالله الحاكم فيما فيه تنازعنا والقاضي بحكمه فيما شجر بيننا.

اللهم انك تعلم انه لم يكن ما كان منا تنافساً في سلطان ولا التماساً من فضول الحطام، ولكن لنرى المعالم من دينك، ونظهر الاصلاح في بلادك، ويأمن المظلومون من عبادك، ويعمل بفرائضك وسننك واحكامك، فان لم تنصرونا

وتنصفونا قوى الظلمة عليكم وعملوا في اطفاء نور نبيكم، ﴿وحسبنا الله وعليه توكلنا واليه انبنا واليه المصير﴾[1].

ويبدو أنَّ هذه الخطبة التي ضمت ثلاثة محاور رئيسية جرت بعد حوار ساخن أراد فيه بعض ذوي النفوذ والمكانة والسمعة العالية من الصحابة أو المشهورين بالعلم والصلاح، منع الامام عليه السلام من معارضة حكم يزيد أو الذهاب إلى العراق لإعلان الثورة هناك.

وقد دار حديثه في المحور الاول عن مسؤولية الامة كلها، وفي مقدمتهم علماؤها في التصدي للظلم والانحراف. وأشار إلى بني اسرائيل وكيف تقاعس علماؤها واحبارها عن مهمة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمعاتهم، رغم مكانتهم في تلك المجتمعات وانهم كانوا مسموعي الكلمة، وقد تخلوا عن هذه المهمة التي بدت امراً أساسياً وضرورياً مبررين ذلك، كما يفعل أمثالهم دائماً بخشيتهم من الظلمة وحرصهم على المصالح القليلة التي يحصلون عليها في ظلمهم، والتي يمكن ان يفقدوها اذا ما قاموا بهذا الواجب الذي كان كفيلًا بتحصين مجتمعاتهم من الانهيار والسقوط.

كانت سمات المجتمعات الاسرائيلية تدل على انها كانت اخذة بالانهيار، تسابق ابناؤها في الاثم والعدوان كان السمة الاولى، وسكوت الربانيين والاحبار الذين هم دون مستوى الانبياء ويفترض فيهم ان يكونوا قائمين على امر الشريعة وتعاهدها ورعايتها وملاحظة أي انحراف عنها هي السمة الثانية والخطيرة، اذ ان تخلي هؤلاء عن مهمتهم في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعودة إلى احكام الشريعة وقواعدها، رغم انهم يمتلكون القوة والمكانة والرصيد الشعبي، يجعل الناس يسارعون أكثر فأكثر في الاثم والعدوان، ويكون سباقهم محموماً، أيهم يخرج أكثر من غيره عن احكام الشريعة المقدسة ويقوم باختراقات اكثر لها.

إنَّ الربانيين والاحبار أكثر أيماناً وعلماً ومعرفة ومكانة من الآخرين، انهم أهل الدين والحفظة للشريعة، وهكذا فان سكوتهم وتسامحهم وتهاونهم يفتح الباب على مصراعيه أمام المنحرفين والظالمين والخارجين، للتمادي في الانحراف والظلم

(١) تحف العقول عن آل الرسول ص ١٦٨ - ١٧٠.

والخروج المعلن، بل انه تأييد له، ولذلك فانهم تحملوا كل مسؤولية هؤلاء اضافة لمسؤولياتهم الشخصية، اذ كان بوسعهم إيقاف كل شيء منذ البداية اذا ما عزموا على ذلك، وستكون مهمتهم سهلة. اما اذا تمادى المجتمع كله في سباقه المحموم للشر والعدوان والظلم، ودخل أبناؤه كلهم حلبات النزال، فأي باب يمكن سده حينئذ، وأي شر وظلم يمكن ايقافه والحد منه؟

كان حال الامة في فترة حكم معاوية حال بني اسرائيل في المراحل المبكرة من حياتها وبعيد نزول الرسالات عليها، وكما كان الربانيون والاحبار المنتشرين بين أمم بني اسرائيل يستطيعون انتشال أممهم من الانحراف والخطأ والتسارع في الاثم، اذا ما عزموا على ذلك وصمموا عليه لمكانتهم ومنزلتهم، فإنَّ صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، وعلماء الأمة المنتشرين باعداد كبيرة، وكان يفترض أن يكونوا هم حملة الرسالة واحرص الناس عليها، كانوا يستطيعون اذا ما وقفوا حقاً بوجه الانحراف، ان يقفوا في مقدمة صفوف الامة التي كانت ستستجيب لهم حتماً، وتسير وراءهم بكل حماس واخلاص.

غير أنَّ الذي حصل هو ان هؤلاء تخلوا عن مهمتهم، ورأينا من كان ينبغي ان يكون في مقدمة الصفوف مع الحسين عليه السلام، قد سارع اليه (بالنصح) والتحذير من مغبة مواجهة الظلم، بل لعل بعضهم قد غبط نفسه على انه كان عاقلًا بعيداً عن (الفتن) والمشاكل.

وقد رأينا كيف ان بعض من اختالوا على الناس وافتخروا بصحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله، ونالوا مكانتهم من الأمة على هذا الاساس، كانوا في مقدمة المسارعين في الاثم والعدوان والوقوع بيد الحاكم الجائر، وذهب بعضهم إلى حد تشويه الاسلام، وافتراء أحاديث مكذوبة عن النبي صلى الله عليه وآله، ولم يقفوا عند السكوت والتفرج على الاوضاع المتردية، بل كانوا سبباً مباشراً لترديها وسقوطها، وكانوا في مقدمة المساهمين في ذلك، وبدا كأن ما جاءوا به من (أحاديث) وافتراءات مكذوبة على لسان الرسول صلى الله عليه وآله، تشكل قاعدة لدين آخر غير دين الاسلام، وبذلك أتاحوا للفراعنة والطواغيت الجدد، ان يتشبثوا بكراسيهم وعروشهم على أساس من الشرعية المزيفة، والادعاءات الباطلة، فيوغلوا إلى أبعد حد في الظلم والعدوان والاذى.

وإذ لم يستطيعوا تحريف القرآن، كما فعلت بنو اسرائيل بالتوراة، فانهم أولوه

وفسروه وفق أهوائهم ومصالحهم، ولذلك فانهم الحقوا اكبر نكسة بالاسلام، لا نزال نعاني منها إلى يومنا هذا.

ولذلك جاءت اشارة الامام الحسين عليه السلام إلى هذه الفئة العالمة الواعية من بني اسرائيل، وهو يتحدث إلى الفئة العالمة الواعية من المسلمين في محلها تماماً، وقد كان بتحذيره هذا وتشخيصه أمر سقوط بني اسرائيل، ابلغ شاهد على قومه.

لقد شخص سبب قعود وتكاسل ربانيي واحبار بني اسرائيل، بانه كان خوفاً من الظلمة الذين كانوا يعيشون بين اظهرهم، ورغبة في عطائهم وجوائزهم، وكأنه كان يشير إلى ان ذلك كان نفس السبب الذي أقعدهم عن القيام بواجبهم ومسؤولياتهم.

لقد كان الحسين عليه السلام يحاول استئصال الخوف من قلوب الناس، كما كان يحاول استئصال الطمع، ويوجههم للعودة مرة اخرى لمهمتهم الاساسية باعتبارهم من ينبغي ان يكونوا في طليعة المؤمنين والمؤمنات، المتكاتفين المتعاضدين المتآخين لانجاز المهمة الكبيرة، مهمة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي اناطها الله بهم واراد منهم ان يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لمراقبة دائمية متواصلة، لرصد أي بادرة للخطأ والانحراف والظلم والمنكر، واعادة الناس إلى الصواب، مهما كان مركزهم ومهما كانت مكانتهم.

فهل كانوا قادرين على رد أقواله عليه السلام، التي هي أقوال الاسلام، وهم يعلمون ان فريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت في مقدمة الفرائض لانها دعوة إلى الاسلام مع رد المظالم ومخلفة الظالم على حد تعبيره عليه السلام، وهذا ما أكد عليه القرآن ورسول الله صلى الله عليه وآله. وقد رأينا الآية التي استشهد بها الامام عليه السلام بخصوص الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكيف انه اعتبرها فريضة تستقيم وتؤدي الفرائض كلها بعدها، هينها وصعبها[1].

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران ١٠٤.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران ١١٠. ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. التوبة: ١١٢.

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ الحج: ٤١ =.

وفي المحور الثاني يصفهم أولاً، ثم يتوجه إليهم بالنقد الجاد، ويصف بعض ما حل بهم وما حل بالأمة كلها جراء سكوتهم ومصانعتهم.

وقد أشار أيضاً إلى ان مركزهم في الأمة يشابه مركز الربانيين والاحبار في بني اسرائيل الذين تخلوا عن مسؤولية تقويم مجتمعاتهم، رغم انهم كانوا يتمتعون بامتيازات كبيرة وربما بحصانة من الاذى، وقد كان ذلك بفضل ما كانت الأمة ترجوه منهم من القيام بحق الله.

لقد قصر أولئك، وقصر هؤلاء عن أكثر حق الله. استخفوا بالائمة، ضيعوا حق الفقراء.

أصبح جل همهم الحصول على المزيد من المكاسب، زاعمين انها حق لهم، بخلوا باموالهم، جبنوا عن التصدي للظالم واعلان الحرب عليه، بل وحتى عن نصيحته. وكان حرياً بهم وهم في موقفهم ذاك ان لا يذهبوا في امانيهم إلى حد الطمع في الجنة ومجاورة الرسل والامان من العذاب، بل ان يتوقعوا نقمة من نقمات الله التي تخوفها الامام عليه السلام عليهم، لان المنزلة التي وصلوا اليها كانت لانهم اقرب بنظر الناس إلى الله من غيرهم، وهكذا عظموا في أعين الناس مع انهم لم يكونوا يستحقون ذلك، بل انهم ليستحقون العكس وقد أخلوا بشروط القرب من الله سبحانه، بل انهم تمادوا إلى أبعد من ذلك.

= وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: (. . . اذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ولم يتبعوا الاخيار من اهل بيتي سلط الله عليهم شرارهم فيدعو عند ذلك خيارهم فلا يستجاب لهم) تحف العقول ٣٦.

(كل معروف صدقة، وأهل المعروف في الدنيا هم اهل المعروف في الآخرة، واهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة، وأول من يدخل الجنة أهل المعروف) المصدر السابق ٣٩.
وروي عن ابى سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وآله: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان).

وروى ابو داود والترمذي باسناده عن ابي سعيد عنه صلى الله عليه وآله قوله: (أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر) وروى أحمد بإسناده عن عدي بن عميرة انه صلى الله عليه وآله قال: (إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على إن ينكروه فلا ينكرونه فاذا فعلوا عذب الله العامة والخاصة). . . كما روي عن امير المؤمنين عليه السلام أحاديث وأقوال عديدة بهذا الخصوص وبخصوص الجهاد، لعلها تحتاج إلى بحث مفرد مستفيض.

رأوا عهود الله منقوضة فلم يفزعوا، وقد خفرت ذمة رسول الله صلى الله عليه وآله،

حينما ابتعدوا عن دينه وخالفوا اهله وعترته،

وأهمل ضعاف الناس ومرضاهم ومساكينهم، ولم يكلفوا انفسهم عناء السؤال عنهم والعلم بحالهم.

لقد قصروا في اعمالهم، وداهنوا الظلمة وصانعوهم، وقد تعرض الامام عليه السلام إلى مسألة دقيقة ومهمة: وهي:

إنَّ اعظم الناس مصيبة، وأولهم تعرضاً للاذى والغبن والاهمال هم العلماء، اذا ما أخلوا بشروط عملهم ومسؤولياتهم وأخلوا بشروط الامانة على الحلال والحرام، فماذا يتوقع من يخون الامانة سوى ان يقابله الناس بالمثل؟

لقد سلبوا منزلتهم من قبل ادعياء العلم واعوان السلطة الجائرة، لأن من سلبهم منزلتهم لم يتوقع ان يجتمعوا على الحق ويصبروا على الاذى ويتحملوا المؤونة في ذات الله، وقد ضعفوا بذلك وذلوا ومكنوا الظلمة من منزلتهم، واسلموا امور الله اليهم، (يعملون بالشبهات ويسيرون في الشهوات).

لقد فروا من الموت واعجبوا بالحياة الزائلة ولو في ظل سلطان الجور والانحراف، ووجدوا ان من السهل عليهم ان يسلموا ضعاف الناس بأيدي هذا السلطان، لكي يحفظوا حياتهم هم.

إنَّ موقف علماء الامة (بتسامحهم) وتَراخيهم وتركهم زمام الامور بأيدي سلطان الجور والانحراف من شأنه ان يولد أكثر الحالات تناقضاً بين صفوف الأمة ويجعل حالة الظلم سائدة حتى بين الضعاف والمظلومين.

وسيكون من شأن تكثير عدد (العلماء) المزيفين ان توضع اجمل زينة في عروة عرش الظالم، طالما انهم يخضعون الناس ويجعلونهم يستجيبون لأهوائه استجابة تامة، ولوكان على خطأ مبين.

وهكذا يروح ادعياء العلم، بلا علم صحيح، يتسنمون درى المنابر، يتكلمون على هواهم، طالما ان أحداً لا يستطيع الرد عليهم أو معارضتهم.

ان حالة من السعي المحموم وراء تجارة (العلم) المربحة هذه ستجتاح الناس وسيكون اكثرهم تأثيراً ومكانة، أقربهم منزلة من السلطة وأكثرهم دعوة لتكريس مصالحها وامتيازاتها ونفوذها.

أليس ذلك ما حصل فعلًا؟

ألم يتنازل علماء الامة الحقيقيون عن مهمتهم الحقيقية، للعلماء المزيفين؟

وتحت أية ذريعة أو حجة؟

أليس تحت ذريعة التعقل وحجة الواقعية، وتقبل الامر الواقع. .؟

غير انهم وبضمنهم من ذكرنا من الناصحين والمحذرين كانوا عاجزين أمام الامام الحسين عليه السلام، فهم لم يكونوا قدوته ومحط اماله واعجابه، بقدر ما كان حرياً ان يكون هو كذلك بالنسبة لهم.

لم يكن مبهوراً بأي منهم، كما لم يكن مبهوراً حتى بالبريق اللامع لعرش معاوية الذي شيده من اموال الامة وفوق جماجمها واشلائها ومكاسبها المسروقة.

كان الحسين عليه السلام هو العالم الاول في الامة، وكان محط امال الامة كلها بعلمه ومنزلته من رسول الله صلى الله عليه وآله، ومواقفه الصادقة الثابتة، ومن هنا كان سر قوته، وقوة تمسك الامة به، رغم انها قد تخلت عنه بعد ذلك لقوة الضغوط الاموية التي بلغت حداً مذهلًا من الشراسة والعدوان.

لقد كانت الدولة الاموية تعلم مكانة وقوة وعلم من تنازله، وهكذا كانت وسائلها لمحاربته وكفاحه منذ البداية على مستوى المعركة المتوقعة.

وقد بدأ معاوية المعركة عندما حرك قوى اعلامه لاظهار الحسين عليه السلام وكأنه طالب حكم ومنافس ليزيد، وكأنه كان ينطلق بدافع ردود فعل سريعة وغاضبة دون النظر إلى عواقب الامور، واشاع بعض القصص التي تروي وقوفه بوجه اخيه الحسن عليه السلام عند توقيع وثيقة الصلح، واخرى عن انتهازه الفرص للتعرض لبعض آل عبد شمس، بدافع المنافسة القديمة بين هاشم وأمية طبعاً، واخرى عن خروج آل البيت وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عليه السلام عن الاسلام وسبه من على منابر المسلمين، واستئصال شيعتهم ومواليهم والسائرين على خطهم ومتابعتهم ومحاربتهم في حياتهم ومعيشتهم وعطائهم وفي كل شيء.

ولم يهمل معاوية ادق التفاصيل للمعركة المحتملة، حتى انه عين ابن زياد قبيل وفاته واوصى بان يكون والياً على العراق وقائداً للجيش الذي سوف يتصدى للحسين عليه السلام، اذا ما اعلن الثورة على الدولة الاموية اليزيدية، كما سنرى ذلك في الوثائق التي رويت في كتب التاريخ المعتبرة والموثوقة لدى الجميع.

واذ اعلن الامام الحسين عليه السلام انه ينفرد عن العلماء والصحابة الخائفين والمستسلمين، فانه توجه إلى الله بخطابه امامهم، موضحاً امامه سبحانه، وهو الذي لا تخفى عليه خافية، طبيعة المهمة الصعبة التي كان يتعرض لانجازها بمفرده، ليكون بيانه الاخير امام اكبر تجمع للامة قد يتاح لها ان تشهده في مواسم الحج شهادة عليهم، ووثيقة ادانة للامة الخانعة ولعلمائها القاعدين، وقد سبق ان تحدث باسهاب عما سيحل بالامة اذا ما تخلى علماؤها عن مسؤولياتهم.

إنَّ ما شهدته الامم الخالية، من بني اسرائيل وغيرهم، شهده المسلمون وعاشوه.

ولكي يزيل كل ظلال الشك التي قد تحاول الدعاية الاموية القائها على مهمته الكبيرة، ويحاول كل من لم يجد في نفسه القدرة على المشاركة فيها اثارتها، (وهو ما تم بالفعل بعد ذلك)، فانه اوضح بجلاء طبيعة هذه المهمة والنتائج المتوقعة عند نجاحها، أو عندما تكون الجولة لصالح السلطان الاموي الجائر.

أشهد الله امامهم انه لم يكن ما كان منه ومن سيتابعه في معركته المقبلة تنافساً في سلطان ولا التماساً من فضول الحطام، ولكن لكي ترى الامة المعالم التي اخفيت من دينه، ولكي يظهر الاصلاح ويأمن المظلومون، ولكي تعود الامة إلى الاسلام، والعمل بفرائض الله وسننه واحكامه، لا الاحكام والسنن التي اوجدها الظالمون والفراعنة الجدد.

وكانت كلمته الاخيرة فيهم، وتحذيره الاخير اليهم، ان لم تنصرونا وتنصفونا قوي الظلمة عليكم، وعملوا في اطفاء نور نبيكم، وهو ما بدا لهم انه امر واقع فعلًا، فقد قوي الظلمة عليهم، وعملوا على اطفاء نور نبيهم صلى الله عليه وآله ورسالته.

وكان ما كان بسببهم هم، وبسبب تخليهم عن واجباتهم ومسؤولياتهم وهكذا جاء قوله صلى الله عليه وآله عندما سئل:

(أي الناس شر؟ قال: العلماء اذا فسدوا؟)[1].

فقد فسد بسببهم المجتمع كله، ولم ير أن يتمسك بما تخلى عنه خياره وفضلاؤه، ومن هنا جاء تأكيده صلى الله عليه وآله على العلماء ان يعملوا بعلمهم. إذ ما معنى ان

(١) تحف العقول ٢٥.

يكتموا بعضه، إلا ان يكون ما كتموه، مما لا يسر من تسلط على الناس وتأمر عليهم بغير وجه حق، وكان من شأنه ان يكشف كل منكر يعمله أمثال هؤلاء.

فكيف اذا كان الحال قد وصل بأن لا يكتفي هؤلاء بالعمل بما علموا، أو كتم ما علموه وحسب، بل وان يفسحوا المجال لمدعي العلم وواضعي الحديث ومزوري الكلام ليأخذوا مكانهم وينزووا هم في زوايا المساجد أو في البيوت، مكتفين بالسلامة، اما التحدث عن (الحلال)، أو (الحرام) فقد تركوا امر الحديث عنه لبدائلهم الذين تولوا صياغة العديد من التشريعات ثانية، حتى لم يعد امام الحاكم حرام يفكر فيه، وغدا كل شيء مباحاً له، وقد برء من كل حساب يوم الحساب.

وهكذا رأينا من شهد من هؤلاء (العلماء) ليزيد بن عبد الملك، عندما ذكروا له بان (الخليفة) غير محاسب يوم القيامة، وان ما يمنع على غيره مباح له.

كان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والتصدي للظلم والهوى والانحراف، ذاك الذي عجز عن القيام به علماء الامة، وادى إلى انحرافها وتساقط ابنائها واستسلامهم للحاكم المنحرف، من الامور التي لم يكن الامام الحسين عليه السلام يعتقد انها يمكن ان تتم بسلام وهدوء، وانها يمكن ان تتقبل من الحاكم الظالم ببساطة، وانه سرعان ما سيستجيب لمن سوف يدعونه لتبني خط الاسلام الواضح المتقاطع من خطه والمتعارض مع هواه ورغباته ومصالحه جملة وتفصيلًا، بل ان أول رد فعل (مناسب) لهذا الحاكم هو المواجهة العنيفة مع من يفكر برده إلى خط الاسلام، وسيفقد صوابه اذا ما استمع إلى أقوال تدعوه لذلك.

وإذ لم يعبر من سبقوا عبد الملك بن مروان عن ذلك صراحة، فان عبد الملك ومن جاءوا بعده عدا عمر بن عبد العزيز عبروا عن الاستجابة الطبيعية لفرعون، اذا ما طلب احد (استسلام) فرعون لقانون آخر غير قانونه وهواه.

وقد عبر أمير المؤمنين عليه السلام في احدى المرات عن صعوبة أمثال هذه المهمات على من لم ينحازوا إلى جانب الاسلام انحيازا تاماً، وعلى من لم يوطنوا أنفسهم تحمل كل شيء في سبيله:

(إنَّ امرنا صعب مستصعب، لا يحمله الا عبد مؤمن، امتحن الله قلبه للايمان، ولا يعي حديثنا إلا صدور امينة واحلام رزينة)[1].

---

(١) نهج البلاغة ٢٨٠.

على انه عليه السلام لم يقل انها مستحيلة وانها لا يمكن القيام بها، وكل ما في الامر انه اراد ان يستعد من يتصدى لامثال هذه الامور وبتزود باكبر قدر من الايمان والفهم والوعي القادر على حمل الرسالة وايصالها إلى الآخرين.

النبي ﷺ يخبر الصحابة باستشهاد الحسين عليه السلام

وهكذا اطلت بصيرة الرسول الاعظم ﷺ المسددة بالعلم الالهي المؤكد، على ما سيأتي من الاحداث والوقائع، بعد علم بواقع المسلمين، وما يمكن ان يحدث بعد وفاته واختفائه من الساحة، وتوقعه ان تكون الظاهرة الاولى بعد اختفائه هو الخلاف على منصب خلافته، وان ذلك يمكن ان يجر وراءه المزيد والمزيد من الخلافات، ويثير مطامع أبعد الناس عن الاسلام، ما داموا يرون انفسهم لا يقلون منزلة ومكانة وكفاءة عن المتصدرين الاوائل الذين احتلوا هذا المركز، كما حدث فعلًا عندما أراد معاوية ان يجعل من نفسه بنظر الأمة مساوياً، بل ومتفوقاً على من سبقوه بابتكار الاحاديث المناسبة على لسان رسول الله ﷺ كما رأينا، وهي (أحاديث) يبدو التكلف والوضع والتزوير واضحاً عليها.

وادرك ﷺ ان الامة بدافع من المنافسة الحادة والتكالب الشديد على السلطة والجاه والثروة والنفوذ، ستستبعد المؤهلين الحقيقيين لقيادة الامة على خطه ومنهجه، وهم آل البيت عليهم السلام. ومع ان مهمتهم الرئيسية ستكون التصدي للانحراف إلا ان وسائلهم لن تكون إلا وسائل وادوات الاسلام، وهي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد بالاموال والانفس في سبيل الله.

وهي وسائل مستقيمة درست من قبل العدو دراسة مستفيضة، واعد مقابلها وسائله الشيطانية، التي تعتمد الخداع والدجل والرشوة واللجوء إلى أشد الأساليب بربرية وهمجية تجاه من يقفون عقبة لتحقيق مطامحه وهواه.

ولم يكن علمه ﷺ بالذي يخفى عن آله عليهم السلام، وأولهم أمير المؤمنين عليه السلام الذي عبر عن ذلك بوضوح قائلًا ان تعلمه من ذي علم، فلم يكن ما يقوله رجماً بالغيب، وانما علم وصله عن رسول الله ﷺ.

لقد علم الرسول ﷺ كما ورد الينا بالروايات الموثقة المسندة ان الانحراف سيبلغ مداه بعد نصف قرن على يد أبعد الناس عن الاسلام، وعلم ان احد أولاده وهو الحسين عليه السلام، سيواجه أكبر زخم لهذا الانحراف، وان مهمته لن تكون سهلة، اذ

لن يتخلى الحاكم المنحرف حينذاك عن سلطته ومملكته لمجرد صيحة أو دعوة يسمعها منه، ولا بد ان يبدي شراسته امام مثل تلك بدعوة.

لقد كان الامام الحسين عليه السلام يعلم بأنَّ خطبه لن تغير من واقع الامة وعلمائها بشكل فجائي، ولكنه كان يعلم أيضاً بانها ستؤسس لمنهج أصيل يبين ما يجب ان تكون عليه الامة الاسلامية وعلماؤها، نلمس ذلك بوضوح في وصية الامام الحسين عليه السلام قبل خروجه، وفيها تأكيد على الصحوة المهمة التي كان يقوم بها، وانه ربما سيمضي فيها وحيداً إلا في قلة من اصحابه، وهذا ما توقعه بالضبط، عندما عزم على المضي إلى النهاية مهما كانت العواقب.

(إني لم اخرج اشراً ولا بطراً ولا! مفسداً ولا ظالماً، وانما خرجت لطلب الاصلاح في امة جدي، أريد ان آمر بالمعروف وانهى عن المنكر، فمن قبلني بقبول الحق، فالله اولى بالحق، ومن رد علي هذا اصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم، وهو خير الحاكمين)[١].

لقد كان الحسين عليه السلام يعلم بانه مقتول، علماً تفصيليا لكل ما سيجري عليه وعلى آل بيته وحريمه، عهداً عهده إليه جده رسول الله ﷺ، وأبوه علي أمير المؤمنين عليه السلام.

١ - روي عن أنس بن الحرث الكاهلي، وهو من صحابة النبي ﷺ، وقد شهد معه بدراً وحنيناً انه سمع النبي ﷺ يقول:

(ان ابني هذا يعني الحسين يقتل بارض كربلاء، فمن شهد ذلك منكم فلينصره)[٢].

---

(١) وقد وردت زيادة بعد كلمة (المنكر) وهي: (واسير بسيرة جدي محمد ﷺ وابي علي بن أبي طالب) مناقب ابن شهرآشوب ج ٤ ص ٨٨، ومقتل العوالم للبحراني، والخوارزمي ج ١ ص ١٨٩.

(٢) أسد الغابة ١/ ٣٤٩، والاصابة ١/٦٨، وكنز العمال ٠٦ ٢٢٦، وتاريخ بن عساكر ١٣/ ٧٧. وكان أنس شيخاً كبيراً طاعناً في السن، وقد استأذن الإمام أن يجاهد بين يديه، فأذن له، وقد شد وسطه بعمامته، نظراً لتقوس ظهره، كما رفع حاجبيه بالعصابة، فلما نظر إليه الإمام عليه السلام أرخى عينيه بالبكاء وقال له: شكر الله لك يا شيخ. وقاتل على كبر سنه قتال الأبطال. وراجع ابن كثير ٨/ ١٩٩، والسيوطي في جامع الجوامع ٦٠٦٣، ٦٠٦٤، وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ ٣٢٨/ ٣٤١.

٢ ـ عن سعيد بن طريف قال: قال رسول الله ﷺ:

(يقتل الحسين على رأس ستين سنة من مهاجري)(١).

٣ ـ عن أم سلمه زوج النبي ﷺ قالت:

(كان عندي النبي ﷺ ومعي الحسين، فدنا من النبي ﷺ فأخذته، فبكى فتركته، فدنا منه فأخذته، فبكى، فقال له جبريل: أتحبه يا محمد؟

قال: نعم. قال: اما ان امتك ستقتله، وان شئت اريتك من تربة الارض التي يقتل بها، فبسط جناحه، فأراه منها، فبكى النبي ﷺ)(٢).

٤ ـ (وروي ان النبي ﷺ اعطى أم سلمة تراباً من تربة الحسين، حمله اليه جبريل، فقال النبي ﷺ لأمّ سلمة، اذا صار هذا التراب دما، فقد قتل الحسين. فحفظت أم سلمة ذلك التراب في قارورة عندها، فلما قتل الحسين، صار التراب دما، فأعلمت الناس بقتله)(٣).

٥ ـ وعن أم سلمة قالت: قال: ﷺ:

(ان جبريل اخبرني ان ابني هذا يقتل، وانه يشتد غضب الله على من يقتله)(٤).

٦ ـ وروي عن أم سلمة وعائشة عن رسول الله ﷺ انه قال:

(ان ابني الحسين قتل وهذه تربة تلك الارض)(٥).

وروي عنه ﷺ، انه قال:

---

(١) كنزالعمال للهندي ٣٤٣٢٥، والسيوطي في اللآلىء المصنوعة ١/ ٢٠٣، والفتني في تذكرة الموضوعات ٩٨ كما أخرجه الملا في سيرته ص ١٤٦.

(٢) العقد الفريد ٥/ ١٢٤.

(٣) ابن الأثير ٣/٤٤٣، وقد حاولت أم سلمة منع الحسين عليه السلام من الخروج من المدينة لأنه مقتول، فأكد لها الإمام عليه السلام مسألة مقتله وعزمه على الخروج، وراجع مدينة المعاجز للسيد هاشم البحراني ٢٤٤، ومقتل العوالم لعبدالله البحراني، ٤٧ ومقتل المقرم ١٥٢، ومقتل الحسين، السيد محمد تقي آل بحر العلوم ١٣٩/ ١٤٠.

(٤) الخطيب البغدادي/ تاريخ بغداد ٣/ ٣٢٨، وكنز العمال/ علاء الدين الهندي ج ٢ ١/ ٥ ٣١، ٣/ ٣٤٣١٧.

(٥) كنز العمال/ ٥ ٣٤٣١ ص ١٢٦.

٧ ـ (إنَّ جبريل اراني التربة التي يقتل عليها الحسين، فاشتد غضب الله على من يسفك دمه، فيا عائشة، والذي نفسي بيده، انه ليحزنني، فمن هذا من امتي يقتل حسيناً)(١).

٨ ـ عن أم الفضل بنت الحارث قال:

(قال ﷺ اتاني جبريل، فأخبرني ان امتي ستقتل ابني هذا يعني الحسين واتاني بتربة من تربته، حمراء)(٢).

٩ ـ وقال ﷺ:

(اخبرني جبريل ان حسيناً يقتل بشاطىء الفرات)(٣).

١٠ ـ عن ابن عباس قال:

(قال رسول الله ﷺ: ان جبريل اخبرني ان الله عزوجل قتل بدم يحيى ابن زكريا سبعين الفا، وهو قاتل دم ولدك الحسين سبعين الفا)(٤).

١١ ـ عن الشعبي قال:

بلغ ابن عمر، وهو بمال له ان الحسين بن علي عليه السلام توجه إلى العراق، فلحقه على مسيرة يومين أو ثلاثة، فقال له: إلى أين؟ فقال له: هذه كتب أهل العراق وبيعتهم. فقال له: لا تفعل، فابى. فقال له ابن عمر: ان جبريل اتى النبي ﷺ فخيره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، ولم يختر الدنيا، وانكم بضعة من رسول الله ﷺ، كذلك يريد منكم. فاعتنقه وقال: استودعك الله والسلام)(٥).

---

(١) كنز العمال عن ابن سعد، عن عائشة ص ٩٢٧/ ٣٤٣٩٨.

(٢) الحاكم في المستدرك ٣/١٧٧، والالباني في الاحاديث الصحيحة ٨٢١، والزبيدي في اتحاف السادة المتقي ٥/٣٠٩، وابن حجر في فتح الباري ١١/٢٠٩، والسخري في آماله ١/٢٨٨ والهندي في كنز العمال ٣٤٣٠٠ والبهتي في دلائل النبوة ٦/ ٤٦٩.

(٣) كنز العمال ٣٤٢٩٨، ابن سعد عن علي ص ١٢٢.

(٤) ذخائر العقبى أخرجه الملا في سيرته، ص ١٥٠ وكنز العمال ١٢٧.

(٥) المصدر السابق أخرجه أبو حاتم ص ٩٥٠، والعقد الفرجمد ١٢٥، وقد روي ان ابن عمر بكى وقال للحسين (استودعك الله من قتيل) أمالي الشيخ الصدوق م ٣٠، وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٩٣/ بيروت.

١٢ ـ وقال ﷺ :

(ان جبريل اتاني ان ابني الحسين تقتله امتي. فقلت: فأرني تربته، فاتاني بتربة حمراء)[١]

١٣ ـ وقال ﷺ :

كأني انطر إلى كلب ابقع يلغ في دماء أهل بيتي)[٢].

١٤ ـ وقال ﷺ :

(يزيد، لا بارك الله في يزيد الطعان اللعان. اما انه نعي حبيبي وسليلي حسين، أتيت بتربته ورأيت قاتله، أما انه لا يقتل بين ظهراني قوم فلا ينصرونه إلا عمهم الله بعقاب)[٣].

١٥ ـ عن عمرة بنت عبد الرحمن انها قالت:

(اشهد لسمعت عائشة تقول: انها سمعت رسول الله ﷺ يقول: يقتل الحسين بارض بابل)[٤].

١٦ ـ روي ان عمر الاطرف بن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو شقيق العباس الاصغر، وامهما الصهباء، من بني تغلب، دخل على الحسين عليه السلام حينما بلغه خروجه من المدينة وقال له:

جعلت فداك يا ابا عبد الله حدثني أخوك أبو محمد الحسن عن أبيه عليه السلام : حدثني أبي، إنَّ رسول الله ﷺ اخبره بقتله وقتلي، ولتلقين فاطمة اباها شاكية ما لقيت ذريتها من أمته، ولا يدخل الجنة احد أذاها في ذريتها)[٥].

١٧ ـ وقال الحسين لأم سلمة عندما حذرته من الخروج قائلة انها سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يقتل ولدي الحسين بارض العراق في ارض يقال لها كربلاء»:

---

(١) عن زينب بنت جحش، ١٢٧.

(٢) كنز العمال، ابن عساكر عن الحسين بن علي ص ١٢٨، وابن كثير ٨/ ١٩٠.

(٣) ابن عساكر عن ابن عمر كنز العمال ١٢٨.

(٤) البداية والنهاية ٨/ ١٦٢.

(٥) اللهوف لابن طاووس ط النجف ص ١٢.

(يا أمّاه، وانا والله اعرف ذلك واعلم اني مقتول مذبوح ظلماً وعدواناً، وقد شاء الله ان يرى حرمي ورهطي ونسائي مشردين، واطفالي مذبوحين مأسورين مقيدين، وهم يستغيثون فلا يجدون ناصراً ولا معينا، قالت أم سلمة: واعجباه فانى تذهب وانت مقتول؟

قال الحسين: يا أمّاه، ان لم اذهب اليوم ذهبت غداً، وإن لم اذهب في غد ذهبت بعد غد، وما من الموت والله بد، وإني لأعرف اليوم الذي اقتل فيه والساعة التي أقتل فيها، والحفرة التي أدفن فيها، كما اعرفك، وانظر إليها كما انظر إليك)[1].

١٨ ـ وخطب الحسين عليه السلام قبيل خروجه من مكة خطبة جاء فيها:

(وما أولهني إلى اسلافي)[2].

١٩ ـ وقال: عليه السلام: لابن الزبير:

(وايم الله لو كنت في (حجر) هامة من هذه الهوام لاستخرجوني، حتى يقضوا بي حاجتهم، والله ليعتدن على كما اعتدت اليهود في السبت)[3].

٢٠ ـ وقال عليه السلام لمحمد بن الحنفية:

(أتاني رسول الله ﷺ بعدما فارقتك، فقال: «يا حسين اخرج، فان الله قد شاء ان يراك قتيلاً».

وقال بشأن خروج النسوة معه

(ان الله شاء ان يراهن سبايا)[4].

٢١ ـ وقال عليه السلام عندما بلغه مقتل مسلم بن عقيل عليه السلام:

---

(١) مدينة المعاجز للسيد هاشم البحراني ص ٢٤٤، ومقتل العوالم لعبدالله البحراني ص ٤٧.

(٢) كشف الغمة للآربلي ج ٢ ص ٢٤١ قم واللهوف لابن طاووس ص ٢٥ النجف.

(٣) نهاية الارب للنوري ٢٠ / ٤٠٧ وابن الأثير ٣/ ٢٧٦، والطبري ٩/ ٢١٩ دار المعارف وجمهرة خطب العرب ٢/ ٣٥، وقد روي أنه قال هذا الكلام لابن عباس وروي أنه كتب ذلك في رسالة إلى عبدالله بن جعفر جواباً على رسالته التي دعاه فيها للعودة إلى مكة، راجع مقتل الخوارزمي ط النجف ج ١ ص ٢١٨ وابن كثير ٨/ ١٦٩ وسير أعلام النبلاء الذهبي ٢/ ٣٤٣.

(٤) اللهوف لابن طاووس ط النجف ص ٢٦/ ٢٧ والدار المسلوك ج١ ص ١٠٩.

(فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا ثم قال: االلّهُمَّ لنا ولشيعتنا عندك منزلا كريما، واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك ورغائب مذخور ثوابك انك على كل شيء قدير)[1].

٢٢ ـ وروي عن علي بن الحسين، زين العابدين عليه السلام قوله:

(خرجنا مع ابي الحسين، فما نزل منزلا، وما ارتحل منه، الا وذكر يحيى ابن زكريا وقتله، وقال يوما: ومن هوان الدنيا على الله عز وجل ان راس يحيى ابن زكريا اهدي إلى بغي من بغايا بني اسرائيل [وسيهدى رأسي إلى يزيد بن معاوية][2].

٢٣ ـ وقال عليه السلام لأبي هرة الازدي، عندما نزل الثعلبية في طريقه إلى الكوفة:

(ان بني أمية اخذوا مالي فصبرت، وشتموا عرضي فصبرت، وطلبوا دمي فهربت. يا أبا هرة، لتقتلني الفئة الباغية، وليلبسنهم الله تعالى ذلا شاملًا وسيفاً قاطعاً، وليسلطن الله عليهم من يذلهم، حتى يكونوا اذل من قوم سبأ، اذ ملكتهم امرأة منهم، فحكمت في أموالهم ودمائهم)[3].

٢٤ ـ وقال عليه السلام للحر بن يزيد الرياحي حينما قال له هذا:

«يا حسين إني اذكرك الله في نفسك، فاني اشهد لئن قاتلت لتقاتلن، ولئن قوتلت لتهلكن فيما ارى»

«افبالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب ان تقتلوني؟ وسأقول لك، كما قال اخو الاوس لابن عمه حين لقيه وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ، فخوفه ابن عمه، وقال له: أين تذهب فانك مقتول، فقال:

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ١/ ٢٣٦، والفتوح لابن أعثم الكوفي ج٥ ص ١٤٧.

(٢) اللهوف لابن طاووس، ص ١٧٨ وارشاد المفيد طبع ايران ص ٢٠٣، ونظم درر السمطين ص ٢١٥.

(٣) اللهوف ص ١٢٩ والخوارزمي ج١ ف١ وأعيان الشيعة ٤/ ١٨٤، وروي أنه قال (هذه كتب أهل الكوفة إلي، ولا أراهم إلا قاتلي، فإذا فعلوا ذلك لم يدعوا لله حرمة إلا انتهكوها، فيسلط عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرم الأمة) تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ٣٤٥، وابن كثير ٨/ ١٦٩، وتاريخ ابن عساكر ١٣/ ٧٣، الدر النظيم ١٦٧، مخطوط يوسف بن حاتم الشامي.

سامضي وما بالموت عار على الفتى اذا ما نوى حقا وجاهد مسلما
وواسى الرجال الصالحين بنفسه وخالف مثبوراً وفارق مجرما
فان عشت لم اندم وان مت لم ألم كفى بك ذلّا ان تعيش وترغما[1]

٢٥ ـ وقال عليه السلام لاصحابه عندما وصلوا كربلاء:

(هذا موضع كرب وبلاء، انزلوا، ها هنا محط رحالنا ومناخ ركابنا ومقتل رجالنا، ومسفك دمائنا، وهنا محل قبورنا، بهذا حدثني جدي رسول الله ﷺ [2].

٢٦ ـ وقال عليه السلام في رسالة له لبني هاشم عندما عزم على مغادرة مكة إلى العراق:

(أمّا بعد فانه من لحق بي منكم استشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح)[3].

٢٧ ـ (عن عبد الله بن يحيى عن ابيه، انه سافر مع علي وكان مع علي مطهرته، فلما حاذى بيوتنا، وهو منطلق إلى صفين، فنادى علي:

صبراً ابا عبد الله، صبراً ابا عبد الله بشاطىء الفرات، فقلت له: ماذا ابا عبد الله؟ فقال:

دخلت على رسول الله ﷺ وعيناه تفيضان، قال: قام من عندي جبريل عليه السلام قبل وحدثني ان الحسين يقتل بشط الفرات، قال: فقال هل لك إلى ان اشمك من تربته؟ قلت نعم: فمد يده فقبض قبضة من تراب فاعطانيها، فلم املك عيني ان فاضتا)[4].

٢٨ ـ (عن هرثمة بن سليم قال:

غزونا مع علي عليه السلام صفين، فلما نزل بكربلاء صلى بنا، فلما سلم، رفع اليه من تربتها فشمها، ثم قال: واها لك يا تربة، ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب.

---

(١) الطبري ٥/٤٠٣، وابن الاثير ٣/١٢٨٠ وروضة الواعظين للفتال ١٨٠، ومناقب ابن شهرآشوب ٤/٩٦، والارشاد ٢٠٨ والخوارزمي ١ ف ١١ وأنساب الأشراف ٣/ ١٧١.

(٢) اللهوف لابن طاووس ص ٣٣ ومناقب ابن شهرآشوب ٤/ ٩٧، وذخائر العقبى. محب الدين الطبري ص ١٤٩.

(٣) كامل الزيارات، ابن قولوية ص ٧٥، ودلائل الإمامة، محمد بن جرير الطبري ص ٧٧.

(٤) ذخائر العقبى ص ١٤٨ (أخرجه أحمد وأخرجه ابن الضحاك).

قال: فلما بعث عبيد الله بن زياد البعث الذي بعثه إلى الحسين عليه السلام كنت في الخيل التي بعث إليهم، فلما انتهيت إلى الحسين عليه السلام واصحابه عرفت المنزل الذي نزلنا فيه مع علي عليه السلام والبقعة التي رفع اليه من تربتها والقول الذي قاله، فكرهت مسيري، فأقبلت على فرسي حتى وقفت على الحسين عليه السلام فسلمت عليه، وحدثته بالذي سمعت من ابيه في هذا المنزل، فقال الحسين: امعنا أم علينا؟ فقلت: يا ابن رسول الله ﷺ لا معك ولا عليك، تركت ولدي وعيالي، اخاف عليهم من ابن زياد، فقال الحسين عليه السلام: فول هرباً حتى لا ترى مقتلنا فوالدي نفس حسين بيده، لا يرى اليوم مقتلنا احد ثم لا يعيننا إلا دخل النار، قال: (فاقبلت في الارض اشتد هربا حتى خفي علي مقتلهم)[1] وعن سعد بن وهب قال: (بعثني مخنف بن سليم إلى علي عند توجهه إلى صفين فأتيته بكربلاء، فوجدته يشير بيده ويقول: ههنا، ههنا. فقال له رجل: ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ فقال: ثقل لآل محمد ﷺ ينزل ههنا، فويل لهم منكم، وويل لكم منهم، فقال له الرجل: ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال: ويل لهم منكم تقتلونهم، وويل لكم منهم، يدخلكم الله بقتلهم النار.

وقد روي هذا الكلام على وجه آخر، إنَّه عليه السلام قال: فويل لكم منهم وويل لكم عليهم، فقال الرجل: اما ويل لنا منهم فقد عرفناه، فويل لنا عليهم ما معناه؟

فقال: ترونهم يقتلون لا تستطيعون لنصرتهم)[2].

٣٠ ـ (عن الحسن بن كثير عن أبيه، ان علياً عليه السلام اتى كربلاء، فوقف بها فقيل له:

يا أمير المؤمنين، هذه كربلاء، فقال: ذات كرب وبلاء، ثم أومأ بيده إلى مكان فقال: ههنا موضع رحالهم، ومناخ ركابهم. ثم أومأ بيده إلى مكان آخر، فقال: ههنا مراق دمائهم)[3].

إنّ النصوص التي بين أيدينا تشير إلى ان الرسول ﷺ علم من جبرئيل عليه السلام باستشهاد الحسين عليه السلام، وانه اسر بذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام والى بعض أصحابه وازواجه مثل أم سلمة، وان خبر ذلك كان واضحاً عند الامام عليه السلام.

وربما كان أسى الرسول ﷺ وحزنه ليس فقط على ولده الحسين عليه السلام

---

(١) - (٣) شرح ابن ابي الحديد، م ١ ج ٣ ص ٢٧٨.

وحسب، وانما على الأمة التي انتشلها ورفعها إلى مستوى الرسالة التي تعرفت عليها وحملتها، ثم تراجعت عنها واصبحت جثة هامدة بين يدي يزيد، ولن يكون لها أي دور سوى خدمة وترسيخ الحكم الاموي وخدمته.

إنَّ اقدامها على قتل الحسين عليه السلام ابن صاحب الرسالة، يعني استعدادها للتخلي عنها نهائياً، في غمرة ضياعها وانحدارها وانزلاقها مع كل رموز الانحطاط والجهل والكفر، التي يقف يزيد وآل أبي سفيان وآل مروان وآل زياد في مقدمتها.

إنَّ ذلك يعني ان مسيرة الاسلام لم تتعثر وحسب، وانما توقفت وتراجعت في ذلك الزمن الصعب الذي أصبح فيه يزيد خليفة واماما للمسلمين، واصبحت بطانته وحاشيته المتسعة المتضخمة طبقة طفيلية مترفة تحكم معه، وتتسلط على الناس، وتتحكم بمصائرهم وحياتهم باسم الاسلام.

ولو قدر للاسلام أن يشهد نفس المستوى المتسارع من السقوط والانحدار إلى الهاوية، الذي شهده في عهد معاوية ويزيد، دون الوقفة الحاسمة من الحسين عليه السلام لوصل الامر بالحاكمين بعدهما ان لا يرفعوا حتى الشعارات الظاهرية للاسلام، ولأعلنوا رفضهم العلني غير المبطن له، ولأعلنوا أيضاً عدم صلاحيته للحياة وعدم توافقه وملائمته لها، ولشنوا عليه حربهم بشكل مباشر وصريح.

ألا إنَّ تلك الوقفة القوية والشجاعة، جعلتهم يحجمون عن مواجهة الأمة واعلان موقفهم صراحة من الاسلام.

فالمسألة، برمتها هنا، لم تكن تتعلق برغبة ذاتية بحتة للخروج وطرح خيارات بديلة لذلك، وانما كان من المحتم على الحسين عليه السلام ان لا يبايع يزيد، ومن المحتم عليه كذلك ان يضع يده في يد أولئك الذين اعلنوا استعدادهم لمواصلة الكفاح ضده ومقارعته.

لقد كان يدرك أنَّه سيقتل ويخذل. وكان لأهل العراق مواقف مسبقة مع ابيه واخيه، ولم يكن بحاجة إلى من ينبهه إلى هذا الامر، فهو به عالم حق العلم، وقد عايش كل فصول المآسي التي رافقت ذلك، ولم يكن مجرد مراقب يعيش على هامش الاحداث، وانما كان مشاركاً رئيسياً ومعايشاً حقيقياً لها.

إنَّنا نتساءل: ماذا كان بوسعه ان يفعل لمنع الانحراف غير ما فعل، وهو التوجه

إلى العراق، ووضع يده في يد من اعلنوا استعدادهم لمساندته ومحاربة الدولة الاموية المنحرفة؟

ألا يكون تخلفه وامتناعه عن الاستجابة لهم، حجة للامة فيما بعد، لكي تحمله مسؤولية التخلي عن قيادة الأمة في أصعب الظروف التي مرت بها وتحميله مسؤولية سقوطها وإبادة الاسلام؟

وبغض النظر عن التفسيرات المغرضة والمعادية لثورة الحسين عليه السلام، فإنَّ بعض التفسيرات الاخرى وربما بدافع من حرصها على ابراز الثورة كحدث فريد متميز عن غيره من الاحداث الكبيرة الاخرى، وربما بدافع من ردود الفعل للتفسيرات المعادية ومن منطلق دفاعي انفعالي تحاول تبني التفسير الغيبي، المبني على الروايات التي ذكرناها وعلى الروايات الاخرى المشابهة لها، وترفض أية تفسيرات اخرى، رغم وضوح الاهداف المعلنة للثورة، والتي أوضحها الامام عليه السلام منذ اليوم الاول لسماعه خبر هلاك معاوية في خطبه ومقابلاته وأجوبته (للناصحين) والمحذرين من الخروج إلى العراق، والتي أوضحنا بعضها وسنتطرق إلى البعض الآخر في بقية حلقات الكتاب بعون الله تعالى. وربما كان الحذر أو الخوف من ابراز الثورة كحدث انساني اجتماعي يتكرر في دعوات الانبياء والاوصياء المتفانين في الله رغم تعرضهم لمخاطر جدية لا تقل عن تلك التي تعرض لها الامام عليه السلام، ومحاولة اضفاء قداسة خاصة ذات طابع غيبي بحت، يكمن خلف تلك المحاولات التي تحاول عرض الثورة كحدث منقطع عن اسبابه الحقيقية، وهي ايقاف الانحراف وتصحيح المسيرة التي كادت تتوقف إلى الابد، لولا تلك الثورة.

إنَّ الانبهار بالثورة أو التأثر بجانبها المأساوي جعل الكثيرين يغضون النظر عن الدوافع والاسباب الحقيقية التي جعلت الحسين عليه السلام يقدم على أكبر تضحية سجلت في تاريخ الرسالات السماوية على الاطلاق، ويركزون على تلك الروايات عن رسول الله ﷺ التي اشارت إلى موت ابنه الحسين عليه السلام والتي لم تشر إلى الكيفية أو السبب الكامن خلف ذلك، ويكتفون بعرض بعضها وعرض الطريقة التي تمت بها مجزرة الطف لانتزاع الاعجاب أو التأثر المجرد باولئك الذين جادوا بارواحهم بتلك الطريقة الباسلة، ولم يتنازلوا حتى وهم يواجهون جيشاً كذلك الذي واجهوه في كربلاء، ويذهبون إلى حد تجريد الثورة من الطابع البشري الواقعي، الذي يأخذ بنظر الاعتبار العلاقات الانسانية العادية وعوامل الهوى الانساني وصعود

الانسان حتى الاقتراب من مرتبة الانبياء والاوصياء وهبوطه حتى إلى مستوى الشياطين.

بعض القراءات الخاطئة للنصوص التي اخبرت عن إستشهاد الحسين عليه السلام

وهكذا استنتج بعضهم، مما ورد من النصوص السابقة، أنَّ الحسين عليه السلام قد سار لحتفه بتلك (الطريقة الانتحارية المريعة) استجابة للمشيئة الالهية، أو التكليف الإلهي الذي رصد له الامام الحسين عليه السلام شخصياً، والذي استجاب له بقوة وحماس باعتباره يتمتع بقوة امام معصوم لا تتاح للافراد العاديين، وان مسؤوليته كانت الاستجابة للمشيئة الالهية دون فهم الاسباب الحقيقية لذلك، وبذلك يجردون الحدث من دوافعه الحقيقية ومن شموله واحتمال تكراره، وابعاده عن الاستطاعة البشرية للناس الآخرين الذين لا يتمتعون بعصمة الائمة وقوتهم وقدرتهم على مواجهة الموت ان استدعى الامر في سبيل العقيدة.

واذا ما فعلوا ذلك، فكيف يستطيعون تبرير ذلك الاقدام الشجاع على الموت من قبل اصحاب الامام عليه السلام، الذين استشهدوا معه ولم يترددوا أو يتخاذلوا أو يفكروا بالتراجع، حتى عندما سمح لهم الامام عليه السلام بتركه لان الدولة الأُموية كانت تطلبه شخصيا لمركزه ومكانته من الامة؟ ان من يجرد الامام عليه السلام من صفة البشرية التي تتألم وتعاني وتفكر وتتأثر وتنفعل ويضفي عليه صفات الملائكة المطيعة المستجيبة المسبحة بامر ومشيئة الهية، لا مجال معها للاختيار، ربما يكون بذلك قد حرمه من الثواب الجزيل الذي ينتظره من الله لاستجابته الارادية الواعية وفهمه للموقف الدقيق الذي كانت تعيشه الامة، واقدامه على تلك المسيرة الملحمية التي لفتت نظرها بشكل حاد، فهل كان الحسين عليه السلام (مجبراً) بدافع المشيئة الالهية، التي طلبت منه ذلك شخصياً، ام انه كان مستجيبا لدوافع وعيه وفهمه لاوضاع الامة المتردية، والتي لم يكن ليخلصها منها سوى ذلك الموقف البطولي، بل الموقف الوحيد الذي كان يمكن أن يقوم به إمام الامة وخليفتها الحقيقي، لانقاذ الأمة وخلافتها الحقيقية؟ والذي كان مطلوباً من كل فرد آخر من الامة.

ألم يكن الأنبياء والاوصياء وحتى بعض اتباعهم المؤمنين، يتوقعون موتاً محتماً وهم يواجهون مجتمعات جاهلية ذات قيادات حريصة على مصالحها وامتيازاتها، ولم يكن من المتوقع ان تستجيب بسهولة إلى دعواتهم للمساواة والعدالة والعبودية لله؟

هل تردد احد منهم أو حاد عن المهمة التي أرسل بها؟.

وهل كانت مسيراتهم واستجاباتهم غير واعية وغير ارادية وتمت دون معاناة أو تخطيط أو اعداد؟

هل ذكر في سجل الأنبياء ان احداً منهم تنازل أو تخلى ولم يكمل مهمته حتى النهاية؟ رغم ان بعضهم ربما قد علم بالمتاعب والمصاعب التي قد تصل إلى مواجهة الموت وأخبرهم الله بها يقيناً؟

لقد كلفوا بمهمة علموا أن عليهم انجازها حتى النهاية، فلم يترددوا، وكان الامر نفسه مع بعض اتباعهم المؤمنين، رغم انهم لم يبلغوا شخصياً ولم تنزل عليهم رسالات الأنبياء، ومع ذلك فان إيمانهم بلغ من القوة وكأن الوحي قد نزل عليهم شخصياً.

ألم تصادفنا حالات كثيرة على امتداد تاريخ الانبياء والرسل؟

ألم تكن الحالات التي صادفتنا خلال عهد الرسول صلى الله عليه وآله كافية لكي تجعلنا ندرك ان وجود امثال هؤلاء الاشخاص حقيقي وان افعالهم كانت مطبوعة بالطابع الإرادي الواعي، وذهبوا إلى حد التضحية بأنفسهم رغم علمهم بالمصير الذي سيلقونه، بل أن بعضهم ذهب إلى حد تمني ذلك المصير ونيل الشهادة وطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يدعو له الله لكي يرزقها، ولم يمنعهم علمهم المسبق بالشهادة من التردد أو التراجع، بل انه لم يقلل من حماسهم واندفاعهم وفرحهم بذلك، بل واعتبروه من مواطن البشرى والشكر كما فعل أمير المؤمنين عليه السلام، وقد روى لنا أمير المؤمنين عليه السلام نفسه، قال:

إنه لما أنزل سبحانه، قوله: ﴿ألم أحسب الناس أن يتركو أن يقولوا أمنا وهم لا يفتنون﴾، علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله صلى الله عليه وآله بين أظهرنا. فقلت: يا رسول الله، ما هده الفتنة التي أخبرك الله تعالى بها؟ فقال: «يا علي، ان أمتي سيفتنون من بعدي»، فقلت: يا رسول الله، أوليس قد قلت لي يوم أحد حيث استشهد من المسلمين، وحيزت عني، فشق ذلك علي، فقلت لي: «أبشر فان الشهادة من ورائك» فقال لي: : «إن ذلك لكذلك، فكيف صبرك اذن؟ فقلت: يا رسول الله، ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر)[1].

(١) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، ٢٢.

وقد رويت اخبار عديدة عن بعض اصحاب رسول الله ﷺ في معركة بدر وغيرها. . ، (ففي بدر خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرضهم، وقال:

والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلًا غير مدير، إلا أدخله الله الجنة. فقال عمير بن الحمام، أخو بني سلمة، وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده، فقاتل القوم حتى قتل.

وإن عوف بن الحارث، وهو ابن عفراء قال: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟ قال: غمسه يده في العدو حاسراً. فنزع درعاً كانت عليه فقذفها. الحسين عليه السلام (مجيراً) بدافع المشيئة الالهية، التي طلبت منه ذلك شخصياً، ام انه كان مستجيبا لدوافع وعيه وفهمه لاوضاع الامة المتردية، والتي لم يكن ليخلصها منها سوى ذلك الموقف البطولي، بل الموقف الوحيد الذي كان يمكن أن يقوم به إمام الامة وخليفتها الحقيقي، لا نقاذ الامة وخلافتها الحقيقية؟

والذي كان مطلوباً من كل فرد آخر من الامة.

ألم يكن الأنبياء والأوصياء وحتى بعض اتباعهم المؤمنين، يتوقعون موتاً محتماً وهم يواجهون مجتمعات جاهلية ذات قيادات حريصة على مصالحها وامتيازاتها، ولم يكن من المتوقع أن تستجيب بسهولة إلى دعواتهم للمساواة والعدالة والعبودية لله؟

هل تردد أحد أو حاد عن المهمة التي ارسل بها؟

وهل كانت مسيراتهم واستجاباتهم غير واعية وغير ارادية وتمت دون معاناة أو تخطيط أو اعداد؟

هل ذكر في سجل الأنبياء أن أحداً منهم تنازل أو تخلى ولم يكمل مهمته حتى النهاية؟ رغم أن بعضهم ربما قد علم بالمتاعب والمصاعب التي قد تصل إلى مواجهة الموت واخبرهم الله بها يقيناً؟

لقد كلفوا بمهمة علموا أن عليهم انجازها حتى النهاية، فلم يترددوا، وكان الأمر نفسه مع بعض اتباعهم المؤمنين، رغم انهم لم يبلغوا شخصياً ولم تنزل عليهم رسالات الأنبياء، ومع ذلك فإن ايمانهم بلغ من القوة وكأن الوحي قد نزل عليهم شخصياً.

الم تصادفنا حالات كثيرة على امتداد تاريخ الأنبياء والرسل؟

الـم تكن الحالات التي صادفتنا خلال عهد الرسول ﷺ كافية لكي تجعلنا ندرك أن وجود أمثال هؤلاء الاشخاص حقيقي وأن افعالهم كانت مطبوعة بالطابع الارادي الواعي، وذهبوا إلى حد التضحية بانفسهم رغم علمهم بالمصير ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

وعكاشة بن محصن الذي قال لرسول الله (ص) حين قال رسول الله (ص): يدخل الجنة سبعون ألفاً من أمتي على صورة القمر ليلة البدر، قال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: إنك منهم، أو االلَّهُمَّ اجعله منهم)[1].

(وقال رسول الله ﷺ حين غشيه القوم [في أحد]:

من رجل يشري لنا نفسه؟ فقام زياد بن السكن في نفر خمسة من الأنصار، فقاتلوا دون رسول الله اص)، رجلًا ثم رجلًا يقتلون دونه..

وعمرو بن الجموح كان رجلًا أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسد، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا له: ان الله عز وجل قد عذرك فأتى رسول الله ﷺ فقال: إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، فوالله أني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال رسول الله ﷺ أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك، وقال لبنيه: ما عليكم إن لا تمنعوه، لعل الله أن يرزقه الشهادة، فخرج معه، فقتل يوم أحد)[2].

وقد إستبشر عمار بن ياسر الذي وعده رسول الله ﷺ بالشهادة وقال له «تقتلك الفئة الباغية الناكبة عن طريق الحق» وأخبر ﷺ أن آخر رزقه ضياح من لبن، عندما تقدم في صفين لمقاتلة جيش معاوية وقال:

(ائتوني بآخر رزق لي من الدنيا، فأتي بضياح من لبن في قدح أروح فقال: (والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل، وجعل يقول: الموت تحت الأسل، والجنة تحت البارقة.. وقال: االلَّهُمَّ إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظبة سيفي في صدرى ثم أنحني عليها، حتى تخرج

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، م ٢/ ٦٢٣- ٦٢٧ ٦٢٨-٦٣٨.

(٢) نفس المصدر السابق، ٣/ ٨١.

من ظهري لفعلت، وإن لا أعلم اليوم عملًا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم أن عملًا من الأعمال هو رضى لك منه لفعلته)[1].

وهناك عشرات الروايات التي بشر فيها رسول الله صلى الله عليه وآله بعض صحابته بالجنة، وقد استبشروا بذلك وفرحوا وتسابقوا إلى الموت وملاقاة العدو دون تردد أو خوف.

وإذا ما قيل أن هذا موقف أمام معصوم يمتاز بقدرة استثنائية على التحمل في سبيل الله، فقد رأينا مواقف من هم أقل منه من الناس العاديين الذين اندفعوا نحو الشهادة واستبشروا بها فكانوا بذلك متفوقين على الآخرين بشكل لا يوصف.

ولعل أصحاب الحسين عليه السلام، وهم أناس عاديون، مكلفون بواجباتهم كبقية البشر، خير مثال على الاستعداد الكامل لملاقاة الموت رغم اليقين والعلم المسبق بذلك، كما دلت وقائع الأحداث وكما سنرى عند استعراض تفاصيل واقعة الطف بعون الله.

كان الحسين عليه السلام قادراً وفق الحسابات العادية أن يضع يده بيد يزيد ويبايعه وبذلك كان يستطيع منع مصيبة الموت أن تحل به، غير أنه وفق حسابات الرسالي والعالم الرباني والمستجيب للحكم الإلهي والمشيئة الإلهية، كان يرى أنه غير مستطيع أن يفعل ذلك، وأنه مجبر على مناوئة الدولة اليزيدية الظالمة، ليتم ايقاف الانحراف، مع أن ثمن ذلك لا بد أن يكون دمه ودم أصحابه وسبي وتشريد عياله وأطفاله.

ولعل فرحه لاختياره لتكك المهمة الصعبة، التي كان يعلم أنه سينجح فيها إلى حد بعيد يفوق أساه على حال الأمة، التي انهزمت واستسلمت وتخاذلت أمام الظلم الأموي، وعلى أولئك الذين تصدوا لمقاومته وقتله خصوصاً وأنهم كانوا يستطيعون الوقوف معه وفي صفّة بوجه تلك الدولة ومع ذلك انقبلوا عليه ووقفوا ضده بمجرد ان لوحت لهم بسيفها وأكياس نقودها.

كان ذلك مؤشر انحدار فظيع تقع فيه الامة، فهل هي حقاً نتاج ذلك الجيل الاول من الصحابة الذي رباه رسول الله صلى الله عليه وآله وأعده لتربية الأجيال اللاحقة، كيف سيكون الامر بعد خمسين سنة أخرى، ما دام نتاج الخمسين الأولى هو هذا؟

---

(١) الطبري، ٣/٩٨.

أترى ان امراً كهذا لم يكن يهز شخصاً بمستوى الإمام الحسين عليه السلام وبمستوى شعوره بالمسؤولية؟

ترى لو أن رسول الله صلى الله عليه وآله لو كان يعيش وشهد ما شهده الحسين عليه السلام هل كان يقول: وما علي من ذلك، الم ابلغهم، ولو ان أمير المؤمنين عليه السلام كان موجودا هل كان يتصرف تصرفاً لا مبالياً ويقول علي بنفسي.

هل طلب أولئك الذين (نصحوا) الامام عليه السلام وحذروه من الخروج إلى العراق، سوى ان يعلن الإمام الحسين عليه السلام تخليه عن المسؤولية و (يفوز) بالسلامة عسى أن يحظى بأعوام قليلة يضيفها إلى عمره؟

أن ردود الامام الحسين عليه السلام الاخرى لناصحيه ومحذريه أكدت على نقطتين أساسيتين:

الأولى: أنه يرى نفسه ملزماً، بل أول مسؤول في الأمة، لكي يوقف الانحراف ولمنع الظلم والجور، وهذا ما رأيناه في وصيته لمحمد بن الحنفية وفي خطابه قبيل مغادرة مكة، وفي رسائله لأهل البصرة وأهل الكوفة، وفي خطابه أمام أصحابه وأصحاب الحر وجيش اين زياد، وهذا الأمر واضح يبرر خروجه إلى الكوفة.

الثانية: أنه يرى أن هذه المهمة لن تتم يمجرد التمني واشعار الظالم بأنه ظالم وأن عليه أن يوقف ظلمه وانحرافه، فالظالم هنا أصبح طبقة كاملة لها امتيازاتها ونفوذها وثرواتها ومصالحها، ولن تقبل بالتنازل ولو عن شيء يسير من ذلك، وستتصدى بعنف لكل محاولة تلمس منها الخطر عليها، ومعنى نجاح الحسين عليه السلام في مهمته كان يعني القضاء عليها إلى الأبد، وهو أمر ممنوع وغير مسموح به، ولأن تلك الطبقة قوية بما فيه الكفاية، فاحتمال تعرضه لخطر الموت وهو وأصحابه، يل لميتة شنيعة تقطع فيها الرؤوس وتداس فيها الجثث وتترك للطيور والجوارح أياماً عديدة، امر وارد جداً.

ولعله كان علماً من العلم الذي علمه الله لجبرائيل فأخبر به رسوله صلى الله عليه وآله وعلم به الأئمة عليهم السلام.

ترى لو أن الحسين عليه السلام، لم يكن مكلفاً ومعداً منذ البداية لانجاز هذه المهمة الضخمة، ولم يخبر أنه سينال شرف القيام بها، أما كان يتمنى حقاً ويدعو الله أن يتيح له فرصة القيام بها ولو بالتضحيات الكبيرة التي دفعها ثمناً لذلك؟

أكان شعور بعض صحابة رسول الله ﷺ الذين طلبوا منه ان يدعو الله لكي يستشهدوا بين يديه اكبر من شعوره هو بالمسؤولية؟

هل لمس أحد في أجوبته أنه كان يريد أن يقول أنه مكلف بمهمة شخصية بحتة لا يقدر غيره على انجازها أو المساهمة فيها؟ أم أنه كان يستنهض الأمة كلها، ويضع أمله في كل شخص، ويرى أن الفرصة سانحة للتغيير والوقوف إلى صفه؟ ويرى في ذلك نصراً لقضيته؟ مع أن من يقف في صفه في النهاية لا يستطيع دفع خطر الموت عنه، كما في قضية الحر مثلاً؟ ولقد كان منهج الحسين عليه السلام في هذه القضية منهجاً اسلامياً اصيلاً، وقد عبر عن ذلك أمير المؤمنين عليه السلام وقد استبطأ أصحابه اذنه لهم في القتال بصفين قائلاً:

(أما قولكم: أكل ذلك كراهية الموت فوالله ما أبالي، دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلي. وأما قولكم: شكا في أهل الشام؟ فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمح أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوء بآثامها)[1].

لقد كان يعد كسب شخص واحد إلى خطه الرسالي الصحيح نصراً للإسلام، وكان بذلك يعلن أن أمله سيظل كما هو وان الأمة لا بد أن تعود إلى الإسلام رغم القوة الظاهرية لاعدائه.

إننا اذا ما فسرنا قيام الحسين عليه السلام بثورته على أنه استجابة للقدر الذي كتب عليه، فانا يمكن أن نعطي الفرصة لأصحاب المنطق الملتوي من مبتدعي المذاهب المضللة كالجبرية ليقولوا: إن قتل الحسين عليه السلام كان مقرراً من قبل الله عز وجل منذ البداية، ولم يكن الجيش وكل المشاركين بالجريمة سوى أدوات استجابت للمشيئة الالهية ايضاً، ومعنى ذلك رفع مسؤولية الجريمة عنها نهائياً. ألم يكن مثل هذا المنطق البدائي قد ظهر فعلاً وبتشجيع من معاوية حتى صار مذهباً ومعتقداً لعشرات الآلاف من المسلمين المضللين المغرر بهم؟ ألم يكن ذلك تمهيداً لانتهاكات اشد خطورة يقدم عليها الحاكم الظالم وبطانته ليلقوا مسؤولية ذلك على الله جل وعلا؟

لقد أشار الرسول ﷺ إلى ان أمته ستفتن من بعده، وانها ستتوزع إلى فئات

---

(١) نهج البلاغة: ٩١ - ٩٢ - ١٠٢ - ٤٨١.

وطوائف ستكون منها فئة باغية، ولعل هذه الفئة لن تكون قليلة العدد والامكانات، كما أن أمير المؤمنين عليه السلام اشار في مناسبات عديدة إلى ذلك والى ظهور الفتن وتسلط أناس كمعاوية ومروان واشباههما، فقد قال عليه السلام عن معاوية.

(أما أنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق الباطن، يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه، ولن تقتلوه، إلا وأنه سيأمركم بسبيّ والبراءة مني)[1].

وقال عن مروان:

(أما ان له إمرة كلعقة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة، وستلقى الأمة منه ومن ولده يوما أحمر)[2].

وطبيعي أنهما لم يقولا أن ذلك ما كان ينبغي ان يكون في ظل الاوضاع الطبيعية، وفي ظل التسلسل المطلوب لصعود الامة وارتفاعها، ولكنهما أشارا إلى ان ذلك سوف يكون هبوطاً هائلاً عن القمة الأولى، وأنه قد يستدعي جهوداً هائلة لايقافه، وثمناً غالياً، قد يكون الدماء الزكية للمخلصين من خيرة أبناء الأمة، إذ ان هؤلاء سيكونون في مقدمة الذين سيدركون الخطر ويتصدون له، ان علموا بذلك يقيناً أو ان مجريات الامور تدل على ذلك، اذ ما يتوقع من يتصدى لفرعون غير بطش فرعون وسيف فرعون وتعطش فرعون للدماء.

لقد أدرك الحسين عليه السلام خطورة مهمته، وانه لن يتمكن من انجازها بسهولة، وأنَّ العنف سيكون هو رد الفعل الاول للدولة الظالمة، وان الشهادة محتملة، بل محققة كما اخبر جده صلى الله عليه وآله لكنه مع ذلك يقدم ولا يتراجع، لأن النتائج المحتملة ستكون اعظم من السنوات الباقية من عمره لو استسلم وقعد وهادن يزيد، بل ما قيمة تلك السنوات اذا ما انهاها بالاستسلام؟

أنه بذلك يكون قد ضيع كل ما بناه رسول الله صلى الله عليه وآله وكل الانبياء والاوصياء على مر التاريخ، وضيع تضحياتهم وعذاباتهم ودماءهم، ويكون قد غدر بهم واعطى المبرر لاعدائهم لادعاء الشرعية وفرض احكام الجور وسلطان الظلم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

إن سليل الأنبياء سيكون بذلك أول من أضاع رسالاتهم، وفتح الطريق أمام ضياع شامل لكل الناس.

فهل يفعل ذلك من فهم الرسالة ذلك الفهم الوعي، واقترب من رسول الله ﷺ إلى درجة إنه كان جزءاً منه، بل وأن رسول الله ﷺ أعلن انتماءه ﷺ اليه في حديث شهير (حسين مني وانا من حسين).

وإذا ما فهم كل فرد معنى انتماء الحسين عليه السلام للرسول ﷺ ولرسالته العظيمة، فإنه لن يكون من العسير فهم تصريح الرسول ﷺ بأنه ينتمي للحسين عليه السلام، فالرسول ﷺ هو صاحب الرسالة وهو اول منتم اليها، واذا ما أحيا الحسين عليه السلام تلك الرسالة التي اوشكت ان تندثر بفعل الانحراف والظلم والمصالح، فكأنه بذلك قد أعاد للمسلمين هويتهم الحقيقية وانتماءهم الحقيقي، وأحيا دينهم مرة أخرى، واعطاهم الفرصة ثانية للانتماء الحقيقي اليه والحرص عليه وعدم اضاعته مرة ثانية، وان استدعى الامر ان يبذلوا ما بذل، وما بذل لم يكن بالأمر الهين على أي حال، ومن هنا كان فخر الرسول ﷺ به واعتزازه بذلك الموقف الفريد الذي سيظل ماثلًا على الدوام أمام أمته.

لقد اراد ﷺ أمته كلها أن تقول: وانا من حسين، ان تعلن انتماءها اليه وان تكون أمة حسينية كما هي أمَّة محمدية.

التكليف الإلهي بالثورة ضد يزيد

تكليف لكل الأمة وليس للحسين عليه السلام وحده

كانت خطابات الحسين عليه السلام كلها تستحث الهمم للالتحاق به وبمسيرته، لم يقل لاحد انها مهمة خاصة بي أنا لوحدي، وعليك أن تلتحق بي لاني بحاجة شخصية إليك، وإنما قال: أن الإسلام بحاجة لنا جميعاً، وعلينا ان لا نتردد ببذل الغالي من التضحيات حتى وإن كانت انفسنا ودماءنا.

وهكذا التحق به اصحابه بعد ان ادركوا انهم مكلفون مثله بهذه المهمة، وأن أمرها غير مقتصر عليه وحده، ولم يقل أحد منهم ما شأني انا وهذه المهمة صعبة لا يقدر عليها الا الحسين عليه السلام، ومن هم من أمثاله.

فلا بد أن يكونوا قد وعوا دوافعه وفهموها وساروا وراءه تلك المسيرة البطولية، ولم يسيروا وراءه بشكل عشوائي واندفعوا اندفاعة عاطفية، لم تكن عاطفتهم تجاهه بذلك الشكل الملفت للنظر حقا، الا لأنه أبدى ذلك الاستعداد الكبير للتضحية، كانوا يعرفون من هو، وما هو غرضه من الثورة، وأدركوا انه كان يريد الأمة كلها ان تقوم بما قاموا به أو كانوا بسبيل القيام به معه وتحت قيادته، وأن تفهم مهماتها دائماً وأن لا تتخلى عن رسالتها، لكن الأمة مع ذلك ضعفت وتراجعت واستسلمت، حتى أولئك الذين كتبوا له ودعوه للمجيء تخاذلوا، مع ان معظمهم قد يكونون على الأغلب تحت تأثير اندفاع صادق في البداية، وإنهم كانوا يودون حقاً النهوض تحت قيادته للاطاحة بالدولة الأموية، إلا أن اندفاعهم لم تكن فيه مقومات الاستمرارية، وكان قابلًا للانحسار بمجرد تعرضهم لموقف حازم تشهر فيه السلطة سيف بطشها وارهابها، وقد عرفت عنهم مواقف مسبقة مماثلة جعلت الركون إلى أقوالهم ووعودهم يبدو وكأنه عبث لا طائل تحته.

غير أننا لوتساءلنا:

ماذا لو أنهم نجحوا في ثورتهم دون ان يقدم الحسين عليه السلام لقيادتهم؟

وأنه لم يسر إليهم إلا بعد ذلك النجاح كما اشار عليه فعلًا بعض الناصحين والمحذرين ولم يكن في مركز القيادة وفي المقدمة؟ ماذا كانت الأمة ستقول له فيما بعد؟ هل جاء ليستغل مكاسبها بعد ان صفا له الجو؟ لماذا لم يكن في مقدمة الثائرين، كما كان حال الأنبياء وأوصيائهم من قبل؟

ماذا كانت الأجيال التي جاءت بعد ذلك الجيل ستقول عنه؟

وماذا كنا سنقول نحن؟

وحتى إذا ما ثار أهل الكوفة دون الحسين عليه السلام واخفقوا في ثورتهم، على من كنا سنلقي تبعة ذلك؟ ألا نقول: لو أن الحسين عليه السلام سار اليهم لنجحوا بالتأكيد؟ ألا نلقي اللوم في ذلك الاخفاق عليه ونحمله مسؤولية الفشل؟

إنَّ الحسين عليه السلام ما كان ليهتم بأحكامنا وتساؤلاتنا، لو لم يعتقد أنه القدوة للأمة، وأنها ستتصرف على ضوء مواقفه فيما بعد.

إذ أننا لو كنا نرى أنه قد تنازل واستسلم لحاكم مثل يزيد، كنا نحن حتما سنتنازل إمام اشباهه وأمثاله، وسنحمله مسؤولية كل تنازل لاصق، إن منطق

المهزومين لم يلتق في أي يوم من الأيام مع منطق الحسين عليه السلام، ومع منطق الشهداء، حتى ان هؤلاء المهزومين راحوا يحملونه مسؤولية تعكير الجو الهادىء الدي ألفوا العيش فيه تحت علل الطواغيت والفراعنة، وراحوا يبررون هزيمتهم واستسلامهم، كما برر ذلك أولئك المهزومون الأوائل، وقد رأينا جوانب من منطق هؤلاء.

وبعد: فهل رأينا في مسار الثورة كلها، وفي حركة الامام الحسين عليه السلام خلال حوالي اربعة أشهر، ما يشير إلى أنه قال ان كل ما كان يقوم به انما هو تكليف خاص به هو لا غيره، وانه سيذهب دون اهتمام بالنتائج بعملية انتحارية ليس وراءها هدف لقد كانت ثورة الحسين عليه السلام استجابة لأوامر من عالم الغيب، اعلمه بها جده رسول الله صلى الله عليه وآله؟ هذا صحيح، ولكنها الأوامر الإلهية كانت موجهة لكل الأمة وليس للحسين عليه السلام وحده، وكانت استجابته عليه السلام وأصحابه لها استجابة واعية، فان قضية الحسين عليه السلام هنا، لن تكون مفهومة أمام الجماهير، ولن يسارع احد للمشاركة فيها، وانما ستتخلى عنه لو كان التكليف الالهي تكليفاً خاصاً به عليه السلام هو شخصياً. والا فما هي الآثار التي يمكن ان تتركها حركته لو كانت شخصية على الاجيال فيما بعد؟.

وما المسؤوليات التي سيعرف المسلمون انهم مكلفون بها، اذا ما تعرضوا لأوضاع ونظم مشابهة لنظام يزيد، إذا ما علموا ان الحسين عليه السلام كان مكلفا وحده في تلك الحالة بالتصدي ليزيد والحسين عليه السلام ليس معهم الآن؟

هل كانوا سيتحملون مسؤولية التغيير ام يتخلون عن كل شيء باعتبار أن حالة الحسين عليه السلام، كانت خاصة وانها غير قابلة للتكرار، وأنَّ لا قدرة لاحد على تحمل ما تحمله؟

هل ستكون أية قيمة لها فيما بعد، وهل ستترك آثارها التربوية والإجتماعية على اجيال المسلمين؟

هل وجدنا احداً من اصحاب الحسين عليه السلام قال انه انما كان يستجيب له شخصيا وان استجابته لم تكن للمهمة التي ثار من اجلها؟ ام أن اصحابه اندفعوا وراءه دون تحفظ أو خوف بعد معرفة اهدافه ودوافعه؟

إن ثورة الحسين عليه السلام عظيمة بلا شك، وقد لفتت انظار الامة بشكل حاد إلى

واقعها المتردي وهزيمتها وتراجعها، غير ان اخراجها عن حدود القدرات البشرية الممكنة يجعلنا بعيدين عن دائرة الفهم الحقيقي لتلك الثورة، ويجعل أمر القيام باشباهها مناطة باشخاص لا ينتمون إلى البشر العاديين الذين حملهم الله رسالته.

استجابة الإمام الحسين عليه السلام الواعية للمشيئة الإلهية

إن فهمنا للروايات السابقة ينبغي ان يكون من منطلق ان الحسين عليه السلام أراد افهام الناس ان مهمته محفوفة بالمخاطر، وان ليس من المتوقع أن تتخلى السلطة الحاكمة عن امتيازاتها بمجرد رغبته بذلك. . ، وان على من يريدون المشاركة بها أن يوطنوا أنفسهم على ملاقاة أشد ضروب التنكيل والقتل، وقد أراد اعطاء من كان يحرص على حياته فرصة لتركه، وقد تركه فعلًا بعض الاعراب الذين كان يطمعون بالحصول على مكاسب مادية، عندما أدركوا جدية المهمة التي كان يقوم بها والأخطار التي كان ينوه عنها ان شخصاً آخر، طالباً للملك غيره، ما كان سيلجأ إلى تلك الصراحة ولحاول جمع أكبر عدد من الناس حوله مقدماً لهم الاغراءات والوعود على أمل استلام الحكم في المستقبل.

لقد كان الحسين عليه السلام بنهوضه ومسيرته إلى العراق وثورته على النظام الفاسد يريد أن يشعر كل فرد من الأمة أنه مسؤول مسؤولية شخصية عن تقويم الانحراف.

وكما علم بعض اصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنهم شهداء، ولم يتراجعوا علم الحسين عليه السلام انه شهيد، فلم يتراجع أيضاً، وعلم أصحابه انهم شهداء فلم يتراجعوا كذلك، وكان اولى بهم جميعاً أن لا يتراجعوا أمام الخطر الحقيقي المحدق بالإسلام، وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأوصياؤه أجدر ان يتحملوا مسؤولياتهم كاملة ليمضوا إلى نهاية الشوط حتى لو كان في ذلك نهاية حياتهم على هذه الارض.

أن استجابة الحسين عليه السلام لم تكن استجابة غير واعية لقدر نازل من الله، وانه كان يملك قوة خارقة خارجة عن حدود القدرات البشرية لتحمل ذلك، وان استجابته كانت كاستجابة الملائكة تماماً. . ، وأنه لم يكن يتألم أو يحزن. لقد جسد الإمام عليه السلام الموقف الحقيقي للإنسان القوي بالله وركنه القويم، وليس أدل على ذلك من مواقف أصحابه، وكانت استجابتهم كما اشرنا كاستجابته واعية إرادية متفهمة، وقد رأوا ان ما سيقومون به داخل ضمن امكاناتهم وغير عسير عليهم، ما داموا قد عرفوا لمن كانوا يستجيبون وماذا كانوا يفعلون.

وقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام في موقف آخر كان يستعد فيه لحرب معاوية وأصحابه، أكان ذلك بقضاء من الله وقدر؟ وقد اجاب عليه السلام سائله:

(ويحك؛ لعلك ظننت قضاء لازماً، وقدراً حاتماً؟ ولو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد. إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيرا، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يرسل الأنبياء لعبا، ولم ينزل الكتاب للعباد عبثاً، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلًا: ﴿ذلك ظن للذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار﴾[1].

استشهاد الإمام الحسين عليه السلام أعطى حياة جديدة للأمة

كان موقف الإمام الحسين عليه السلام وحركته ضد الدولة الاموية يشكلان عنصراً ايجابياً أراد له أن يكون مثمراً على الدوام ومتواصل العطاء.

لقد أعطى الرد الواضح على اعلان شريحة واسعة منها متمثلة بأعداد واسعة من أهل الكوفة، مركز الجيش الاسلامي في عهد أمير المؤمنين رفض حكم يزيد، فأعلن استعداده لتأييد ذلك والوقوف في مقدمة الرافضين السائرين لازاحة هذا الحكم، رغم علمه بطبيعة المجتمع الكوفي المهزور والواقع تحت تأثيرات وقوى عديدة، والقابل للتغيير والانقلاب عليه إذا ما تدخلت تلك القوى، والتي تدخلت فعلًا فأصبح الجنود الذين ابدوا استعدادهم للقتال معه، ضمن الجيش الهائل الذي جرد لقتاله.

على أنه لم كان بوسعه أن يفعل غير ذلك، وكان جوابه لأهل الكوفة جوابه للتاريخ كله، لقد دعوه لنصرته، أي لنصرة الإسلام ضد الانحراف، ولم يكن بوسعه أن يقابل استعدادهم المعلن ذاك الا بالإستجابة، وإلا لكان حكم التاريخ عليه قاسياً، ولحملته كل أجيال الامة مسؤولية انتكاساتها وخضوعها المتكرر للطغاة والظلمة، ولكان برفضه، لو أن ذلك قد حصل فعلًا، قد أتاح المبرر لوجود الدولة الظالمة والمنحرفة، وأوجد العذر لكل مستسلم ويائس ومنهزم.

ولعل السنوات المتبقية من حياة الامام الحسين عليه السلام لو قدر له أن يعيش دون

(١) المصدر السابق.

أن يقتل في الطف، والتي لا يعلمها إلا الله، والتي فقدها نتيجة استشهاده الرائع عوضت الأمة حياة دائمة، وأعطتها قابلية على البقاء والنمو والصحة والحركة والفعل، بعد إن كادت تموت وتصبح شبح أمة إسلامية، قامت في عهد قصير وماتت واندثرت بعد ذلك إذ كيف تكون الأمة أمة إسلامية في ظل حكام كيزيد واشباهه؟ وكيف كان هؤلاء سيعدونها ويربونها؟ وقد وجدنا الجواب في كتب التاريخ العديدة التي دلتنا على أفعالهم.

أخصبت تلك السنوات الذاهبة بفعل الشهادة عمرا اضافياً لكل فرد من الأمة على امتداد التاريخ، وكان كل متصد للظلم والانحراف يستلهم ذلك العطاء الكبير من الإمام عليه السلام، ويقدم بنفس تلك القوة التي اقدم، ويسترخص ما استرخصه من عمره الشريف، ويستهين بسنوات قلائل في ظل الظلمة والمنحرفين.

أن على أولئك الذين يرون أن ثورة الحسين عليه السلام ضد دولة الظلم الأموية واقدامه واستشهاده بتلك الصورة الرائعة المذهلة، حالة غير قابلة للتكرار والحدوث ثانية ان يتخلوا عن وهمهم هذا. إذ أن أصحاباً له اقتنعوا بصواب نهجه وتوجهه أقدموا على ما أقدم عليه دون تردد أو خوف، مع أنهم كانوا أناساً عاديين لم يتح لهم كل ما أتيح للامام عليه السلام من قدرات وقابليات، فقد جعلهم يشعرون بمسؤوليتهم تجاه دينهم شعورا عالياً متفوقا اصبحت التضحية معه بحياتهم أمراً واجباً.

وعندما اقدم الإمام الحسين عليه السلام على ممارسة واجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى حد تقديم حياته ثمناً لذلك، فأنه أحيا هذا المبدأ الذي كاد يزول ان يخلل معه الصفة الخيرة التي أرادها الله لهذه الأمة، عندما تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فلقد كانت أمة الإسلام خير أمة لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر[1]، أما عندما تتخلى عن مسؤولية القيام بذلك، فلن تكون لها تلك الصفة، وستعود أمة كسائر الأمم التي تخلت عن رسالتها وحاربت أنبياءها وأوصياءهم، وستصاب بالإندثار والسقوط والفشل، وهذا ما رأيناه فعلًا.

فلم يكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمراً هامشياً أو غير ضروري، وإنما كان الأداة الأولى للتقويم والانضباط ومنع الانحراف والابتعاد عن الإسلام،

(١) ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران ١١٠.

ولم يؤكد عليه كأمر طوعي أو اختياري وإنما كان واجباً عينياً على جميع المسلمين، يدركون اذا ما أدوه أنهم في الذروة وإذا لم يؤدوه أنهم في الهاوية، وكانت أعلى مراحل القيام بهذا الواجب هو التصدي لمن يعمل المنكر ويملك السلطان، فهذا لن يتنازل بسهولة امام من يدعوه للاستقامة والطريق القويم، وسيزين له هواه وحاشيته وأعوانه، عمله على انه العمل الصحيح، ما دام يتيح له ولهم الامتيازات والتسلط، وهكذا كانت اعلى مراحل هذا العمل (الجهاد) كلمة حق أمام سلطان جائر.

الحسين عليه السلام عنوان الجهاد الإسلامي

لقد أسهب علماء الإسلام والمفكرون والكتاب الاسلاميون في الحديث عن موضوع الجهاد، واستعرضوا ما جاء في القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وآله بهذا الخصوص.

على أن ما طرح من قبل (فقهاء وعلماء) الدولة الأموية اراد أماتة هذا الركن واضاعته، وقد أوردوا أحاديث مزورة وضعوها على لسان الرسول صلى الله عليه وآله أرادوا بها اسكات كل صوت يعلو فوق صوت الحاكم الظالم واماتة كل شعور بالمسؤولية لدى كل فرد من أبناء الأمة، ونسخ هذا المبدأ الاساسي الذي يتيح تحصينها ضد الانهيار والسقوط.

وكانت مهزلة حقاً أن يضعوا على لسان الرسول الكريم صلى الله عليه وآله تلك الاحاديث المزورة، التي تتناقض تناقضا بينا مع مجمل أحاديثه السابقة وسيرته، كما تتناقض مع كل ما ورد في القرآن الكريم بهذا الخصوص.

فكأنهم بذلك وضعوا مبادىء لدين آخر لا يحمل من الاسلام الا اسمه وحسب، وفتحوا المجال لتمادي الظالمين واستهتارهم، في كل العصور والامكنة، متذرعين بتلك الاحاديث المزورة، التي وضعوها على لسان الرسول صلى الله عليه وآله فقد روى البخاري في صحيحه، بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وآله، انه قال لأصحابه:

[«أنكم سترون بعدي اثرة واموراً تنكرونها. قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله قال: أدوا اليهم حقهم، واسألوا الله حقكم».

وإنه صلى الله عليه وآله قال:

(من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فانه من فارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية).

وأن مسلمه بن زيد الجعفي سأله ﷺ قائلًا:

(يا نبي الله أرأيت ان قامت علينا أمراء سألوننا حقهم ويمنعونا حقنا فما ترى؟ فاعرض ﷺ عنه، فسأله ثانياً وثالثاً والرسول معرض، فجذبه الأشعث بن قيس، فقال رسول ألله ﷺ: «اسمعوا واطيعوا، فان عليهم ما حملوا وعليكم ماحملتم»).

وعن عجرفة قال:

(سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائناً ما كان».

ويمهد (صحابي) من أكثر رواة الحديث على الاطلاق، لتمادي الأمويين في الظلم في العراق مخاطباً الحجاج وهو من العراق قائلًا:

(يوشك أن يأتيك بقعان أهل الشام فيأخذوا صدقتك، فاذا أتوك فتلقهم بها، فإذا دخلوها فكن في أقاصيها، وخل عنهم وعنها، وإياك ان تسبهم، فإنك إن سببتهم ذهب أجرك، وأخذوا صدقتك، وإن صبرت جاءتك في ميزانك يوم القيامة)[1].

وهي (أحاديث) بدت موضوعة خصيصاً الامراء منحرفين)، وكأن الانحراف أو الظلم هو القاعدة لمن يحكم، وهي نغمة لم تكن تعرف في عهد رسول الله ﷺ، وبدت لمسات معاوية واضحة فيها، وقد روينا (أحاديث) وقصص مشابهة أريد من نشرها واشاعتها بين الناس اماتة روح المقاومة والدفاع عن الحق والنفس والمال، وجعل الحكم استبدادياً مطلقاً بيد الامير الجائر، الذي لا يلتزم بمنهج الاسلام وشروط الخلافة ولا يخاف معارضة من الناس.

كان معاوية يعلم أنه بعيد عن الإسلام، فوضع تلك الأحاديث ليمر ظلمه وانحرافه وظلم وانحراف كل من سيأتي بعده، وهو اقل منه بلا شك، ليتحمل هو مسؤولية ذلك أمام الله، أما الأمة فعليها ان تصبر تاركة الأمر له سبحانه ان يشأ يأخذ لهم بحقهم أو يشأ يسامح، وهو ما سيفعله على الأغلب خصوصاً اذا ما كان الامير (صحابياً) مثل معاوية أو أنه كان (مؤمنا بالقلب) كيزيد لا يضره عصيان كما قالت المرجئة ويستندون في ذلك إلى حديث موضوع آخر، قالوا فيه ان رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح البخاري: م ٨/ ٨٧، م ٢/ ١٩ ١- ١٢٩.

قال: (لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة). فكأن الإسلام هو هذا، وكأن الإيمان مجرد شعور لا يلزم الانسان باي عمل أو منهج، ما دام قد اعلن إيمانه، أما كيفية التعبير عن ذلك والمنهج الحياتي لترجمته إلى واقع عملي، فلا يهم، وليس من ضرورة تدعو اليه. وهي دعوة خطرة، ولعلها من اخطر الدعوات التي تدعو لابعاد الإسلام عن الحياة.

هل هذه اقوال الرسول صلى الله عليه وآله حقاً؟

سترى الأمة من بعده اثرة وأموراً تنكرها.

وترى من أمرائها ما تكرهه.

وترى هؤلاء الأمراء تمنعها حقها.

وستكون هنات وهنات.

ويأتي بقعان أهل الشام فيأخذوا صدقات أبنائها..

وقد كان ذلك فعلّا. فما هو رد الفعل الذي طلبه الرسول صلى الله عليه وآله من أبناء الأمة؟ هل طلب منهم ما طلب القرآن..؟ ام انه أمرهم بالسكوت والاستسلام..؟ يقول واضعو الحديث هؤلاء انه صلى الله عليه وآله قال:

أدوا اليهم حقهم، واسألوا الله حقهم، اي لا تسألوهم حقكم ودعوا أمر ذلك لله،

واسمعوا وأطيعوا واصبروا.

بل واضربوا من يتعرض للظالم بالسيف، واقتلوه (كائناً ما كان)، حتى ولو كان هو الحسين..!! أليس ذلك ما طلع به علينا ابن العربي الذي اشرنا إلى قوله من قبل: بان الحسين عليه السلام قتل بشرع جده أو بسيف جده.

فيزيد لم يفعل شيئاً هنا سوى أن نفذ امر رسول الله صلى الله عليه وآله ليحافظ على وحدة الامة وتماسكها.

هل هذا هو الإسلام وهل هذا منطقه؟ أم هو منطق الظالم الذي يريد اسكات كل صوت قد يرتفع ضده، وضد ظلمه وخروجه عن قوانين الله وأحكامه؟ اترى إن أمثال هذه (الأحاديث) قد ظهرت حقاً وتواترت حتى جاء الوقت المناسب الذي

طبقت فيه أحكامها؟ ام أنَّ الاعلام الأموي الماهر بقيادة رأس الدولة (الداهية) معاوية قد مهد لظهورها واشترى (المحدثين) واضافهم إلى حاشيته المترفة، ومنحهم مئات الالوف من الدنانير الذهبية ليضعوها، ويضعها هو قاعدة لقيام حكمه الفرعوني الجديد؟ وحسبنا ان نشير إلى انها ومثيلاتها، تلك التي حاولت الطعن بآل البيت عليهم السلام والرفع من شأن منافسيهم وأعدائهم قد رويت على السنة اولئك الأعداء والمنافسين؟ وإلا فمن كان عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وسمرة بن جندب وأبو هريرة وغيرهم وغيرهم؟ أليسوا من الدائرين في الفلك الأموي والسائرين في ركابه؟.

أين ذهبت آيات الجهاد وتلك التي تدعو للامر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ هل نسخت بآيات اخرى؟ أم بأقوال مزورة وضعت على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله، فكانت نقيضة لكل أقواله وتصرفاته ولكل ما جاء به القرآن الكريم؟

إن دراسة ذلك دراسة واعية متفهمة والإطلاع على الظروف التي برزت فيه أمثال تلك الأحاديث مع مثيلاتها التي تدعو لقبول الخليفة الفاسق وجواز بيعته وصحتها، امر لا بد منه لتنقية الإسلام من الشوائب التي الحقت به، وفهم تاريخ المسلمين والشخصيات المهمة التي برزت على مسرحه فهماً صحيحاً، وتقويم كل الأحداث والوقائع والشخصيات على ضوء الفهم الواعي المستوعب، ثم ا عادة النظر بمواقفنا الحالية وعلاقاتنا وواقعنا.

إن فهم موقع الحسين عليه السلام من الامة، ومن الرسالة ينبغي ان يؤخذ بنظر الاعتبار عند دراسة ثورته الكبيرة.

فهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وخليفته ووصيه والأمين على رسالته وأمته.

هذه هي الحقيقة، وان جرد الامام، كما جرد أمير المؤمنين والحسن عليهما السلام من قبل، من منصب الخلافة، غير أن هذا المنصب الذي خص به من الله على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وكان جديراً به، هل يتخلى عنه لمجرد أن فئة ضالة من الأمة نازعته اياه وإرادته لغيره؟.

هل يتخلى عن المسؤولية لأن الله أراد له أن يتخلى عنها، ام لأن هذه الفئة ارادت ذلك؟

وهل يستجيب لإرادة الكفر والترف والانحراف لمجرد انه لا يحتل النصب القيادي الذي أعد له بشكل فعلي وتام؟.

لعل هناك من يتساءل: هل كان الحسين عليه السلام المسؤول الوحيد الذي كان ينبغي أن يوقف الانحراف؟ والجواب على ذلك، انه كان المسؤول الاول، وليس المسؤول الوحيد.

فإذا لم يقف الحسين عليه السلام وقفته تلك فمن كان سيفعل ذلك؟ ومن الذي كان يستطيع اعادة الأمور إلى نصابها؟ أم أنها كان ينبغي ان تترك كما أراد النفعيون والمنهزمون الذين تحلقوا حول عرش كل فرعون على مر التاريخ وزينوا له أطماعه وهواه؟

إلى اي منطق كنا سنستجب، ونحن نحمل رسالة الإسلام، وندرك أنها ليست مجرد اقرار بالقلب وانما عمل وفعل وارادة؟ إلى منطق موسى أم إلى منطق فرعون؟ إلى منطق محمد صلى الله عليه وآله أم إلى منطق معاوية؟ إلى منطق الحسين عليه السلام أم إلى منطق يزيد؟.

إن هنا وقفة طويلة ينبغي ان يراجع فيها كل منا نفسه وعقله وواقعه، ويستعرض فيها المبادىء العامة لدينه. ولهذا اشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: (الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الاقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل)[1].

فهل يجد أي منا ان هذا الدين قد ولد ليموت؟ وهل يجد أحد أنه يوصي بالاستسلام والهزيمة والخمول والتخاذل امام اعدائه مهما كان مركزهم ومهما كانت حججهم؟

أم أن امر الله واضح لا جدال فيه؟

وسلام على ابي الحسن عندما يقول:

(ولعمري ما علي من قتال من خالف الحق وخابط البغي من إدهان ولا إيهان، فاتقوا الله عباد الله، وفروا إلى الله من الله، وامضوا في الذي نهجه لكم، وقوموا بما عصبه بكم، فعلي ضامن لفلجكم[2] أجلا، ان لم تمنحوه عاجلًا)[3].

---

(١) نهج البلاغة: ٤٩١.

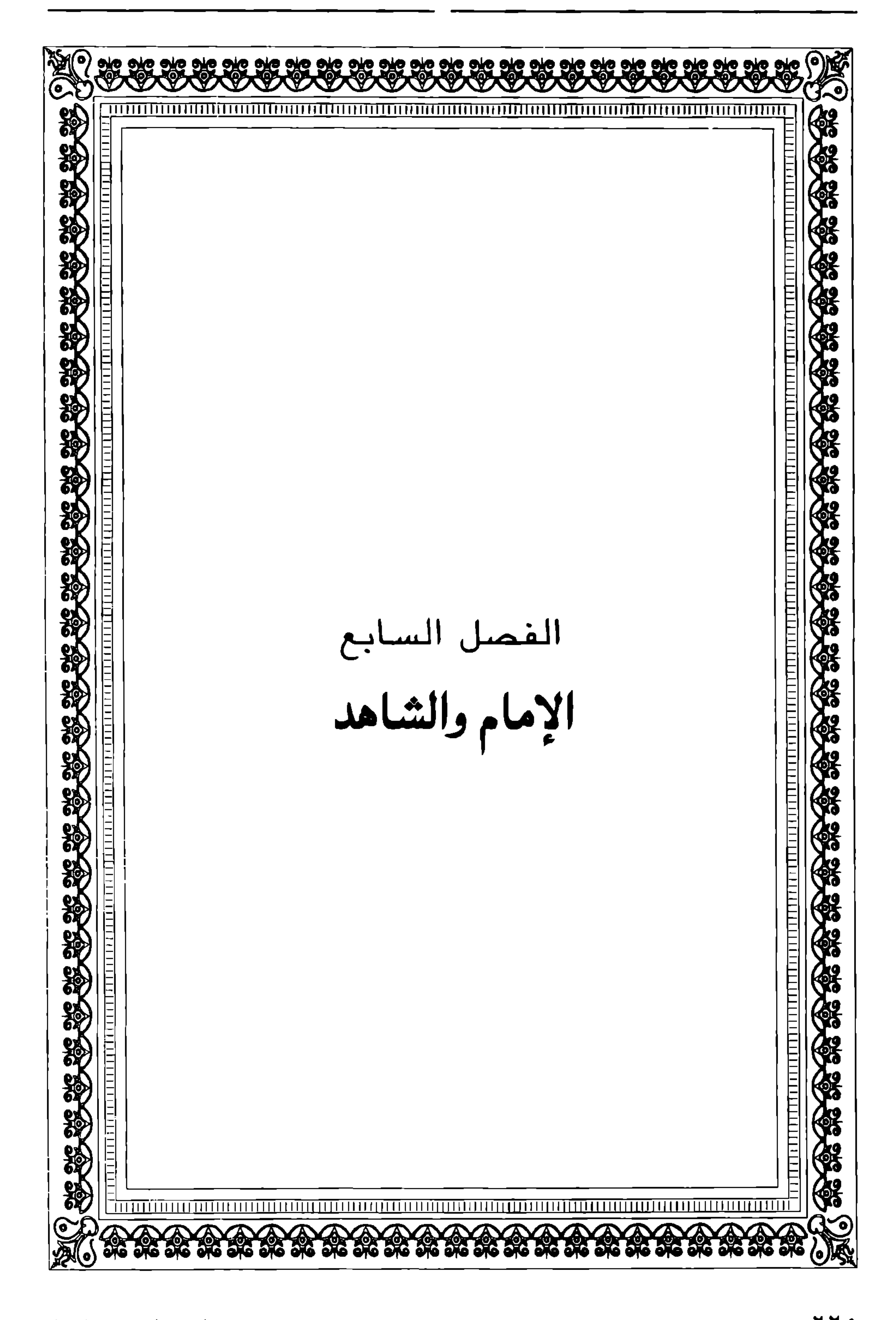
(٢) الفلج، النصر.

(٣) نهج البلاغة: ٦٦.

وعلي ضامن هزيمة كل من يخالف الحق ويخابط الباطل. . ، لأن الله ينصر من ينصره.

ولنتذكر أننا نتحدث بمنطق الإسلام ولغة القرآن.

أما إذا كنا نتكلم بمنطق معاوية ولغة فرعون. . ، فلن نتفق.



الفصل السابع

الإمام والشاهد

الإمام والشاهد

تمهيد

ونعود هنا إلى مسألة مهمة، تحدثنا عنها، وهي مسألة استخلاف الإنسان على الأرض من قبل الله عز وجل، وفق منظور الإسلام، وتحمل الإنسان لمهامها، لا كمنحة شخصية مطلقة، غير مقيدة بشروط، ولكن كأمانة كبيرة منوطة بالإنسانية كلها، لها شروطها والتزاماتها التي تشكل بمجملها أساساً للحكم بين الناس، يقول السيد الشهيد محمد باقر الصدر (قدس):

(. . . وعملية الاستخلاف الرباني للجماعة على الأرض بهذا المفهوم الواسع تعني: أولًا: إنتماء الجماعة البشرية إلى محور واحد، وهو المستخلف، اي الله سبحانه وتعالى، الذي استخلفها على الأرض بدلًا عن كل الانتماءات الأخرى والإيمان بسيد واحد ومالك واحد للكون وكل ما فيه.

ثانيا: إقامة العلاقات الاجتماعية على أساس العبودية الخالصة لله وتحرر الإنسان من عبودية الأسماء التي تمثل ألوان الاستغلال والجهل والطاغوت.

ثالثا: تجسيد روح الاخوة العامة في كل العلاقات الاجتماعية بعد محو ألوان الاستغلال والتسلط.

رابعاً: إنَّ الخلافة استئمان، ولهذا عبر عنها القرآن الكريم بالأمانة والأمانة تفترض المسؤولية والاحساس بالواجب، فهي من ناحية، تعني الارتباط والتقيد يالجماعة البشرية التي تتحمل مسؤولية الخلافة على الأرض. أنها تمارس هذا الدور بوصفها خليفة عن الله، ولهذا فهي غيو مخولة أن تحكم بهواها أو باجتهادها المنفصل عن توجيه الله سبحانه وتعالى، لأن هذا يتنافى مع طبيعة الاستخلاف، وإنما تحكم بالحق، وتؤدي إلى الله تعالى أمانته، بتطبيق أحكامه على عباده وبلاده)[1].

---

(١) الأساس الإسلامي لخطي الخلافة والشهادة/ الشهيد الصدر ص ١٣٥/ ١٣٦/ ١٣٧.

وبهذا المفهوم، ووفق هذه النظرة وحدها، يمكن للخلافة الإسلامية أن تنوب عن الله سبحانه وتعالى في ممارساتها المتعددة، عندما تكون مسؤولة وملزمة بين يديه لتطبيق أحكامه وتشريعاته، لا التصرف وفق الهوى الشخصي أو الفئوي المحدود، وهكذا فان..

(حكم الجماعة القائم على أساس الاستخلاف، فإنه حكم مسؤول، والجماعة فيه ملزمة كتطبيق الحق والعدل، ورفض الظلم والطغيان، وليست مخيرة بين هذا وذاك) [(١)].

وعلى هذا الاساس، فإن الإمام الحسين عليه السلام، قد وضع أمام أهل العراق في رسالته الأولى إليهم، مهمات الخليفة أو الإمام، لكي يروا إلى أي مدى قد ابتعد من تصدى لهذه المهمة الخطيرة، عن مضمونها الحقيقي ومتطلباتها الأساسية.

(فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله)[(٢)].

فبهذه الشروط يكون قد أدى دور الخلافة ومسؤولياتها، اما اذا ما خرج عن ذلك، فانه يكون عند ذاك عبدا لهواه ومصالحه ونزعاته، ولم يعد أي وجود بنظره للدور الإلهي المقوم والموجه.

وقد استمر الإمام في خطبه التالية ولقاءاته مع الجيش الذي أوفد لمحاربته أو اجباره على الاستسلام، ومع أصحابه كذلك، بايضاح مهمات من يتصدى لإمامة المسلمين وقيادتهم. وكان عليه السلام في كل خطبه يؤكد على امر مهم وهو: اصطفاء الله، جل وعلا، لنبيه محمد صلى الله عليه وآله لإمامة البشرية وقيادتها، والقيام بارساء نظام للحكم، يتولى فيه مسؤولية الخلافة على أساس الالتزامات والمواثيق والسنن والتشريعات الإلهية التي أوردها القرآن الكريم، وجسدها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بعد ذلك في سنته المطهرة، لتكون أساساً دائمياً لكل حكم إسلامي لاحق، قائم على ما قام عليه حكمه صلى الله عليه وآله أيام الدولة الإسلامية الأولى، حكم رافض لكل التصورات

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبري ٣/ ٢٧٨، وابن الاثير ٣/ ٣٨٦، ومقتل الخوارزمي ١/ ١٩٥، ومناقب آل أبي طالب ٤/ ٩٨.

والاجتهادات البشرية البعيدة عن حكم الله. ورافض بالضرورة كل نوع من انواع الظلم والاستغلال التي لا بد ان تقترن مع الأشكال البشرية البحتة للحكم.

ولا شك أنَّ أحداً لا يستطيع، مهما بلغت به الوقاحة، أن يعلن تحديه السافر لما حكم به رسول الله صلى الله عليه وآله وأمضاه وأقره، ولا يستطيع ان يلوح بأي لون من الوان الشك تجاه تصرفات رسول الله صلى الله عليه وآله وسنته المطهرة، أو تجاه القرآن الكريم، وإلا كان قد أدان نفسه وحكم عليها بالخروج عن الإسلام، واستفز المسلمين، حتى ابسطهم وعياً ومسؤولية.

فقد شاء الله أن تجتمع الأمة على محمد صلى الله عليه وآله وأن يدعي حتى مبطلوها ومنافقوها تمسكهم به، وان راحوا في غمرة الباطل يروجون ويضعون على لسانه بعد وفاته أحاديث وروايات مزورة، تبرر باطلهم وانحرافاتهم وظلمهم وكل تصرفاتهم المشينة.

الإمام الحسين عليه السلام صورة مطابقة لأصل رسول الله صلى الله عليه وآله

وقد أراد الإمام الحسين عليه السلام ان يضع أمامهم صورة الرسول صلى الله عليه وآله، ليروه كما رآه الأوائل من صحابته، الذين عاشوا معه وتربوا على يديه وتأثروا به، أراد أن يذكرهم به ويوضح ابعاد تلك الشخصية التي احبوها وجعلوها رمزاً ومثلّا أعلى لإيمانهم واخلاصهم لله، لقد عمل عليه السلام على أن يذكر الأمة بأن هذا الذي يدعون التمسك به وبنبوته ويشهدون بذلك، كما يشهدون بألوهية الله جل وعلا إنما هو جده وحبيبه وأقرب الناس اليه، مثلما عمل أمير المؤمنين عليه السلام من قبل على تذكير الأمة بمنزلته الخاصة من الرسول صلى الله عليه وآله وكيف انه ان يعده لتولي مسؤولية إمامة الأمة وخلافتها، كما حاول عليه السلام حث الأمة على التمسك به باعتبار ان منهجه هو الطريق الصحيح الوحيد الكفيل بحفظها كأمة اسلامية، حيث قال:

(.. إن محلي منها (الخلافة) محل القطب من الرحا، ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير..).

(.. بنا اهتديتم في الظلماء، وتسنمتم ذروة العلياء، وبنا أنفجرتم عن السرار).

(والله لأنا أول من صدقه، فلا أكون أول من كذب عليه).

(قد ركزت فيكم راية الإيمان، ووقفتكم على حدود الحلال والحرام).

(والله ما اسمعكم الرسول شيئاً ألا وها أنا ذا مسمعكموه).

(عترته ﷺ خير العتر، واسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر).

(ألا أن مثل آل محمد ﷺ كمثل نجوم السماء، إذا خوى نجم طلع نجم. .).

(نحن شجرة النبوة ومحط الرسالة، ومختلف الملائكة ومعادن العلم وينابيع الحكم، ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمة، وعدونا ومبغضنا ينتظرالسطوة).

(تالله لقد علمت تبليغ الرسالات، واتمام العدات، واتمام الكلمات. وعندنا أهل البيت أبواب الحكم وضياء الأمر).

(إني للمحق الذي يتبع، وان الكتاب معي، ما فارقته مذ صحبته. .).

(أنا شاهد لكم وحجيج يوم القيامة عنكم).

(االلَّهُمَّ إني أول من أناب وسمع وأجاب، لم يسبقني الا رسول الله ﷺ بالصلاة).

(بنا يستعطى الهدى وسيتجلى العمى، ان الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح على سواهم ولا تصلح الولاة من غيرهم).

(فيهم كرائم القرآن، وهم كنوز الرحمن، إن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا.).

(وأنا أخص واقرب، وإنما طلبت حقا لي، وأنتم تحولون بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه).

(وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به. ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة، ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ، فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي ولكنك لوزير وأنك لعلى خير).

(إني لم أرد على الله ولا على رسوله ساعة قط ولقد واسيته بنفسي . . . فوالذي لا إله إلا هو أني لعلى جادة الحق)[١].

ولقد كان سيد الشهداء عليه السلام يعمل على نفس خط جده محمد صلى الله عليه وآله وأبيه علي عليه السلام وهو يبين لأمة جده المصطفى صلى الله عليه وآله مكانته الحقيقية من خلال النصوص الإلهية والنبوية المقدسة الواردة بحقه عليه السلام، ليلقي عليهم الحجة كونه عليه السلام الأجدر بما يحمل من علم موروث عنه صلى الله عليه وآله، ومن أخلاق وعدالة وشعور بالمسؤولية، ومعرفة تامة بأمور الدين، وتربية خاصة في كنف وصي رسول الله صلى الله عليه وآله، أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، لحمل شرف مسؤولية الخلافة وقيادة الأمة وإمامتها ورفع لواء الإسلام إلى كل بقاع الأرض على أساس واضح مبين، هو نهج جده رسول الله صلى الله عليه وآله، لا على أساس سلطة طاغوتية مستبدة جاهلة، ليركز حكم الإسلام ويرسي دعائمه القوية لتظل قائمة إلى الأبد، لا لكي تتحطم أو تزول عند أقل حدث أو طارىء أو زلزال، وأراد أن يذكرهم بعهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أمته، التمسك بكتاب الله وأهل بيته، حتى لا تميل هذه الأمة أو تنحرف مع الأهواء والأطماع والسياسات الفرعونية أو القيصرية أو الكسروية التي قد تحاول لبس رداء الإسلام واتخاذه غطاء جديداً، فتعمل على تعزيز مصالحها وتشويه الإسلام في وقت واحد، ويضعهم امام مسؤولياتهم الكبيرة لتقويم الانحراف الذي وجدوا أنفسهم ينساقون إليه بفعل منظم، ويشاركون به ويساهمون في خلقه ويكونون أداة له، قال الإمام الحسين عليه السلام:

(إنَّ الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وآله على خلقه وأكرمه بنبوته واختاره لرسالته ثم قبضه الله إليه، وقد نصح لعباده وبلغ ما أرسل به صلى الله عليه وآله وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته واحق الناس بمقامه في الناس)[٢].

(أيها الناس انسبوني من انا، ثم ارجعوا إلى انفسكم وعاتبوها وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم، وابن وصيه وابن عمه، وأول

---

(١) نهج البلاغة: ٤٨/ ٥١/ ٨١/ ١٢٠/ ١٢٢/ ٣٩ ١/ ١٤٦/ ١٦٢/ ١٦٣/ ١٧٦/ ١٧٩/ ٢٥٣/ ١٨٩/ ٢٠١/ ٢١٥/ ١٤٦/ ٣٠١/ ٣٠٣/ ٣١١/ ٣١٢، (تسلسل الأرقام يتبع تسلسل النصوص).

(٢) الطبري ٦/ ٣٠٠ وابن كثير ٨/ ١٥٩.

المؤمنين بالله والمصدق لرسوله ثم جاء من عند ربه أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟

أوليس جعفر الطيار عمي؟

أولم يبلغكم قول رسول الله صلى الله عليه وآله [(١)] لي ولأخي هذان سيدا شباب أهل الجنة؟.

فإن صدقتموني بما أقول وهو الحق، والله ما تعمدت الكذب منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله ويضر به من اختلقه. وإن كذبتموني، فإن فيكم من ان سألتموه ذلك أخبركم. سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي: أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟)[(٢)].

(انا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي، بنا فتح الله وبنا يختم..)[(٣)].

وقال عليه السلام: (اللَّهُمَّ، ان هذا قبر نبيك محمد صلى الله عليه وآله، وأنا ابن بنت نبيك، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت.

االلَّهُمَّ إني أحب المعروف وأنكر المنكر، وأسألك ياذا الجلال والاكرام، بحق القبر ومن فيه إلا اخترت لي ما هو لك رضا ولرسولك رضا)[(٤)].

(رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين.

لن تشذ عن رسول الله لحمته، بل هي مجموعة في حظيره القدس، تقربهم عينه، وينجز بهم وعده)[(٥)].

---

(١) (أولم يبلغكم قول مستفيض فيكم ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي ولأخي...، الطبري ٦/ ٢٤٢، وابن الاثير ٣/ ٤١٥.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٣١٥، ومقتل الخوارزمي ١/ ٢٥٣، والطبري ٦/ ٢٤٢، وابن الاثير ٣/ ٤١٥.

(٣) الطبري ٦/ ٢١٦، وابن الاثير ٣/ ٣٦٢.

(٤) مقتل الخوارزمي ١/ ١٨٦.

(٥) اللهوف في قتلى الطفوف ص ٥٣.

وقال عليه السلام :

(من عندنا مستقى العلم، أفعلموا وجهلنا؟ هذا مما لا يكون)[1].

وقال عليه السلام :

(أما بعد، أيها الناس، فإنكم إن تتقوا الله، وتعرفوا الحق لاله، يكن أرضى لله، ونحن أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله، أولى بولاية هذا الأمر، من هؤلاء المدعين ما ليس لهم، والسائرين بالجور والعدوان[2].

وقال عليه السلام :

(االلَّهُمَّ إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا اسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين)[3].

وقال عليه السلام :

(فنعم الرب ربنا وبئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة، وأمنتم بالرسول محمد صلى الله عليه وآله، ثم أنكم زحفتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم)[4].

وقال عليه السلام :

(نحن حزب الله الغالبون، وعترة رسوله الأقربون، وأهل بيته الطيبون، واحد الثقلين، الذين جعلنا رسول الله صلى الله عليه وآله ثاني كتاب الله تبارك وتعالى، الذي فيه تفصيل كل شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والعول علينا في تفسيره، لا يبطينا تأويله، وبل نتبع حقائقه، فأطيعونا، فإن طاعتنا مفروضة، إن كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة.

قال الله عز وجل ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[5]، وقال: «لو ردوه إلى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين

---

(١) بصائر الدرجات ص ١١، أصول الكافي ٢/ ٢٥٠.

(٢) الارشاد للمفيد ٢/ ٨٢، وأنساب الأشراف ٣/ ١٧١، والطبري ٦/ ٢٢٨، وابن الاثير ٣/ ٤٠٨.

(٣) الارشاد للمفيد ٢/ ٩٣، والطبري ٢/ ٢٣٨، وابن الاثير ٣/ ٤١٥.

(٤) تاريخ ابن عساكر ٢١٥، ومقتل الخوارزمي ١/ ٢٥٣.

(٥) النساء ٥٩ - ٨٣.

يستنبطونه منهم، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلًا»[1] . . .)[2].

وقال عليه السلام:

(فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، نفسي مع نفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم في اسوة)[3].

أراهم من هو، ولم يكونوا يجهلون من هو على أي حال. واراهم الوضع الذي كان ينبغي أن يكون له فيهم، فهو ابن الرسول صلى الله عليه وآله ومن أهله وأوليائه أوصيائه وورثته واحق الناس بمقامه في الناس، وقد كان مقامه صلى الله عليه وآله زعيماً إماماً لهذه الأمة، وهؤلاء الأولياء والأوصياء والورثة أحق الناس بزعامة وإمامة هذه الأمة من بعده.

ولم يكن عبثاً أن الله اختار محمداً صلى الله عليه وآله لنبوته وحمل رسالته، وكلفه اعداد أوصياء من أهله خاصة، يكملون مهمته في تربية الأمة ووضعها على طريق الإسلام واستقامته، علمهم الله القرآن، وفقههم في الدين، وجعل لهم سماعاً وأبصاراً وأفئدة، يتلقون علم رسول الله صلى الله عليه وآله كما علمه الله إياه، واضحاً غير مبهم وغير مشوش ولا مزوَّر أو مشوه، لا يحيط به غبش الشبهات والتصورات البشرية البحتة البعيدة عن دين الله وحكمه وشريعته.

الإمام الحسين عليه السلام يذكر الأمة بموقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ويخطأ موقفهم ضده

أنه عليه السلام، إذ يذكرهم بموقعه الحقيقي من الرسول صلى الله عليه وآله ومن الإسلام، وانه ابن الرسول صلى الله عليه وآله وابن وصيه عليه السلام، فهو يدرك أنهم يعلمون ذلك حق العلم، ومع ذلك فانهم يقفون منه موقف من يريد قتله واستئصاله، لا لشيء، الا لتلبية أوامر ورغبات وهوى فرعون.

لم يكشف لهم شيئاً جديداً لم يكونوايعرفوه من قبل، بل كانوا يعلمون من هو، حق العلم، وكانوا يعلمون أنهم قد أخطأوا وأنهم قد تنازلوا أمام يزيد عن كل مقومات

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ٢٢.

(٣) الطبري ٦/ ٢٢٩، وابن الاثير ٣/ ٤٠٩، وقال لهم: (افتشكون اثراً ما أني ابن بنت نبيكم؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم) الطبري ٣/ ٣١٩.

وجودهم وحياتهم، واستسلموا له استسلاماً تاماً غير مقيد بشرط، حيث إن قائد يزيد الذي أرسله لاباحة المدينة بعد ثورتها عليه وهو مسلم بن عقبة المري قد اظهر نوايا الحكم الاموي بشكل فاضح عندما دخل المدينة.

(فدعا الناس للبيعة على أنهم خول ليزيد بن معاوية، يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء)(١).

فهم كانوا يعرفون مصيرهم تحت قيادة يزيد، مثلما يعرفون الواقع المشرف الذي سيقودهم اليه الحسين عليه السلام، ولهذا فقد دعوه إلى نصرتهم وقيادتهم والأخذ بإيديهم إلى ما كان جده وأبوه يفعلانه من قبل، وهم قد عرفوا من هو جده صلى الله عليه وآله وسلم ومن هو أبوه عليه السلام وقد حاربوا تحت لوائه، وعاشوا معه وشاهدوا العديد من مظاهر استقامته وعدالته وغيرته على الإسلام.

لقد دعوه في عهد معاوية، ثم بعد هلاكه، وكانت تلك الدعوة محاولة لصحوة مرتقبة، بعد ان خذلوا أباه أمير المؤمنين وأخاه الحسن عليهما السلام، وقد فشلت هذه المحاولة في النهاية عندما اقدموا على حصاره في كربلاء، ودعوه للاستسلام، كما استسلموا هم، ليزيد، والتخلي نهائياً عن مسؤولياته في قيادة الأمة وايقاف الانحراف الذي جرتها إليه القيادة الأموية المعادية للإسلام.

ولم ينس الإمام الحسين عليه السلام امام غمرة شعوره باستسلامهم وتنازلهم. المهين أمام يزيد، وأمام رموز الدولة الأموية وأعوانها، أن يذكرهم بموقفهم هذا وبوضعهم المزري وضعفهم وتخاذلهم، بعد أن أبدوا استعداداً طيباً للتخلي عن موقف الاستسلام والهزيمة، عندما رفضوا معاوية اولًا، ثم يزيد بعد ذلك وكتبوا إليه يلحون على قدومه لكي يقودهم ويأخذ بأيديهم إلى حيث اخذ بها ابوه عليه السلام وجده صلى الله عليه وآله وسلم من قبل.

(فنادى يا شبث بن ربعي وحجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث [هؤلاء من وجوه القادة الذين قدمو مع جيش ابن زياد لقتاله، ولعلهم كتبوا اليه راكبين الموجة، وربما توقعوا ان ينتصر الحسين عليه السلام عسكرياً ليحصلوا على بعض المكاسب اذا ما التحقوا به، وبيتوا انكار رسائلهم اذا ما تعرضوا لخطر محتمل،

---

(١) الطبري ٣/ ٣٥٩.

عندما لن تحقق الدولة مع كل من كتب اليه وتراجع في غمرة فرحها (بالنصر) وحسبها المواقف الاخيرة من هؤلاء المهزومين.]

ألم تكتبوا إلي أن قد أينعت الثمار واخضر الجناب وطمت الحمام، وإنما تقدم على جند لك مجند، فأقبل؟ قالوا له: لم نفعل.

فقال: سبحان الله، بلى والله، لقد فعلتم.

فقال له قيس بن الأشعث: أولًا تنزل على حكم بني عمك، فإنهم لن يروك إلا ما تحب ولن يصل اليك منهم مكروه)[1].

لم يكن أمامهم إلا الكذب والانكار في غمرة خضوعهم واستسلامهم وتنازلهم أمام السلطة الغاشمة التي جندتهم لتنفيذ غاياتها، ولم يجدوا في أنفسهم القوة على الاستمرار على موقفهم ... وقفوه منذ البداية (وربما كان لذلك دوافعه كما قلنا)، كما فعل [أصحاب الحسين عليه السلام] وذووه الذين جاءوا معه وقتلوا بين يديه، لم يكونوا يمتلكون مقومات أو عناصر هذه القوة، اذ لا يزال سلطان فرعون يلوح أمامهم، ويرونه أقوى من سلطان الله، فهو لا يزال يخيفهم ويبهرهم بنفوذه وماله وجاهه ويأملون منه ما لم يأملوا من الله.

وكان الإمام عليه السلام قد وجه عدة تحذيرات شديدة اللهجة، إلى أبناء الجيش الذي جرد لحربه وكان من المتوقع أن يكونوا معه، وبذلك فانه ألقى الحجة عليهم، إذ أن المجال كان مفسوحاً لهم حتى آخر لحظة للانضمام اليه، لكنهم فعلوا العكس وتغلبت عليهم المخاوف ولعب بهم الطمع.

(فلا تغرنكم هذه الدنيا، فإنها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخيب طمع من طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمر، قد أسخطتم الله فيه عليكم، واعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحل بكم نقمته، لقد استحوذ عليكم الشيطان، فأنساكم ذكر الله العظيم، فتباً لكم ولما تريدون، إنا لله وإنا إليه راجعون. هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم، فبعداً للقوم الظالمين)[2].

(١) الطبري ٦/٢٤٣، وابن الأثير ٤١٩.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٢١٥، ومقتل الخوارزمي: ١/٢٥٣.

لقد كانوا يدركون انهم مخطئون، وأنهم بتخليهم عن الحسين عليه السلام يوقعون وثيقة انكار ما فعلوه ومواجهته بذلك أي بتكذيبه هو عليه السلام، مع علمهم ان الآخرين من افراد هذا الجيش المستنفر لقتاله، يعلمون بكتبهم التي أرسلوها ووقعوها معهم، بذلك فانهم شهدوا على أنفسهم بالكذب، ولم يخجلوا من ذلك أمام خوفهم وحرصهم على حياتهم، وتغافلوا عن ابتسامات الهزء والسخرية التي ربما تكون قد ارتسمت على شفاه من يعلم ذلك، غير أن وصمة الكذب كانت صغيرة امام وصمة التخاذل والجبن والتراجع والانقياد لعدوهم الذي يعلمون انه عدوهم بالفعل، وانه لم يرد الا تسخيرهم وجعلهم أدوات لتنفيذ مآربه ومصالحه، والتي يعلمون انها لا يمكن ان تكون مصالح الإسلام أو المجتمع الإسلامي بأي حال من الاحوال.

عن سعد بن عبيدة قال:

(إن أشياخاً من أهل الكوفة لوقوف على التل يبكون ويقولون: االلَّهُمَّ انزل نصرك. قال: قلت: يا أعداء الله الا تنزلون فتنصرونه)(١).

لقد كانوا يتمنون أن ينتصر الحسين عليه السلام، ولكن ليس بهم، وإنما بقوة إلهية منزلة، وكانوا يتمنون ان يكون هذا النصر جاهزاً أمامهم، ليتمتعوا بثماره فيما بعد، أما ان يساهموا فيه، فذلك ما لم يجدوا في انفسهم القدرة عليه، فسيوفهم ليست لهم لكي يعطوها للحسين عليه السلام، وإنما هي مرهونة بارادة القوة الغاشمة التي تسلطت عليهم واخافتهم واذلتهم، فهم لا يملكون إلا أن يكونوا معه بقلوبهم وعواطفهم فقط، ما دامت هذه القلوب غير معرضة لأن تكشف أسرارها تلك القوة الغاشمة المتسلطة.

هكذا بدا أهل العراق للحسين عليه السلام، وهو قد عرفهم وخبرهم من قبل، غير أنه لم يتخل عن سعيه لاستنهاضهم وحثهم على القيام من جديد، ما داموا قد اعربوا هم عن رغبتهم في ان يقودهم.

وقد عرفوا هم أنفسهم كذلك، وعرفهم الآخرون.

وقد شخص الفرزدق الشاعر حالهم بدقة عندما قال للامام عليه السلام:

(قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية)(٢).

---

(١) الطبري ٦/ ٢٢٢.

(٢) ابن كثير ٨/ ١٦٩، والطبري ٦/ ٢١٨، والعقد الفريد ١٢٦/٥.

كما شخصها مجمع بن عبد الله العامري بقوله للإمام عليه السلام أيضاً:

(أما اشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائزهم، فهم إلب واحد عليك، وأما سائر الناس بعدهم، فإن قلوبهم تهوى إليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك)[1].

كان الإمام يريدهم أن يستقروا على موقف ثابت في النهاية، أما متى يحدث ذلك؟ فلربما لن يكون في وقته هو أو معه عليه السلام، وربما كان بعد أشهر أو سنوات أو عشرات أو مئات من السنين.

كان لا بد للإسلام، خاتم الرسالات أن ينتشر وأن يغلب وأن يسود، وأن يظل له نفس الوضوح والقوة في نفوس ابناء الأمة، واذا ما تردد الناس اليوم، فإنهم لا بد في النهاية سيستقرون على رأي موحد وموقف ثابت، ولا بد من هذا الموقف الثابت على طريق مسيرتها لتكون علامات ومحطات للسائرين عبر الزمن.

ولا بد أن تكون ثورته لازاحة النظام وتضحيته بنفسه إحدى هذه المواقف الثابتة والعلامات الفارقة المضيئة، ولا بد ان تكون موضع تأمل ودراسة وتفكر لمن سيأتي بعدهم من الأجيال اللاحقة، التي ربما ستمتلك من الوعي والمعرفة والقوة وبما ستواجه من تحديات حقيقية مصيرية من قوى الشر والانحراف، ما يجعلها تفكر بشكل جدي بالرجوع نهائياً إلى خط الإسلام الصحيح، وعدم النكوص أو التراجع مهما بلغت الصعوبات والتضحيات.

الخلافة الربانية في مفهوم الإسلام

إنَّ الخلافة الربانية، كما أوضحها الإسلام، تتيح للإنسان استثمار طاقاته وابداعاته وكل موارد الطبيعة لتحقيق الكرامة الانسانية والتكافل الاجتماعي والشعور بالحرية والأمن وتحقيق العدالة، وتوظيف كل ذلك بما يضمن تحقيق هذه الاهداف، وفق نظرة شاملة متكاملة هي نظرة الإسلام، لا نظرات نابعة عن هوى شخصي أو مصلحة شخصية أو ظرف خاص.

---

(١) ابن الأثير ٣/ ٤٠٩، وقد روى الطبري ٣/ ٣٠٨، أنه قال: (... أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائرهم، يستمال ودهم ويستخلص به نصيحتهم..) إلى آخر القول الذي رواه ابن الاثير.

فهي عقد مشروط لا يجوز الخروج عن بنوده بأي حال من الأحوال، وليست كما صورها معاوية وأمثال معاوية عندما واجه الناس صراحة بقوله:

(الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي وما تركت منه كان جائزاً لي)[1].

فكأن معاوية يتصور هنا ان أرض الله وماله قد وهبا له شخصياً، ما دام قد أصبح (خليفة) بقوة ذراعه وسيفه و (دهائه) وانه غير مقيد أو ملزم حتى أمام الله بتقديم أي حساب، فكل شيء له وتحت حكمه وتصرفه المطلق.

إن هذه الأطروحة تنفي الإسلام من الأساس، ولا تجعل أي مبرر لوجوده ما دام الخليفة قد أخذ على عاتقه مهمة سن التشريعات والقوانين الكفيلة بتصريف شؤون الحياة، واضعاً بذلك نفسه بديلًا عن الله سبحانه، الذي لم يرد ذلك وأنزل قوانينه الخاصة واحكامه بكل شأن مهما بدا صغيراً، أو قليل الاهمية بنظر البعض.

ولم يكن معاوية بالذي يجهل ذلك عندما يواجه الأمة هذه المواجهة وما كانت الأطروحات الإسلامية الصحيحة لتغيب عن ذكائه، غير أن شيئاً وحيداً كان يمثل أمامه على الدوام، وهو مصالحه وتقوية دولته وتعزيز نفوذه، وهكذا عمل على تحريف وتزوير واستبدال بعض المفاهيم الأساسية، بمفاهيم أخرى من شأنها تحقيق أغراضه، وقد رأينا مواجهته لاهل العراق بقوله الصريح انه لم يكن يقاتلهم لكي يصلوا أو يصوموا أو يحجوا أو يزكوا، فقد علم انهم يفعلون ذلك، ولكنه قاتلهم لكي يتأمر عليهم.

وإذا ما حاول البعض تبرير هذه المقولة بقوله أنها نوع من الاعلام الحربي لكسر شوكة العدو وتحطيم أنفاسه، فإننا نقول لهم: ان الحرب قد انتهت بينه وبينهم، وخضع الجميع له، ولم يكن جديراً به ان يصرح بما صرح به متحدياً بذلك، ليس أهل الكوفة وحسب، بل الله سبحانه وكتابه وأحكامه.

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٥٣، وتطهير الجنان واللسان/ أحمد بن حجر الهيثمي ص ٢٦، وقد روى انه قال: إنما المال مالنا والفيء فيئنا فمن شئنا منعناه) وأورد الهيثمي أن معاوية ردد ذلك في ثلاثة أيام متتالية من أيام الجمع إمام جمع من المسلمين وذلك في خطبة الجمعة، وابن الهيثمي من الموالين لمعاوية وألف كتابه هذا في معرض الدفاع عنه.

انه اذ يقول ذلك، فإنه يعلم أكثر من غيره ان قوله ابعد ما يكون عن الصحة، وابعد ما يكون انطباقا مع الاطروحات الاسلامية الصحيحة.

غير انه وصل بانحرافه واستهتاره وتحديه وعبثه وشعوره بالقوة على اذلال الأمة واخضاعها حداً لم يجد فيه حرجاً أو خشية من اعلان ذلك صراحة وعلى رؤوس الأشهاد، وانه مخول بالتصرف كيف يشاء وانه غير محاسب أو مسؤول عن اي عقد أو التزام تجاه من استخلف عليهم هذا اذا صح استخلافه، وان تصرفه مبرر مسبقاً أمام الله ما دام هو يرى ذلك، وما دام الله بزعمه قد اعطاه كل شيء واجاز له ترك ما يريد تركه، ولا ندري هل أن الله سبحانه وتعالى، أشركه في ملكه حتى يتيح له ذلك؟ ولا ندري أيضاً، كيف انحدرت تصورات الذين تبنوا هذا اللغو وتلقفوه من فم معاوية الذي كان يعبث دون شك، ويسخر حتى من أولئك الذين يبذلون جهودهم ويلهثون لاضفاء الشرعية على تصرفاته وعلى نظام الحكم الذي يقوده، ويحاولون تزيين هذه التصرفات بزينة براقة من الأحاديث المزورة الموضوعة والاقاصيص و (الاجتهادات) الذاتية البحتة، غير القائمة على أصول الإسلام واحكامه وتوجهاته.

ومن العجيب ان بعض من يدعون تبنيهم حرية الفكر وسلامة البحث والنظر وموضوعية الحديث والحوار، يجرون لاهثين لتبرير هذه النظرية الأموية واشباهها، التي أطلقها معاوية، ربما ليلهو ويعبث وهو يرى اهتمام معاصريه من امثال هؤلاء باطروحاته ودنانيره على السواء، والذين يقومون دائما بتبرير وتزيين اعمال السلاطين على مر الأزمان، وكأنها هي الشيء الصحيح الوحيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

واذا ما كان لمعاصريه عذرهم بزعمهم في ذلك والسكوت عن تلك الانتهاكات، بل والضلوع فيها، فما عذر من لا يتعرض لنفس ما تعرضوا له من ظروف.

(إن الخلافة الربانية للجماعة البشرية، تقضي بطبيعتها على كل العوائق المصطنعة والقيود التي تجمد الطاقات البشرية وتهدر امكانات الإنسان، وبهذا تصبح فرص النموِّ متوفرة توفراً حقيقياً، والنموِّ الحقيقي في مفهوم الإنسان ان يحقق الإنسان الخليفة على الأرض في ذاته تلك القيم التي يؤمن توحيدها جميعاً في الله عز وجل الذي استخلفه واسترعاه الكون، فصفات الله تعالى واخلاقه من العدل والعلم والقدرة والرحمة بالمستضعفين، والانتقام من الجبارين والجود الذي لا حد له، هي مؤشرات للسلوك في مجتمع الخلافة وأهداف للإنسان الخليفة.

وكلما استطاع الانسان من خلال حركته ان يتصاعد في تحقيق تلك المثل، ويجسد في حياته بصورة أكبر فأكبر عدالة الله وعلمه وقدرته ورحمته ووجوده ورفضه للظلم والجبروت، سجل بذلك انتصاراً في مقاييس الخلافة الربانية، واقترب نحو الله في مسيرته الطويلة التي لا تنتهي إلا بانتهاء شوط الخلافة على الأرض.

ولم يكن من الصدفة أن يوضع العدل أصلًا ثانياً من أصول الدين ويميز عن سائر صفات الله تعالى بذلك، وذلك لأن العدل في المسيرة، وقيامها على أساس القسط هو الشرط الأساسي لنمو كل القوى الخيرة الأخرى، وبدون العدل والقسط يفقد المجتمع المناخ الضروري لتحرك تلك القيم وبروز الامكانات الخيرة)[١].

الحسين عليه السلام يستعرض مواصفات الخليفة

وبهذه الرؤية النافذة البسيطة، استعرض الإمام الحسين عليه السلام الصفات التي ينبغي توفرها فيمن استخلف على مصائر الناس وحياتهم وأمواله.

(فلعمري ما الإمام العامل بكتاب الله والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله)[٢].

فالخليفة هنا، يؤدي دوره على أساس من الفهم الواعي المسؤول لكتاب الله وما يرد فيه من مناهج كاملة للحياة والسلوك، كما أن العدل الذي وضع اصلًا ثانياً من أصول الدين، واعتماد منهج الحق الذي يراه في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله لا بد منهما لضمان سلامة المسيرة البشرية على الأرض وعدم انحرافها أو تعثرها.

ولا شك ان الارتفاع إلى هذا المستوى الذي يحقق فيه الانسان منهج الله وعدالته وشريعته يتطلب إضافة لما ذكر التمتع بأعلى قدر من الشعور بالمسؤولية، مسؤولية الأمانة التي حملها، والاقتراب من الله بحيث لا يرى سواه ولا يلتفت إلى غيره، ما دام متيقناً من صحة المنهج الذي يسير عليه، فالامام هنا أو الخليفة، هو الحابس نفسه على ذات الله، كما ذكر الامام الحسين عليه السلام لا يفارقه ولا ينساه ولا يأخذ عن غيره.

---

(١) الأساس الإسلامي لخطي الخلافة والشهادة/ الشهيد الصدر ١٤١/ ١٤٢.

(٢) الطبري ٣/ ٣٧٨، وابن الاثير ٣/ ٢٦٧، ومقتل الخوارزمي ١/ ١٩٥، ومناقب آل أبي طالب ٤/ ٨٩.

لقد كان الأنبياء هم حملة الأمانة، وخلفاء الله على هذه الأرض، وكان خاتمهم محمد ﷺ الذي حمل أمانة الرسالة، وأوصلها وأداها إلى الناس كافة، ووضع التفاصيل والمفردات، لتعيش هذه الرسالة فعلًا يومياً حياً ومتحركاً، ولا تظل أمراً مهملًا على هامش الحياة بمجرد أن يختفي هو ﷺ من مسرحها ويغيب عنها وافداً إلى ربه العزيز.

كان لا بدَّ من خلفاء مؤهلين يتمكنون من حمل هذه الأمانة الثقيلة، وكان لا بد من اعدادهم بشكل خاص من بيت الرسول ﷺ وعلى يديه، وقد رأينا كيف أنه ربى واعد لهذه المهمة وصيه أمير المؤمنين عليه السلام، وكيف أعده منذ أن كان طفلًا وكيف بنى تصوراته ومهد له وأعد الأمة بعد ذلك لكي تسير خلفه، فتضمن بذلك الشيء الوحيد الذي يحقق لها العدالة ويضمن لها الأمان والحرية، ويجنبها التخبط والانحراف الذي من شأنه أن يعيدها إلى جاهليتها القديمة أو إلى جاهليات مستحدثة، تستخدم الاسلام بعد تزوير أحكامه وتشريعاته ومبادئه.

(ويلاحظ في تاريخ العمل الرباني على الأرض، أن الوصاية كانت تعطى غالباً لأشخاص يرتبطون بالرسول القائد ارتباطاً نسبياً أو لذريته وأبنائه، وهذه الظاهرة لم تتفق فقط في أوصياء النبي محمد ﷺ، بل اتفقت في أوصياء عدد كبير من الرسل. قال الله سبحانه وتعالى: [﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾][1]. [﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾][2]. فاختيار الوصي كان يتم عادة من بين الأفراد الذين انحدروا من صاحب الرسالة ولم يروا النور إلا في كنفه وفي إطار بيته. ليس هذا من أجل القرابة بوصفها علاقة مادية تشكل أساساً للتوارث، بل من أجل القرابة بوصفها تشكل عادة الاطار السليم لتربية الوصي واعداده للقيام بدوره الرباني. وأما إذا لم تحقق القرابة هذا الإطار، فلا أثر لها في حساب السماء[3]. قال الله تعالى: [﴿وَإِذِ

---

(١) الحديد: ٢٦.

(٢) الانعام: ٨٤.

(٣) وإلى هذا أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: (إن أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاءوا به، ثم تلا: : إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا : الآية، ثم قال: إن ولي محمد من أطاع الله وإن بعدت لحمته، وإن عدو محمد من عصى الله وإن قربت قرابته) نهج البلاغة ٤٨٤.

ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾][1].

الفرق بين المعصومين من الشهداء وبين غيرهم

وهناك فارق أساسي بين النبيين والربانيين من الشهداء وبين الأحبار منهم، وهو أن النبي والرباني الإمام يجب أن يكون معصوماً، أي مجسداً للرسالة بقيمها وأحكامها في كل سلوكه وأفكاره ومشاعره، وغير ممارس لا بعمد ولا بجهالة أو خطأ أي ممارسة جاهلية، ولا بد أن تكون هذه النظافة المطلقة متوفرة، حتى قبل تسلمه للنبوة والإمامة، لأن النبوة والإمامة عهد رباني إلى الشخص، وقد قال الله تعالى: [﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾][2].

فكل ممارسة جاهلية أو اشتراك ضمني في ألوان الظلم والاستغلال والانحراف تجعل الفرد غير جدير بالعهد الإلهي)[3].

وقد أكد الإمام الحسين عليه السلام في خطبه وخطاباته لأهل العراق، ولمن استنفرهم يزيد لقتاله وحربه، صلته الوثيقة بالنبي صلى الله عليه وآله وأنه منه، وإن انتماءه إليه، ليس انتماء القرابة المجردة، بل انتماء الإسلام، وانتماء الرؤية وانتماء التصور وانتماء العقيدة قال الحسين عليه السلام:

(وكنا أهله وأولياءه: وأوصياءه: وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس).

(ونحن أهل البيت أولى لولاية هذا الأمر عليكم).

(اللهم إني أحمدك على إن أكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ولم تجعلنا من المشركين).

(أما بعد، فانسبوني، ثم انظروا من أنا، ألست ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وآله وابن وصيه، وابن عمه، وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله ثم جاء به من عند ربه)[4].

---

(١) و(٢) البقرة: ١٢٤.

(٣) خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، الشهيد الصدر، دار التعارف ط ٢، ٢٦/ ٢٧/ ٤٦/ ٤٧.

(٤) تراجع المصادر السابقة التي ذكرها في هذا الفصل، ومن المعلوم ان معاوية حاول ان يستغل عنصر (القرابة) من رسول الله صلى الله عليه وآله في محاولة لرفع رصيده لدى الأمة، فبالاضافة إلى ما أوعز بوضعه من احاديث تشير إلى ذلك، فان اشارات عديدة ترد في كلامه وخطبه يحاول التأكيد من خلالها على ذلك، مما تطرقنا إلى بعضها في هذا الكتاب، وهي خطة ماهرة تستدعي التأمل والتفكير.

انه عليه السلام لم يذكرهم هنا بالقرابة المجردة، (مع ان معاوية ويزيد وحتى زياد قد ادعوا هذه القرابة)، بل ذكرهم بما جعل الله له من تلك القرابة، وبما أتاحته له من فرص الاتصال المستمر برسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه أمير المؤمنين عليه السلام، وما اتاحته له ليتربى وفق منهجهما وتصورهما وتفكيرهما، وذكرهم بالحكمة الإلهية التي حاولت أن تجعل من أناس منتخبين من سلالات الأنبياء وسيلة لاكمال شوط رسالات هؤلاء الأنبياء وحفظها من الضياع والاندثار، ودعاهم لتأمله والنظر في أمره ليروا: هل أنه كان يحمل مواصفات الأناس المنتخبين لحمل هذه الرسالة بنفس الكفاءة والشعور بالمسؤولية الذي تمتعوا به؟ مع إن هذا أمر قد اعترفوا به، كما اعترف بذلك حتى أعداؤه الألداء، ولم يأخذوا عليه أو على والده أو اخيه قصوراً في علم أو عدل واستقامة على الإسلام ومنهجه، وانما كان جل ما استطاعوا قوله انهم صوروا مسألة الخلافة على انها مسألة سياسية بحتة، وانها نزاع شخصي، ولم يهتموا بالشروط التي وضعها القرآن ورسول الله صلى الله عليه وآله لخلفائه من بعده، واستثمروا (الاجتهادات) السابقة التي أبعدت الخليفة الشرعي والوصي الحقيقي عن مركزه، ليجعلوا ذلك وسيلة للوصول اليها ونيلها، لكي يصلوا إلى مكسب أو مغنم شخصي في زعامة أو ملك، وليعيدوا سنن الغابرين من الفراعنة والقياصرة والأكاسرة، ويحكموا وفق سياساتهم و (دهائهم) واصول حكمهم التي لا تراعي الا مصلحة الحاكم ورغباته وهواه.

الشهداء ثلاثة أصناف: الأنبياء والأئمة والمرجعية الرشيدة

(واذا ترك الإنسان ليمارس دوره في الخلافة بدون توجيه وهدي، كان خلقه عبثاً، ومجرد تكريس للنزوات والشهوات وألوان الاستغلال.

وما لم يحصل تدخل رباني لهداية الإنسان الخليفة في مسيره، فإنه سوف يخسر كل الأهداف الكبيرة التي رسمت له في بداية الطريق.

وهذا التدخل الرباني هو خط الشهادة. وقد صنف القرآن الكريم الشهداء إلى ثلاثة أصناف فقال: [﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾].

والأصناف الثلاثة على ضوء هذه الآية هم النبيون والربانيون والأحبار، والأحبار هم علماء الشريعة والربانيون درجة وسطى بين النبي والعالم وهي درجة الإمام.

ومن هنا أمكن القول بأن خط الشهادة يتمثل:

أولاً: في الأنبياء.

ثانياً: في الأئمة الذين يعتبرون امتداداً ربانياً للنبي في هذا الخط.

ثالثاً: في المرجعية التي تعتبر امتداداً رشيداً للنبي والإمام في خط الشهادة.
والشهادة على العموم يتمثل دورها المشترك بين الأصناف الثلاثة من الشهداء فيما يلي:

اولاً: استيعاب الرسالة السماوية والحفاظ عليها.

(بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء).

ثانياً: الاشراف على ممارسة الإنسان لدوره في الخلافة ومسؤولية اعطاء التوجيه بالقدر الذي يتصل بالرسالة وأحكامها ومفاهيمها.

ثالثاً: التدخل لمقاومة الانحراف واتخاذ كل التدابير الممكنة من أجل سلامة المسيرة.

فالشهيد مرجع فكري وتشريعي من الناحية ايديولوجياً ويشرف على سير الجماعة وانسجامه أيدولوجياً مع الرسالة الربانية التي يحملها (مسؤول عن التدخل لتعديل المسيرة أو اعادتها إلى طريقها الصحيح إذا واجه انحرافاً في مجال التطبيق)[١].

تداخل دور الشهادة مع دور النبوة

كان دور الشهادة متداخلًا مع دور النبوة، وكان من المقرر له أن يسير مع خط الإمامة ويتداخل معه ليؤدي الإمام دوره بنفس القوة والوضوح اللذين أداهما به رسول الله ﷺ من قبل، فقد أبعد الإمام الأول أمير المؤمنين عليه السلام عن مهمته القيادية عدة سنين، وقد شهدت الأمة قيادة بديلة لم تكن تمتلك مؤهلات القيادة الأصلية، ومع ذلك فان هذه القيادة البديلة استطاعت ان تهيمن على الأمة دون أن يرى ضرورة أو وجوباً لتمتع الخليفة بتلك القدرات الاستثنائية الخاصة التي تمتع بها وصي الرسول ﷺ، الذي اعده ورباه على منهجه ورؤاه وتصوراته.

---

(٥) خلافة الانسان وشهادة الانبياء ص ٢٣/ ٢٤/ ٢٥.

وعندما احتل منصبه بعد تلك السنين الطويلة، لم يعد بمقدوره بعد إن تصدت له قوى وأحزاب عديدة من داخل الأمة بحجج مختلفة وواجه فتناً وحروباً، كان عليه ان يخوضها لتخليص التجربة الإسلامية من الشوائب، ولتسلم الأمة وتعود على نفس الطريق الذي رسمه رسول الله ﷺ من قبل.

ولم ير أمير المؤمنين عليه السلام أن يقدم أية تنازلات من شأنها أن تسهل مهمته في الحكم ظاهرياً، إلا أنها ستلحق نكسة كبيرة بالمبادىء التي آمن بها وتبناها ورأى أنها أهم من كرسي الحكم الذي يلهث وراءه خصومه.

وقد تصدى أمير المؤمنين عليه السلام، رغم ابعاده عن منصبه لدور الشهادة في عهد الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، وقد رأينا كيف قام بهذا الدور وبعملية تقويم مسيرة الأمة وحكامها، رغم أنه قد استبعد بعد ذلك حتى عن هذا الدور عندما رفض عثمان نصائحه وتوجيهاته ودعاه إلى الخروج إلى أرضه بينبع والبقاء هناك.

كما انه استبعد في عدة حوادث مماثلة وقعت قبل ذلك في عهد الخليفتين الأول والثاني، إلا أن دوره كان واضحاً رغم عدم تمتعه بسلطة الخلافة، مما يتيح له القيام مباشرة بما يراه مناسباً على ضوء فهمه وعلمه وما نشأ عليه ورآه في عهد رسول الله ﷺ.

وقد تطرقنا إلى بعض المهام التي أداها كشهيد، لتقويم مسيرة من سبقه ومنعها جهد طاقته من الانحراف والتعثر، وكانت له جولات عديدة ومواقف مشهودة في هذا المجال لم يغفل التاريخ ذكرها، ورويت لنا عشرات الأمثلة عليها.

تصدي الأئمة لمنع دور الانحراف من خلال دور الشهادة

إن دور الشهادة لم يكن مرهوناً باستلام الإمام زمام السلطة، فإذا ما أبعد عن مهمته في خلافة رسول الله ﷺ، وإمامة الأمة وقيادتها قيادة فعلية، فإنه يرى أن عليه مهمات أخرى في التوجيه والتقويم والرصد والمراقبة، فهو يتابع حال الأمة ويراقبها، ليس من بعيد، وإنما من الداخل حيث يعمل على توجيهها ونشر تصوراته وعلمه، لتصحيح مسيرتها، كلما بدا لأحد ان ينحرف بها عن خط الإسلام.. كما أنه يقوم بمهمة التغيير والنقد والتصحيح حتى وهو يواجه سلطان الدولة وعنفها وظلمها، كما قام بذلك الحسين عليه السلام، عندما كلفه قيامه بمواجهة السلطة وانحرافها، حياته وحياة ذويه ومن سار من اصحابه معه. ولم تكن تلك المرة هي الأولى التي يتصدى فيها

الامام عليه السلام لايقاف الانحراف، فقد حاول ذلك منذ وفاة الإمام الحسن عليه السلام ومحاولة معاوية تنصيب يزيد خليفة من بعده، ورأينا في الفصل السابق المحاولات الحثيثة من قبل الإمام لايقاف ذلك ومنع معاوية من تمرير مخططه، إضافة لدوره في تربية الأمة وإيصال علم جده صلى الله عليه وآله اليها من خلال حلقات العلم التي كان يعقدها في المسجد النبوي الشريف. وكانت مسيرته الملحمية من المدينة إلى العراق مروراً بمكة اعلاناً حياً لرفض دولة الظلم المعلنة بقيادة يزيد، واحتجاجاً صارخاً على الانحراف المتزايد. (وقد قدر للإمامة بعد وفاة الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله تحرم من الممارسة الفعلية لخلافة الله في الأرض ومواصلة القيادة السياسية والاجتماعية للتجربة التي خلفها النبي صلى الله عليه وآله، وتولى هذه الخلافة عملياً عدد من الصحابة على التعاقب، وفقاً لأشكال مختلفة من الاختيار، وحاولت الأمة بقيادة هؤلاء الصحابة أن يواصلوا قيادة التجربة مع الاحتفاظ في بداية الأمر للإمامة بخط الشهادة، فقد اعتبر الإمام علي شهيداً أي مشرفاً وميزاناً أيديولوجياً وإسلامياً للحق والباطل، حتى قال عمر مرات عديدة (لولا علي لهلك عمر) وقال للإمام: (أعوذ بالله ان أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن) وقال: (كاد يهلك ابن الخطاب لولا علي)، وقال: (االلّهُمَّ لا تبقني لمعضلة ليس فيها أبو الحسن)[١].

ولكن سرعان ما انتزع هذا الدور أيضاً من الإمام، وجردت السلطة الإمام علي من كلا الخطين، وتراكمت من خلال التطبيق الأخطاء، وفسحت خلافة عثمان للعناصر المستغلة أن تظهر على المسرح من جديد، وأخذت الرواسب التي كانت في طريق الاستئصال تبرز شيئاً بعد شيء، واستيقظت مطامع المستغلين الذين حاربوا الإسلام بالأمس، وأدى ذلك بالتدريج إلى استيلاء أعداء الإسلام القدامى على الحكم بعد عصر الخلفاء، إذ أعلن معاوية عن نفسه خليفة للمسلمين كقوة الحديد والنار، وكان ذلك أعظم مأساة في تاريخ الإسلام[٢].

---

(١) تراجع المصادر التي ذكرها الشهيد الصدر في هامش كتابه خلافة الانسان وشهادة الأنبياء ص ٤٧/٤٨.

(٢) وقد حاول أمير المؤمنين عليه السلام لفت نظر الأمة إلى ما ستلقاه من عنت وجور إذا ما أصبح معاوية خليفة، وقد كان علمه بذلك من العلم الذي علمه إياه رسول الله صلى الله عليه وآله. أما أنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم، مندحق البطن، يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه، ولن تقتلوه) نهج البلاغة ٩٢. =

ولم يترك الأئمة على الرغم من ابعادهم عن الزعامة الإسلامية مسؤولياتهم القيادية، وظلوا باستمرار التجسيد الحي الثوري للإسلام والقوة الرافضة لكل ألوان الانحراف والاستغلال، وقد كلف الأئمة ذلك حياتهم الواحد بعد الآخر، واستشهد الأئمة الأحد عشر من أهل البيت بين مجاهد يخر صريعاً في ساحة الحرب، ومجاهد يعمل من أجل كرامة الأمة ومقاومة الانحراف فيغتال بالسيف أو السم)[1].

قتل الأمويون للإمام الحسين عليه السلام محاولة لقتل دور الشاهد

وقد عمق من مسألة استخلاف معاوية، قيامه بعد ذلك بجعل الحكم وراثياً، وأجبر الأمة بعد استدراجها واخضاعها لمبايعة يزيد خليفة من بعده على المسلمين،

= (لتجدن بني أمية لكم أرباب سوء بعدي، كالناب الضروس، تعذم بفيها، وتخبط بيدها، وتزبن برجلها، وتمنع درها، لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعاً لهم أو غير ضائر بهم)، ١٣٨.

(والله لا يزالون حتى لا يدعوا لله محرماً إلا استحلوه ولا عقداً إلا حلوه، وحتى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا دخله ظلمهم ونبا به سوء رعيهم)١٤٣.

(.. إن الذي أنبئكم به عن النبي الأمي ﷺ، ما كذب المبلغ ولا جهل السامع، لكأني أنظر إلى ضليل قد نعق بالشام وفحص براياته في ضواحي كوفان، فإذا فغرت فاغرته، واشتدت شكيمته، وثقلت في الأرض وطأته، عضت الفتنة أبناءها بأنيابها، وماجت الحرب بأمواجها وبدا من الأيام كلوحها، ومن الليالي كدوحها...) ص ١٤٧.

(..كأني به قد نعق بالشام، وفحص براياته في ضواحي كوفان، فعطف عليها عطف الضروس وفرش الأرض بالرؤوس. فقد فغرت فاغرته، وثقلت في الأرض وطأته، بعيد الجولة، عظيم الصولة. والله ليشردنكم في اطراف الارض حتى لا يقبل منكم الا قليل، كالكحل في العين..)

(... ظاهر غيه، مهتوك ستره، يشين الكريم بمجلسه، ويسفه الحليم بخلطته،) ٤١١.

(فانما هو الشيطان، يأتي المرء بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ليقتحم غفلته، ويستلب غرته) ٤١٥ - ٤١٦.

(.. ان لبني امية مروداً يجرون فيه) ٥٥٧

(حتى يظن الظان أن الدنيا معقولة على بني امية، تمنحهم درها، وتوردهم صفوها، ولا يرفع عن هذه الامة سوطها ولا سيفها) ١٢٠. (طبيب دوار بطبه، قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه يضع ذلك حيث الحاجة اليه من قلوب عمي وآذان صم، والسنة بكم، تتبع بدوائه مواضيع الغفلة ومواطن الحيرة) ١٥٦.

(١) خلافة الانسان وشهادة الانبياء ٤٣ - ٤٩.

وهو أمر لا يكاد يصدق أو يقبل في جو إسلامي صحيح، وفي أمة إسلامية حية، لم تفقد بعد مقومات وجودها وبقائها، وكان قبول الأمة بذلك يعني انحدارها إلى الحد الذي يطمع فيه أعداؤها.

وكان لا بد لإمام الأمة ان ينبهها إلى ذلك ويوقظها بحزم لتشاهد حالها وما وصلت إليه، ومن الطبيعي ان ذلك ما كان ليتم بالكلام وحده أو بجملة من الخطب أو المواعظ والارشادات، كان لا بد من فعل حاسم جريء يقوم به الإمام لتشخيص الانحراف أولًا وتحذير الأمة من الانجراف معه إلى الحد الذي انجرفت اليه فعلًا، وتجنيبها هذا المصير المحزن الذي أوصلها اليه اعداؤها والمتسلطون عليها.

وكانت مهمة تقويم الأمة وارجاعها إلى الصواب ستثير السلطة الاموية الحاكمة، وستفقدها صوابها وستعمد إلى مواجهته واستعمال اشد الوسائل عنفاً ودموية معه لأن معركتها معه ستكون معركة وجود مصيرية، وإذا ما انتصر في ساحة الحرب فربما تكون تلك معركتهم الأخيرة معه ومع غيره، فلم يكن ما حصلوا عليه من مكاسب ومغانم قليلًا بأي حال من الأحوال، وقد أفصح الإمام عليه السلام عن ذلك منذ بداية الأمر، عالماً بطبيعة الساحة التي كان يقاتل فيها، وهكذا شهدنا وسمعنا تصريحاته العديدة بهذا الخصوص.

(وأيم الله لو كنت في حجر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا في حاجتهم. ووالله ليعتدن علي كما اعتدت اليهود في السبت)[١].

(والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا سلط الله عليهم من يذلهم، حتى يكونوا أذل من فرم الامة)[٢].

إن معركة أعدائه ستكون شرسة معه إلى أبعد حد، إلا أن الأمر كان لا يحتمل ترك الأمة تنحدر إلى أكثر من ذلك الحد الذي انحدرت إليه، وإلا ضاعت إلى الأبد، ولو كان قد أقرها هو عليه السلام، على مواقفها، لوجدت المبرر الشرعي للانحراف ولألصقت به تهمة سقوطها، وما عاد التاريخ يحدثنا إلا عن ذلك الإمام الذي استسلم لسلطان الانحراف ولم يقم بواجبه حذر الموت وخوفاً منه وحرصاً على سنوات قليلة باقية؟

---

(١) و(٢) الطبري ٣/٢٩٦/٣٠٠، وابن الاثير ٣/٤٠٠/٤٠١، واللهوف ٦٢، ومقتل الخوارزمي ١/٢٢٦، مع بعض الاختلاف البسيط في النصوص.

فلم يكن الفعل الذي قام به الإمام عليه السلام مجرداً من مبرراته، فقد أوضح للجميع منذ رفضه البيعة، وحتى قيامه، بالمجموعة القليلة من ذويه وأصحابه إلى العراق، السبب الذي دعاه إلى هذا الخروج وأوضح المهمة التي خرج لها، منطلقاً من مسؤولياته الدقيقة لتقويم الاعوجاج ودفع الانحراف، كإمام فعلي لهذه الأمة وإن استبعد من مركز القيادة الفعلية.

ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله[1].

(وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله فإن السنة قد أميتت وإن البدعة قد أحييت، وان تسمعوا قولي وتطيعوا أمري اهدكم سبيل الرشاد)[2].

لم يشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله عز وجل وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين، وقد دعوت إلى الإيمان والبر والصلة[3].

(ونحن أهل هذا البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالجور والعدوان[4].

(إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاّ لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله ان يدخله مدخله. إلا أن هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، واحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق من غير)[5].

(إنه قد نزل من الأمر ما ترون، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها، واستمرت جداً، فلم يبق فيها إلا صبابة كصبابة الاناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن

---

(١) الطبري ٣/ ٢٧٨، وابن الاثير ٣/ ٢٦٧، ومقتل الخوارزمي ١/ ١٩٥، ومناقب آل أبي طالب.

(٢) و(٣) الطبري ٦/ ٢٠٠/ ٢١٩، وراجع المصادر السابقة الارشاد للمفيد ٢١٩، وابن كثير ٨/ ١٦٧.

(٤) الطبري ٦/ ٢٢٨، وابن الاثير ٣/ ٤٠٨.

(٥) الطبري ٦/ ٢٢٩، وابن الاثير ٣/ ٤٠٩، وأنساب الأشراف ٣/ ١٧١.

في لقاء الله محباً، فإني لا أرى الموت إلا شهادة ولا الحياة مع الظالمين إلا برما)[1].

(فسحقاً وبعداً لطواغيت الأمة وشذاذ الأحزاب ونبذة الكتاب ونفثة الشيطان ومحركي الكلم ومطفيء السنن وملحقي العهرة بالنسب المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين)[2].

(أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم، وهو خير الحاكمين)[3].

نصوص الثورة الحسينية تخلد دور الشاهد

كانت حجج الإمام عليه السلام بالغة وكلماته المنتقاة معبرة وقوية وواضحة إلى أبعد حد، ولعله قد أراد لها ان تطرق الاسماع وتكون بدوّرها شهيدة على الجميع حتى ولو بعد مئات السنين.

لقد كشف لهم الأوضاع التي مروا بها وعاشوها في ظل دولة الظلم والانحراف والتي ربما أصبحت مقبولة لديهم بحكم العادة والالفة، وأراهم أنه لا بد من التغيير، وانه هو عليه السلام أحق من يقوم بهذه المهمة وأحق من غير، وأنهم مسؤولون جميعاً بالمشاركة معه في عملية التغيير هذه.

لم يغظه استسلامهم وهزيمتهم بقدر ما أحزنه ذلك، ولعله كان حزيناً عليهم أكثر من حزنه على نفسه، ألم يحدثه أبوه عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: (إن الدنيا

(١) الطبري ٦/ ٢٢٩، والعقد الفريد ٥/ ١٢٢، واللهوف في قتلى الطفوف ٦٩، ومقتل الخوارزمي ٢/ ٥، وتحف العقول ١٧٤.

(٢) مناقب آل ابي طالب ٤/ ٩٨، تحف العقول ١٧١، مقتل الخوارزمي ٢/ ٧، الاحتجاج للطبري ٢/ ٢٤. مع بعض الاختلاف في النص.

(٣) مقتل الخوارزمي ١/ ١٨٨، وبحار الأنوار ٤٤/ ٣٢٩: (ومنهج آل البيت عليهم السلام واضح ومفهوم، وطالما كانت نفس هذه الصيحات تنطلق من فم أمير المؤمنين عليه السلام (اللهم انك تعلم انه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام ! ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الاصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك) نهج البلاغة ١٨٩.

سجن المؤمن وجنة الكافر، والموت جسر هؤلاء إلى جناتهم، وجسر هؤلاء إلى جحيمهم)[1].

هل يحزن على نفسه من يرى أن الجنة أمامه، بل هي قريبة منه إلى هذا الحد؟

أراهم أن كل واحد منهم ظالم لنفسه ولغيره، وأنهم ضحايا أيضاً ما داموا يذعنون وينفذون خطط السلطة الجائرة التي سرقت مكاسب المسلمين واستأثرت بالسلطة والجاه والمال، وكانوا مجرد أداة من أدواتها الشريرة للعبث والجور.

كان الحسين عليه السلام بفعله ذاك وأقواله شهيداً على أمته في عصره، وشهيداً عليها في كل العصور، أرادها أن تنتبه للظالمين والمنحرفين والخارجين عن الإسلام، وأرادها ان تعود إلى الكتاب الذي أهمل والسنة التي أميتت وأن تترك البدعة التي أحييت، وأراد تنبيهها إلى ان تنهج نهج قادتها الحقيقيين وأئمتها إلى الحق والإسلام، وتترك من سار فيها بالجور والعدوان، وكان يحزنه أن تستسلم هذه الأمة ذلك الاستسلام المهين لأعدائها وتسير خلف من تركوا طاعة الرحمن ولزموا طاعة الشيطان، واظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله.

كان استنكاره لحالة الظلم توبيخاً وتقريعا لهم، عندما كان يلفت انظارهم إلى الحقيقة الموسفة التي كانوا يأبون الالتفات إليها، (ألا ترون أن الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه؟)، وكان ذلك بفعل مقصود مدبر.

ماذا يستطيع المؤمن أن يفعل في جو فاسد كهذا؟ هل ينغمس فيه ويدنس نفسه ويلوثها، أم يبتعد عنه ويرغب في لقاء ربه محقاً؟ هل يساوم الظالمين ويلتحق بركبهم ليكون واحداً منهم؟ أم يمضي في مهمته الرسالية إلى النهاية..؟ وهكذا صرخ عندما لم يستجيبوا له وواجهوه بذلك الصمت الذليل والجباه المطرقة، علهم يفيقون وينتبهون، انه يواجه لحظاته الأخيرة بشجاعة وسعادة غامرة، فليس لديه شك بمصيره

(١) اثبات الوصية ص ١٣٩، وبلغة الحسين ص ١٩٠، وهكذا كان يهيب باصحابه مبشراً (صبراً يا بني الكرام، فما الموت الا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة والنعم الدائمة، فايكم يكره ان ينتقل من سجن إلى قصر، وما هو لأعدائكم إلا كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب).

مع جده ﷺ، وهم يواجهون (حياة) يحيط بها الموت في ظل الاستبداد والتسلط والظلم، حياة غير لائقة إلا بالأذلاء الذين فقدوا كل شعور بالكرامة.

(فإني لا أرى الموت إلا سعادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا برما).

لقد آلمه خضوعهم واستسلامهم وسكوتهم واطراقهم، وحاول بشتى السبل أن يستثير فيهم نخوة الإسلام. وحماسته وغيرته، وكان يريد حياتهم حياة كل الأمة وإن أدى الأمر إلى أن يفقد حياته هو، فلماذا لا تستجيب له الأمة، ولماذا تراجعت عن رسالتها وأهدافها؟ وهل كان الصراع بينه وبين من أخرجهم يزيد لقتاله شخصيا؟

(أخبروني، أتطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته أو بقصاص من جراحة؟)[1].

أراد اشعارهم انه انما كان يخرج لأجلهم، وان ليس بينه وبينهم ثأر أو خصومة أو تنازع على مال، وأنهم إنما كانوا ينساقون كالانعام وراء عدوهم وجلادهم لقتله الذي لن يكون إلا في مصلحة هذا الجلاد وحسب، وانهم ينساقون وراء أوهامهم اذا ما صدقوا هذا الجلاد، الذي ربما أراد إيهامهم بأن الحسين عليه السلام كان يقصدهم هم بثورته، وقد تؤثر هذه الثورة على معائشهم ومصائرهم، وربما تكدر صفو عيشهم الذليل.

وحتى هذا الأمر، لفت الإمام عليه السلام أنظارهم إليه، وما عساه أن يفعل أمام تلك النفوس التي أبت إلا أن تظل في سباتها وجهلها وغفلتها؟ لم يملك إلا أن يصرخ بهم صرخته الأخيرة، بعد أن أدرك أن لا أمل يرتجى منهم، وأنهم أعطوا بأيديهم اعطاء الذليل وأقروا اقرار العبيد، واستسلموا لعدوهم، لتظل شاهدا عليهم وعلى أوضاعهم المأساوية التي بلغتها الأمة كلها حين تنازلت عن كرامتها ووجودها كأمة مسلمة، واستسلمت ليزيد وسارت وراءه دون وعي أو إرادة، تنفذ اغراضه وتنقاد لهواه

(لا والله لا أعطيهم بيدي اعطاء الذليل ولا أقر اقرار العبيد، عباد الله إني عذت بربي وربكم أن ترجمون. أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب)[2].

---

(١) الطبري ٣/ ٣١٩، وابن الاثير ٣/ ٤١٩.

(٢) الطبري ٦/ ٢٤٣، وابن الأثير ٣/ ٤١٩.

ولـم يجد مما رآه منهم، بارقة امل، فقد كان الخضوع والخوف والاستسلام هو الطابع الذي طبع تصرفاتهم، ورأى ان لا امل بتراجعهم عن ذلك الاستسلام المخزي، رأى انهم قاتلوه، وقد حاول ان يثير فيهم بقايا النخوة العربية والشهامة التي تمتع بها بعض أجدادهم لا لكي يبقوا عليه، فذلك أمر لو أراده لكان يسيراً عليه، فهو لم يعر حياته اهتماماً أمام المهمة الكبيرة التي كان يتصدى لانجازها، ولكن لكي يمنعوا رحله وأهله من طغامهم وجهالهم.

(ويلكم إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون يوم المعاد فكونوا في أمر دنياكم أحراراً ذوي حساب. امنعوا رحلي وأهلي من طغامكم وجهالكم)[١].

لقد أحزنه أن يحيطوا به، وهو حيد بينهم، جاء لانقاذهم، وجاءوا لقتله، إنه سيواجه ربه الودود الرحيم وسيفد على جده ﷺ وأبيه عليه السلام، وستنتهي مسيرته بالفوز العظيم، أما هم فما عساهم أن يلاقوا بعده هنا مع مذلهم وجلادهم، وهناك في الدار الآخرة؟

لم تبدر منه بادرة استسلام أو تخاذل أو تهاون في كل مراحل المعركة، ومنذ بداية المسيرة الملحمية من المدينة إلى العراق، وحتى آخر لحظة.

(كان يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع، يتقي الرمية ويفترص العورة، ويشد على الخيل (فشد عليه رجاله ممن عن يمينه وشماله فحمل على من عن يمينه حتى انذعروا؟ وعلى من على شماله حتى انذعروا؟؟، وعليه قميص له من خز وهو معتم.

فوالله ما رأيت مكسوراً قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً، ولا أمضى جناناً ولا أجرأ مقدماً منه، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله، إن كانت الرجالة لتنكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى اذا شد فيها الذئب)[٢].

وكانت كلماته الأخيرة لهم اشعاراً لهم بالمصير المحزن الذي سوف ينتهون إليه بعد أن ارتضوا الهوان، وقد رأى انهم ما داموا قد وصلوا إلى هذا الحد الذي يستسهلون فيه قتل أمامهم وابن نبيهم ﷺ وسيد شباب أهل الجنة، وهم يعرفونه حق

---

(١) المصدر السابق ٢٥٨ - ٤٣١.

(٢) الطبري ٣/ ٣٣٤، وابن الأثير ٣/ ٤٣١.

المعرفة، ويسيرون خلف عدوه وعدوهم الذي أمات السنة، وأحيا البدعة، وحكم بالجور والظلم، فإن مصيرهم سيكون أسوداً، قاتم السواد وسيكون مليئاً بالحروب والخصومات والهوان والخذلان والعذاب الأليم في نهاية المطاف.

(أعلى قتلي تحاثون أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله مني، وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون، أما والله إن لو قد قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دمائكم ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم)(١).

لقد انتصرت إرادة التغيير والإيمان في النهاية، وسجل مقابل الموقف الكبير[للحسين وأصحابه عليهم السلام]، موقف التراجع والاستسلام والتخاذل المخزي على من دعوه لينصروه وينصروا الإسلام ثم قتلوه، وكان تراجعهم وقعودهم عن نصرة الحسين عليه السلام وخذلانه وقتله بعد ذلك، دافعاً لصحوة دائمة من قبل الآلاف من أبناء الأمة على مر العصور لاكمال المشوار الذي بدأه الإمام عليه السلام، وإن اقتضى الأمر تضحيات كبيرة كتضحيته عليه السلام وأصحابه.

الخلافة الإسلامية عقد بين طرفين ينفسخ إذا ما أخل الخليفة بشروطه

وعندما نتعامل مع مسألة الخلافة في الارض، واستخلاف الانسان على الطبيعة وعلى أخيه الإنسان من وجهة نظر إسلامية وتصور إسلامي، فان ذلك يعني إذا ما أقمنا كياناً متكاملًا على هذا الأساس، فإن أي اخلال به سيعني رفض هذا التصور القائم على عقد مع المستخلف، وهو الله سبحانه وتعالى.

إن هذا الرفض يبرر قيام الأطراف الأخرى بفسح العقد باعتبار أن طرفاً منها قد أخل به، وهو أحد الأطراف الفاعلة ذات إرادة وحرية، كما أنه يشكل ركناً مهما من أركان هذه المعادلة لضمان قيامها وتفاعل عناصرها بشكل صحيح، وهو المستخلف في حالتنا هذه.

فنحن في الإسلام لا نبني مسألة الحكم على تصورات جاهلية قائمة أو مستحدثة، وانما نبنيها على اساس الصيغة الرباعية التي تحدثنا عنها في الفصل الاول من هذه الدراسة، وإلا لما عادت الصيغة صيغة إسلامية، واعتبرت ملغية منذ البداية.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٤، وابن كثير ٨/ ١٩٠، وابن الأثير ٣/ ٤٣٢.

وإذا ما سيقت الأمة كلها لقبول عقد لا يعتمد هذه الصيغة، وجرت إلى تبنيها وقبولها بمختلف الوسائل والأساليب المتاحة التي تملكها قوى متسّلطة أو متنفذة، أو اطراف مؤثرة، فإن مسؤولية ذلك تقع على الجميع لا على قوة التسلط وحدها. ويتحمل من يملكون علماً ووعياً وشعوراً استثنائياً بالمسؤولية، مسؤوليات إضافية، إذ ينبغي أن يكون هؤلاء في مقدمة الذين يتصدون لأي انحراف أو خرق لقوانين الإسلام، وفي مقدمتها مسألة الحكم القائمة على عقد يتقيد بموجبه الطرف (المؤهل) والقائم بعملية الاستخلاف، (كخليفة أو إمام أو أمير للمؤمنين) أو قائد للمسلمين، بالسير وفق ما توجبه عليه الأحكام والتشريعات والقوانين الإسلامية.

وسيكون هؤلاء محط أنظار الأمة التي ستراقبهم لتر كيف ستكون تصرفاتهم أو ردود فعلهم المتوقعة بلا شك، وهو رفض الخطأ والانحراف وسيكونون بقعودهم وعدم ابدائهم اي فعل رافض قد وقفوا بصف اولئك الذين يقومون بالخرق والانحراف. ولم يكن الإمام الحسين عليه السلام، الذي كان ينبغي ان يكون هو الطرف المستخلف والقائم الفعلي والمؤهل الوحيد لإمامة وخلافة الأمة، ممن تجهل الأمة مركزه ودوره في هذه الصيغة التي كان ينبغي أن تكون قائمة، والمنتهكة بإرادة شخصية من معاوية وهوى شخصي منه.

وكان عليه، باعتباره أول المعنيين المسؤولين، أن يعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، ويقوم بكامل مسؤوليته أمام الأمة، ويثبت حقه ويطالب به أمامها، ولا يتنازل أمام وطأة الشده أو الاغراء الأمويين، وبمطالبته بحقه لا يكون قد طالب بشيء شخصي، وانما بحق عام للأمة.

أنَّ كونه مسؤولًا ومكلفاً بحمل هذه المسؤولية الخاصة، يلقي عليه عبء المطالبة بها قبل غيره، خصوصاً وأنه يملك إمكانية فهم واستيعاب الإسلام بشكل دقيق، وفهم أبعاد معادلة الاستخلاف التي لو أتيح له أن يكون أحد أطرافها كخليفة وأمام مسؤول، لكان قد جعلها تسير بشكل صحيح وبإرادة إنسانية واعية ومتفاعلة، تنسجم وتستجيب بشكل تام للإرادة الإلهية المطلقة. وحتى لو لم يكن هو المعني بهذه المسؤولية الخاصة وهذا مجرد فرض لا غير لكان عليه أن يستجيب استجابة واعية لمن يحاول رد الأمور إلى نصابها الصحيح، ويسير خلف من يتحمل المسؤولية الحقيقية، كما فعل أصحابه معه، حينما اندفعوا خلفه، رغم عدم تمتعهم بنفس القدر من الشعور بالمسؤولية الذي تمتع به هو، وحاربوا تحت لوائه، وذهبوا إلى حد

الاستشهاد معه في معركة الطف، وكما فعل هو من قبل باستجابته التامة لوالده أمير المؤمنين واخيه الحسن عليهما السلام، عندما رأى إن الموقف المناسب الذي أخذاه في تصدي الأول لمعاوية للاسباب التي عرفناها، ومهادنة الثاني له للاسباب التي ذكرناها أيضاً، مما كان من شأنه أن يعود على الإسلام بنفع كبير، وأن عاد عليهما شخصياً كما كان يبدو من ظاهر الامر بضرر ملحوظ.

الإمام الحسين عليه السلام الشاهد والخليفة الحقيقي

لم تكن الأمة تجهل من هو أمامها وقائدها الحقيقي، وإن أدركت أنها قد تخلت عنه بفعل الظروف سالفة الذكر، ولم تكن تجهل انها قد استجابت إلى حد بعيد واستسلمت وهادنت السلطة الأموية الجائرة، بل وارتمت في أحضانها جثة هامدة، لكنها حتى وهي في غمرة الاستسلام والغياب عن الوعي والإرادة الصحيحة كانت تأمل أن يتقدمها هذا الإمام القائد للقيام بفعل حاسم تجاه هذه السلطة، بل والقيام بفعل خارق(١).

وقد طلبت منه في مرة سابقة كما ذكرنا في عهد معاوية أنت ينتفض ويثور عليه، غير أنه رفض ذلك بفعل الظروف القائمة آنذاك، والتي كانت تهدد باندثار القضية كلها وسحق القوى المحتملة للنهوض في الوقت المناسب والتي ربما تشكل آخر امل حقيقي للأمة.

غير أن الوقت المناسب قد حل فعلًا بوفاة معاوية، الذي امتلك ما لم يمتلكه يزيد من كفاءة في المكر والتلون والحيلة، والذي ظهر أمام الأمة بغير المظهر المكشوف الذي بدا فيه ابنه يزيد، ذو التجربة السطحية، والذي لم يوضع في محك المشاكل والأحداث المعقدة التي وضع فيها معاوية.

وكانت اللحظة حاسمة فعلًا عندما خلا الجو ليزيد، واصبح وحيداً في الساحة، وأصبحت مسألة مبايعته لا تنتظر مزيداً من الوقت، فهو إما أن يجلس على

(١) كما روي عن الفرزدق أن الناس كانوا يعتقدون أنه عليه السلام سيملك ويظهر أمره (ولا يجوز السلاح فيه ولا في أصحابه. . ، وينتظرونه في كل يوم وليلة. . .) وكان من المروجين لذلك عبد الله بن عمرو بن العاص الذي حث الفرزدق على الالتحاق بالحسين عليه السلام، مع انه لم يفكر بذلك. . ، وقد لامه الفرزدق وشتمه بعد ذلك. (الطبري ٣/ ٢٩٦/ ٢٩٧).

العرش، ويستسلم له الجميع، بما فيهم الحسين عليه السلام أو يشن الحرب أو حملة التصفيات الدموية على من يقف بوجهه، حتى ولو كان هو الإمام الحسين عليه السلام. ولم يكن الأمر يحتمل المزيد من التأخير، ويزيد قد جلس فعلًا على كرسي الحكم، ومارسه بشكل عملي بعد إن كانت البيعة قد أخذت له منذ زمن طويل أي قبلًا، سبع سنين من وفاة معاوية.

فماذا كان بوسع الإمام الحسين عليه السلام أن يفعل، وهو الذي يدرك مسؤوليته بكامل أبعادها، ويدرك أن أنظار الأمة كلها تتجه إليه، وأنه الوحيد بنظرها الذي يستطيع رفع معنوياتها ومستوى شعورها بمسؤوليتها الرسالية وانهاضها، أو الاطاحة بها إلى الأبد، وكان شعوره الكبير والواعي بمسؤوليته لا يتيح له ان يفعل هذا الأمر الثاني، وإلا لبررت الأمة استسلامها أمام الدولة الأموية ويزيد، وأمام كل دولة للظلم بعد ذلك، والقت تبعة ذلك كله عليه عليه السلام. وهنا نتساءل: صحيح أن الحسين عليه السلام لم يستلم منصب الخلافة والقيادة بشكل فعلي، ولكن: ألم ينجح توعية الأمة وجعلها تدرك أنها هي المسؤولة عن تبعة استسلامها وتراجعها عن الاسلام؟ وإن كان ثمن نجاحه هذا باهظاً.

ألم ينجح بجعل الأمة تدرك أن إمامها وقدوتها، وقد استهان بحياته نفسها، ألقى عليهم مسسؤولية الأحجام عن التضحية كما فعل هو بالضبط وكما فعل اصحابه الآخرون، الذين لم يمتلكوا ما امتلكه هو من قدرات وعلم كبير ووعي واحساس عميق بالمسؤولية؟.

مع أنهم أناس من عموم هذه الأمة، وان ما فعله هؤلاء في سبيل هذه القضية المصيرية يمكن أن يقوم به كل فرد من الأمة؟

لا شك أن نجاحه في ذلك كان منقطع النظير، وإن كان الثمن باهظاً كما قلنا، وهو حياة إمام الأمة، الذي كان ينبغي ان يكون على رأس القيادة، يتمتع بثمار سعيه وجهاده بدلًا من هذا المصير الدامي.

وحتى في هذه الحالة، وعند استلامه القيادة الفعلية كخليفة وإمام، هل كان سيعد ذلك امتيازاً شخصيا يتيح له التمتع بما أعلن معاوية انه حق له في ضوء تصوره بان الملك لله وأنه خليفة الله يتصرف كيفما يشاء، يعطي ويمنع، كما عبر عن ذلك وطبقه فعلًا؟ هل كان سيتمتع بموارد المسلمين وامكانات الدولة ويسخرها لخدمته

ومشاريعه واهوائه؟ أم أنه كان سيعيد سيرة جده صلى الله عليه وآله وابيه عليه السلام؟ اليس ذلك ما أوضحه فعلًا؟

ان استلام مسؤولية الخلافة من قبل الحسين عليه السلام سيلقي عليه عبء القيام بكل أمورها وفق التصور الصحيح الذي ارساه جده صلى الله عليه وآله وقوى دعائمه وأبوه عليه السلام، ولم يكن من الهين اعادة الامة التي اعتادت الانحراف وألفته في ظل معاوية، وأصبح بنظرها هو الأمر الصحيح، وأصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، إلى الخط الأول المستقيم، وكانت تلك مهمة شاقة، غير ان الامام في ظل إدراكه لمسؤولياته كان يرى أن الأمر سيان لديه، عاش أم قتل لانجاز هذه المهمة الكبيرة، وتصحيح خط الانحراف واعادة الأمة إلى سيرتها السابقة خلف الإسلام وقادته الحقيقيين.

وهكذا جاء فعله البطولي شاهداً على قيامه بدوره الصحيح، بوعي ودون تردد أو شك، وشاهداً على تخاذل الأمة واستسلامها وعدم استجابتها لنداء الإسلام الذي يرفض الظلم والانحراف وكل شريعة مزورة لا تخدم إلا أهداف الطغاة والفراعنة، ويحملها المسؤولية الدائمة لابعادهم عن مراكز السلطة والنفوذ ما دامت تدعي حمل رسالة الإسلام ومبادئه العظيمة.